غذاء الجنان بثمر الجنان

محاضرات في

علوم القرآن

د. فضل حسن عباس





محاضرات في

علوم القرآن

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م

الطبعة الأولى



العبدلي - مقابل عمارة جوهرة القدس
ص.ب : 927511 عمّان 11190 الأردن
هاتف : 5693940 - فاكس : 5693941

e-mail : alnafaes@hotmail.com
web : www.al-nafaes.com

غذاء الجنان بثمر الجنان

محاضرات في علوم القرآن

د. فضل حسن عباس



بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾ [الرحمن:١-٤]، الحمد لله الذي وسعت رحمته كل شيء، الحمد لله الذي سبقت رحمته غضبه، الحمد لله الذي له الحمد ملء السماوات وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شاء من شيء بعد، سبحانك ربنا وسعت كل شيء علماً، فاغفر لنا ما فرطنا، وما كان من قصور منا علمناه أو لم نعلمه، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد صفوة الله من خلقه، خيرته من عباده، خاتم أنبيائه ورسله، صلاة وسلاماً دائمين بدوام ملكه سبحانه، اللهم صل على سيدنا محمد، أتقى الناس وأخشاهم لله، وأعلمهم بما خصه الله به.

عُلِّمت بالوحي لا باللوح والقلم   علماً خصصت به من بارئ النسم

وعلى آله، ورضي الله عن صحابته، الذين لو أنفق أحدنا مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه، أما بعد:

فأرجو الله أن يكون من حُسْن الطالع، ومن علامات القبول، أن أقدم هذا الكتاب مع نفحة رمضانية مباركة غرة شهر رمضان المبارك الذي أنزل فيه القرآن، هدىً للناس وبيّنات من الهدى والفرقان، راجياً أن ينفع الله به ويبارك فيه ويأجر عليه. توخيت فيه يسر العبارة وسهولة الأسلوب، وجمع ما استطعت

من فوائد، كما توخيت فيه الإيجاز، وقد كتبت منذ سنين كتاب «إتقان البرهان»، وقد حالت العجلة دون تضمينه بعض الفصول التي لابد منها، وأرجو أن يهيئ الله ذلك في طبعة جيدة في وقت قريب إن شاء الله.

وهذا الكتاب فيه فصول وفوائد ومباحث انفرد بها، وسميته غذاء الجَنان بثمر الجِنان علوم القرآن.

والله أسأل أن يبارك فيه وينفع به، كما نفع بأصله، وأن يجزي أئمتنا الذين لا نجاريهم، وإنما نحكيهم عنا خير الجزاء إن ربي قريب مجيب.

أ. د. فضل حسن عباس

* * *

تمهيد

جهود العلماء في علوم القرآن

إن كثيراً من موضوعات علوم القرآن، كان الحديث عنها مبكراً منذ عهد الصحابة - رضوان الله عليهم - وذلك مثل المكي والمدني، وأسباب النزول، والنسخ، والمحكم والمتشابه، وغير ذلك من موضوعات وجدنا الصحابة رضوان الله عليهم لهم فيها حديث قد يقل وقد يكثر.. ولكن هذا الحديث كان حديثاً خاصاً ببعض الآيات القرآنية الكريمة.. فهاهي السيدة عائشة رضي الله عنها تبين لنا أن قول الله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ [القمر:٤٦] نزلت في مكة وهي طفلة صغيرة، وأن سورة النساء نزلت وهي في بيت الرسول ﷺ ، وعبدالله بن عباس – رضي الله عنهما – يبين لنا أن قوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ [البقرة:٢٦٦] ضربت مثلاً. وأن سورة: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ [النصر:١] نعت إلى النبي ﷺ نفسه، وعبدالله بن الزبير رضي الله عنه وهو يسأل عثمان عن ترتيب الآيات، أن قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ ﴾ [البقرة:٢٤٠] منسوخة بقول الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة:٢٣٤] وكثير من الصحابة - رضوان الله عليهم - تحدثوا عن أول القرآن وآخره نزولاً، وكثير مثل هذا نجده في كتب السنّة.

ولكن هذا العلم كغيره من العلوم من حيث التدرج في التدوين، ولما كانت كتب التفسير بدأ تدوينها في القرن الثاني والثالث الهجريين، وقد كانت مسائل هذا العلم جزءاً من علم التفسير أقول لما كانت كتب التفسير قد دونت مبكراً، اقتضى هذا الأمر تدوين بعض قضايا علوم القرآن مبكرة كذلك.

وفي القرن الثاني الهجري بدأ التدوين لموضوعات هذا العلم، فكتب علي ابن المديني شيخ البخاري – رضي الله عنهما – في أسباب النزول. ثم توالت الكتابات في موضوعات هذا العلم، فكتب بعضهم في النسخ، وآخرون في مبهمات القرآن، والمكي والمدني، وفضائل القرآن، وغير ذلك من موضوعات هذا العلم، ولكن أول كتاب اشتمل على موضوعات هذا العلم كان كتاب «فنون الأفنان في علوم القرآن» للعلامة أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي المتوفى (٥٩٧هـ)، فقد تحدث في كتابه عن فضائل القرآن، وكونه غير مخلوق، ونزول القرآن على سبعة أحرف، وكتابة المصحف وهجائه، والمحكم والمتشابه، وقد طبع الكتاب لأول مرة عام (١٤٠٨هـ) بتحقيق الدكتور حسن ضياء الدين عتر، شقيق العالِم الفاضل أخينا وحبيبنا الدكتور نور الدين عتر.

وبعد ابن الجوزي كتبت موضوعات في القراءات، والمكي والمدني، ومتشابه القرآن.. ولكن أكثر الكتب جمعاً وسعة بعد كتاب ابن الجوزي كان كتاب «البرهان في علوم القرآن»، للإمام الزركشي المتوفى (٧٩٤هـ)، ثم جاء الحافظ السيوطي، فكتب كتابه الجامع: «الإتقان في علوم القرآن» . وإذا أردنا أن نوازن بين الكتابين (البرهان والإتقان) فإننا نجد أن كتاب السيوطي رحمه الله كان أكثر جمعاً من سابقه «البرهان» ، فقد عوّل عليه السيوطي كثيراً، ولكن مع ذلك فإن كتاب الإتقان تضمن أموراً كان حرياً أن يخلو منها ويتنزه عنها، سواءً أكانت روايات ضعيفة أم أقوالاً باطلة، حتى إن الشيخ الغماري رحمه الله كتب جزءاً صغيراً نبّه فيه على بعض المواطن الخطيرة التي اتكأ عليها المستشرقون

وغيرهم من خصوم الإسلام فيما وجهوه من سهام الحقد إلى كتاب الله بخاصة وإلى الإسلام بعامة.

وكتاب «البرهان» يشتمل على سبعة وأربعين نوعاً بينما يشتمل كتاب «الإتقان» على ثمانين نوعاً، وإذا نظرنا إلى هذه الأنواع وجدنا كثيراً منها متداخلاً بعضه ببعض، ومما امتاز به كتاب «البرهان» إطالته النفَسَ في القضايا اللغوية وأساليب القرآن الكريم.

لقد طُبع الكتاب في أربعة أجزاء، فكان نصيب النوعين الأخيرين - السادس والأربعين والسابع والأربعين، وهما في الأساليب والأدوات اللغوية - يزيد على نصف الكتاب، حيث تحدّث عنهما في جزأين الثالث والرابع وشيء من الجزء الثاني، وهذه المادة اللغوية التي لم يطلع عليها كثير من طلاب العلم حرية بالاهتمام جديرة بأن تكون مادة لطلاب الدراسات العليا، ثم إن علوم القرآن اشتملت قضايا كثيرة تتصل بعلوم متعددة منها علم أصول الفقه: الخاص والعام، المطلق والمقيد، والنسخ، كما تجد فيها من علمي النحو والصرف كإعراب القرآن وصيغ كلماته واشتقاقها، ومن المعاني كالقصر والاستفهام والتمني والالتفات والتقديم والتأخير، ومن علم البيان كتشبيهات القرآن ومجازاته واستعاراته وكناياته، ومن علم البديع كالجناس والسجع، ومن علوم القراءات والتجويد كأقسام القراءات وأحكام المدود والإخفاء والإقلاب.. الخ.

هذه المباحث الكثيرة التي ضمنها العلماء كتبهم في علوم القرآن أخذت حيزاً كبيراً منه، على أننا ينبغي أن نسجل هنا أن بعض هذه الموضوعات كانت غزيرة الفوائد، ثم إن هذه الكتب وبخاصة كتابي البرهان والإتقان لابد من دراستهما وتحقيقهما تحقيقاً علمياً ومناقشة كثير مما جاء فيهما وخاصة الإتقان وقد طُبع هذا الكتاب طبعات مختلفة أشرف عليها بعض العلماء لكن ما فعلوه - مشكورين - لا يشفي غِلّة ولا يُذهب ظمأً - وأسأل الله تبارك وتعالى أن

يعيننا على إخراج هذا الكتاب مع ما له من منزلة عند العلماء، وكنت أسمع من خالي رحمه الله الشيخ يوسف عبدالرزاق الذي كان أستاذاً في جامعة الأزهر: أن كتاب الإتقان بحرٌ لا ساحِلَ له. وقد عوّل العلماء على كتاب الإتقان ردحاً طويلاً من الزمن فبقي الكتاب الذي لا ينازعه كتاب آخر من بداية القرن العاشر إلى منتصف القرن الثالث عشر الهجري حتى إن كتاب البرهان لم يعرفه الناس إلا منذ أربعين سنة حين طُبع لأول مرة سنة ألف وتسعمئة وسبع وخمسين، وبعد النهضة العلمية في هذا العصر توجه العلماء – مشكورين – إلى الكتابة في هذا العلم، ونظن أن أول كتاب ظهر في هذا العصر كان كتاب (التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الإتقان) للعلاّمة المجاهد الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله تعالى، وقد طُبع في عام ألف وثلاثمائة وخمسة وثلاثين للهجرة قبل ثلاثة وثمانين عاماً، ولما كان النظام الجديد للأزهر سنة ألف وتسعمئة وأربع وثلاثين كتب الشيخ محمد سلامة كتابه (الفرقان في علوم القرآن) لطلاب كلية أصول الدين وفق المنهج المقرر لطلاب الكلية، ثم كتب الشيخ الفاضل العلاّمة محمد عبدالعظيم الزرقاني كتابه (مناهل العرفان في علوم القرآن) بأسلوب شيق وكان أوسع وأشمل من الكتابين السابقين عام ١٩٤٣، ولقد أصبح هذا الكتاب مرجعاً لطلاب العلم يردون حوضه فينهلون منه ويصدرون عنه.

وهذه الكتب الثلاثة سارت على منهج السيوطي رحمه الله في كتاب الإتقان فتبنت آراءه، وكادت تلتزم كثيراً مما جاء فيه إلا أنها خالفته في شيء واحد وهو أمر جوهري حيث اقتصرت هذه الكتب على ما له صلة مباشرة في هذا العلم، فلم تذكر كثيراً من المباحث والأصول التي ذكرها السيوطي في الإتقان، ثم بعد هذه الحقبة كتب بعض الأساتذة الفضلاء ما يتفق مع المنهج الجامعي، ومن هؤلاء الشيخ عبدالمجيد غزلان رحمه الله وكتابه (البيان في مباحث

من علوم القرآن) وهو كتاب دقيق فيما عرض له من مسائل، مُحْكَم العبارة وقد أفدت منه في مواضع كثيرة من هذا الكتاب، لكنه كان وفق المنهج المقرر لطلاب كلية أصول الدين في الأزهر فخلا عن كثير من الموضوعات، ومن هؤلاء كذلك الشيخ أحمد الكومي – رحمه الله – فقد كتب كتاباً موجزاً في علوم القرآن وآخر سماه (فصل الخطاب في سلامة القرآن الكريم)، ولا ننسى كتاب (مباحث في علوم القرآن) لأخينا الدكتور صبحي الصالح رحمه الله، فلقد اشتهر كثيراً في بلاد الشام وبلاد الرافدين وامتاز بذكر كثير من قضايا المستشرقين وآرائهم.

ولا يفوتني أن أنبّه على أن هناك رسائل قدمت لنيل درجات علمية في مباحث من علوم القرآن وهي رسائل كثيرة، إلا أن هذا العلم كما قلت من قبل يجب أن ينبض بالحركة دائماً، وأن يرصد كل التحركات التي تعرض للقرآن الكريم ليبارك جيّدها ويدفع غثها، تلكم عُجالة موجزة لجهود العلماء في الكتابة في هذا العلم.

جزى الله كل من أسهم في خدمة هذا الكتاب الكريم والسنّة النبوية والدين الحنيف خير الجزاء.

* * *

الفصل الأول
واجبنا نحو كتاب الله تعالى

إن من أعظم نعم الله تعالى هذا القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه، ولا ينطفئ نوره، ولا يخلق على كثرة الرد، بل يظلُّ جديداً يزيده التكرار حلاوة، ولا يزيده مرور الزمن إلا سطوعاً وثباتاً، وخير ما يدلنا على عظمة هذا الكتاب: القرآن الكريم نفسه والنبي الذي نزل عليه الكتاب ﷺ .

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر:٢٣].

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر:٢٧-٢٨].

ويقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء:١٧٤].

ويقول سبحانه: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن:٨].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:١-٢] ويقول سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف:٤٤].

ويقول سبحانه: ﴿ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء:٥٠]. وحديث القرآن عن القرآن يحتاج إلى كتاب لمن أراد أن يستوعبه.

أما سيدنا رسول الله ﷺ الذي نزل عليه الكتاب فهو خير من يبينه ويبين فضله، وخير من يتحدث عنه، وما أكثر الأحاديث التي وردت في فضل القرآن وفضل قارئيه فهو حبل الله المتين، من حكم به عَدَل، ومن تمسك به رَشَد، ومن اعتصم به فقد هُدي إلى صراط مستقيم.

يقول النبي ﷺ : «خيركم من تعلَّم القرآن وعلّمه»[1]. ويقول ﷺ : «الماهر بالقرآن مع السفرة البررة، والذي يقرؤه ويتتعتع فيه وهو عليه شاق فله أجران»[2].

«مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي يعمل بالقرآن ولا يقرؤه كالتمرة طعمها طيب وليس لها ريح، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مُرٌّ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مُرٌّ ولا ريح لها»[3]. وفيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظاناً»[4].

وفي الحديث الشريف «أهل القرآن هم أهل الله وخاصته»[5].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن باب «خيركم من تعلم القرآن» (٩/ ٧٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، سورة عبس (٨/ ٦٩١) ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل الماهر بالقرآن (١/ ٥٤٩).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام (٩/ ٥٥٥) ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة حافظ القرآن (١/ ٥٤٩).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا (١٧/ ١٩٨ بشرح النووي).

(٥) أخرجه احمد (٣/ ١٢٨ و ٢٤٢) والنسائي وابن ماجة وصححه الحاكم (ترغيب ٢/ ٣٥٤).

وروي عن أبي سعيد الخدري قال: «قال رسول الله ﷺ ، يقول الرب عز وجل: من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»[1].

وقال مالك بن عبادة الغافقي: عهد إلينا رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال: عليكم بالقرآن، فإنكم سترجعون إلى قوم يشتهون الحديث عني، فمن عقل شيئاً فليحدث به، ومن قال علي ما لم أقل فليتبوأ بيتاً – أو قال: مقعداً – من جهنم، قال: لا أدري أيهما قال»[2].

ومن أراد المزيد ففي كتب السنّة المطهرة وكتب فضائل القرآن ما يُثلج الصدر ويطمئن القلب.

وإذا كان هذا شأن القرآن الكريم فإن من نافلة القول أن نتعامل معه التعامل الذي يليق بجلاله، فالقرآن كائن حي يُقبل عليك بقدر ما تُقبل عليه.

وقد أودع الله في هذا القرآن جميع أسس الخير وقواعد النجاة وأسباب النجاح وأصول الرفعة فهو كتاب الحياة والأحياء فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم، وحُكم ما بينكم، تضمن أصول العقائد التي تحمي الإنسان من الخرافات وترتفع به ارتفاعاً يزكي نفسه، ويطهر قلبه، وفيه من أصول العبادات ما يستطيع به الإنسان أن يضبط أموره وتصرفاته. بحيث يكون عنصر خير في هذه الحياة، وفيه من أصول المعاملات ما ينشر الخير بين الناس، حرر العقول والقلوب بما شرّعه من نظم الخير ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب ثواب القرآن (١١/ ٤٦) وقال: حسن غريب.

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص١٦، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٩/ ١١٣. وقال: رواة الحديث عن آخرهم يحتج بهم.

وليس هناك كتاب في الدنيا سما بالإنسان مثل هذا الكتاب، واشتمل على ما اشتمل عليه هذا الكتاب من قواعد التشريع وأسس الهداية.

وتمتاز هداية هذا القرآن الكريم الذي يهدي للتي هي أقوم بمزايا فذة، فهي أولاً هداية تامة، ومعنى تمامها أنها لم تترك جانباً من الجوانب التي يحتاج إليها الإنسان أو تشريعاً من التشريعات التي تسمو به إلا بيَّنها القرآن خير بيان.

ثم هي بعد ذلك هداية عامة، ومعنى عمومها: أنها لم تأت لعصرٍ خاص أو مكان خاص بل هي للخلق جميعاً على اختلاف أعصارهم وأمصارهم، هدفها تربية نوع الإنسان، ثم هي بعد ذلك هداية دائمة، ومعنى دوامها: أنها باقية ما بقي الإنسان.

الترتيل:

يقول الله تبارك وتعالى ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل:٤] ويقول في سورة الفرقان: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان:٣٢] ويقول سبحانه: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩].

ويقول النبي ﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا حفّتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة باب ثواب قراءة القرآن (٢/ ٧١) وأصله في مسلم بأتم من هذا رقم: (٢٧٠) في كتاب الذكر، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن.

ويقول ﷺ «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين: البقرة وآل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان...»[1] الحديث وفي الحديث القدسي: «من شغله قراءة القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»[2].

ويقول ﷺ «زينوا القرآن بأصواتكم»[3] وفي رواية: «زينوا أصواتكم بالقرآن» ويقول ﷺ : «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن»[4].

ويقول ﷺ : «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار...»[5].

وروى الترمذي من حديث ابن مسعود: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها»[6].

ويقول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وهو الذي جاء فيه قول النبي ﷺ : «من أراد أن يقرأ القرآن غضاً طرياً فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»[7].

---

(١) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، رقم (٨٠٤).

(٢) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن رقم (٢٩٢٧)، والدارمي (٢/ ٤٤١) وإسناده ضعيف، وقال الترمذي: حسن غريب.

(٣) أخرجه أبو داود كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القرآن (٢/ ٧٤)، والنسائي (٢/ ١٧٩)، والدارمي (٢/ ٤٧٤).

(٤) أخرجه البخاري كتاب التوحيد رقم (٧٥٢٥)، وأحمد (١/ ١٧٢)، وأبو داود (٢/ ٧٤).

(٥) أخرجه البخاري، فضائل القرآن، باب اغتباط صاحب القرآن، (٩/ ٦٥)، ومسلم رقم (٨١٥).

(٦) أخرجه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً (٥/ ١٧٥)، وقال: حسن صحيح غريب.

(٧) أخرجه أحمد (١/ ٤٤٥)، والحاكم (٣/ ٣١٧) وهو حديث حسن.

ففي الصحيحين عن ابن مسعود، أن رجلاً قال له: إني أقرأ المفصّل في ركعة واحدة، فقال هذّاً كهذِّ الشعر، إن قوماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع[1].

وأخرج الآجريّ في (حملة القرآن) عن ابن مسعود قال: لا تنثروه نثر الدَّقَل، ولا تهذّوه هذِّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هَمُّ أحدكم آخرَ السورة[2].

ويقول ﷺ للحارث بن قيس: «إنك في زمان تُحفظ فيه حدود القرآن ولا يبالون حفظ كثير من حروفه، وسيكون قوم بعدكم بزمان تُحفظ فهي حروف القرآن وتضيَّع فيه حدوده»[3].

من هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والآثار الطيبة يدرك المسلم واجبه نحو القرآن الكريم.

أولاً: يجب على المسلم أن يُكثر من قراءة القرآن الكريم؛ لأن تلاوته عبادة تجلو صدأ القلب، وتُذهب ظلمة العقل، وتسمو بالروح، وتفرج بها الكُرَب، ويستشعر المسلم بها أنس القرب من الله تبارك وتعالى، فإن خير ما يُقرِّب الإنسان من ربه المناجاة، مناجاة الله لعبده، ومناجاة العبد لربه.

أما مناجاة الله لعبده فتلاوته كتابه، وأما مناجاة العبد لربه فتكون بالصلاة التي فرضها الله، والإتيان بالنوافل، والتضرع والدعاء، ثم إن لتلاوة القرآن أشياء أخر، ففيها الأجر العظيم والثواب الكبير في كل حرف عشر حسنات «لا

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب ترتيل القرآن (٦/ ١٠٤)، وأخرج البخاري أوله برقم (٧٧٥).
(٢) الإتقان، ١/ ١٠٨.
(٣) فضائل القرآن لابن الضريس، ص٢٦، تحقيق غزوة بدير.

أقول الـم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[1]. وفي فضل التلاوة آيات كثيرة، وأحاديث متعددة، تجارة لن تبور، ودرجات في الآخرة، يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارقَ، ورَتِّل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها[2].

لذلك كان البيت الذي يقرأ فيه القرآن كثيراً نوره عظيماً، يترآى نوره لأهل السماء كما تترآى النجوم لأهل الأرض، ثم إن هذه التلاوة التي تُهذب النفس ليس أثرها للتالي وحده، بل ينتشر عبقها ويفوح أريجها الطيب وعرفها الزكي ليعم كثيرين ممن لهم صلة بقارئ القرآن، فهو يشفع لذويه وأهل بيته، ويُكرّم بتلاوته والداه وذريته، كما روي في بعض الآثار: يحشر والدا قارئ القرآن وعليهما حُلل، يقال: هذا ببركة قراءة ولدكم القرآن[3].

ورحم الله الشاطبي ﷺ حيث يقول في قصيدته (الشاطبية في القراءات السبع) التي سماها حرز الأماني ووجه التهاني:

وإنّ كتــابَ الله أوثــقُ شــافعٍ	وأغنــى غَنــاءٍ واهبــاً متفــضِّلا
وخــيرُ جلــيس لا يُمــلُّ حديثُــه	وتــرداده يَــزدادُ فيــه تجمُّــلا
وحيــث الفتــى يرتــاعُ في ظلماتــه	مــن القــبر يلقــاه ســناً مُــتهلِّلا
هنيئــاً مريئــاً والــداكَ عليهمــا	ملابسُ أنــوارٍ مــن التــاج والحُلَــي
فمــا ظــنُّكم بالنَّجْــل عنــد جزائــه	أولئــك أهــلُ اللهِ والــصفوةُ المــلا

فما أسعد وأرشد من يكرمه الله بدوام قراءة هذا القرآن.

---

(١) رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن رقم (٢٩١٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٠)، وأبو داود (٢/ ٧٣)، والترمذي (٥/ ١٧٧).

(٣) انظر الترغيب والترهيب (٢/ ٣٤٩).

فاحرص أيها المسلم وأيتها المسلمة على تلاوة هذا الكتاب، تفاعلوا معه ليتفاعل في نفوسكم، وحذار حذار من أن يشملكم قول الله على لسان رسوله: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان:٣٠].

فاحرص أيها المسلم وأيتها المسلمة على تلاوة هذا الكتاب، تفاعلوا معه ليتفاعل في نفوسكم وحذار حذار من أن يشملكم قول الله على لسان رسوله: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ ، فالجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب، والمكان القفر والأرض السبخة التي لا تحفظ ماءً ولا تنبت كَلأً، وكلما كنت أكثر مهارة في تلاوة القرآن وأحسن أداءً كنت أكثر أجراً، وماذا تريد أكثر من أن تكون مع خيار الملائكة السفرة الكرام البررة.

أما إذا وجدت مشقة في تلاوته فاستعن بالله ولا تعجز، فسيكون لك في هذه التلاوة أجران.

كيف تكون التلاوة :

وينبغي أن تعلم أن تلاوة القرآن يجب أن تختلف عن غيرها من قراءة الصحف والكتب فهي تلاوة خاصة، لذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل:١-٤] فما هو الترتيل وكيف يرتل القرآن؟ .

لكي نعرف لبّ هذه الكلمة نتأمل ورودها في القرآن فقد جاءت في سورة المزمل، وجاءت في سورة الفرقان ﴿ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان:٣٢] فكلمة الترتيل في سورة المزمل جاءت في سياق صلاة الليل، وكلمة الترتيل في سورة الفرقان جاءت في سياق الرد على الكفرة وفي الحديث عن تثبيت الفؤاد.

ويُفهم من هاتين الآيتين أن الترتيل هو التؤدة والتأني في قراءة القرآن، وهذه التؤدة وهذا التأني يجعل للقرآن مذاقاً خاصاً في نفس التالي.

قال الراغب رحمه الله:

الرَّتَلُ: اتساق الشيء وانتظامه على استقامة.

يُقال: رَجُل رَتِلَ الأسنان.

والترتيل: إرسال الكلمة من الفم بسهولة واستقامة، قال تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل:٤]، ﴿ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان:٣٢].

وإذا أردنا أن نفهم معنى الترتيل فهماً جيداً، لابد من أن نستذكر الأحاديث النبوية التي جاءت في وصف قراءته ﷺ بأنها كانت مداً، وفي رواية عدّاً، ومن أجل هذا كُرهت السرعة في القراءة وهي التي تسمى الهذّ، ومما سبق ندرك أننا لابد أن من نداوم على قراءة القرآن الكريم ونرتله ترتيلاً، نقرأه على تؤدة وتأنٍ وترسل، وأن لا نهجره ونتركه، فإن القرآن أشد تفلتاً من الإبل في عقلها كما قال ﷺ .

أخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت»[(١)].

ولكي يؤدي الترتيل ثماره فإننا أُمرنا بتحسين الصوت في قراءة القرآن الكريم.

وتحسين الصوت ينتج عنه التفاعل والرغبة في القراءة والتأثر والتأثير فصاحب الصوت الحسن يتأثر ويؤثر في غيره.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن (٩/ ٧٩)، مسلم (١/ ٥٤٣).

يدلك على هذا «حسنوا أصواتكم بالقرآن»[1] «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن»[2]، «من لم يتغن بالقرآن فليس منا»[3].

وقد اختلف العلماء في معنى التغني فذهب بعضهم إلى أنه الاكتفاء به عن غيره.

وقال آخرون: الاستغناء به عن متاع الدنيا. وذهب الشافعي والأكثرون: إلى أن التغني: أن تُجمِّل صوتك بالقرآن وتجهر به، فهذا التغني يزيد القارئ والمستمع تعلقاً بالقرآن الكريم، ويمكن أن يحمل الحديث على هذه المعاني جميعها كما نقله القسطلاني عن ابن حجر، ويستدل لهذا بما جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ، سمع أبا موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ وقد سُرَّ بقراءته فقال: «لقد أعطيت مزماراً من مزامير آل داود»[4] فقال أبو موسى: «لو علمت بك لحبَّرته لك تحبيراً»[5] أي جمّل به صوته وحسنّه أكثر من ذي قبل، ولكن تجميل الصوت لا ينبغي أن نخرج به عن قواعد التلاوة التي بينها العلماء، ولذلك اختلفوا في القراءة بالألحان وروي عن الشافعي رحمه الله استحبابها تارة وكراهتها تارة أخرى.

قال الأصحاب: ليس هذا قولين للشافعي بل هو قول واحد، فهي جائزة مستحبة إن روعيت فيها قواعد التجويد وأحكامه، أما ألا تراعي فهي غير جائزة، وقد عاب كثير من العلماء على بعض القراء الذين يأسرهم اللحن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن (٩/ ٦٨)، ومسلم (١/ ٥٤٥).

(٣) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن (٩/ ٦٨)، ومسلم (١/ ٥٤٥).

(٤) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة (٩/ ٨١) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين رقم (٧٩٣).

(٥) أخرج هذه الزيادة ابن حبان في صحيحه برقم (٧١٩٧) كتاب المناقب.

فيلتزمونه حتى إن خولفت قواعد التلاوة، وقد روي حديث رُفع إلى الرسول ﷺ ، أخرجه الطبراني والبيهقي عن حذيفة ﷺ «اقرؤوا القرآن بلحونِ العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الكتاب وأهل الفسق، فإنه سيجيء بعدي قوم يُرجِّعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوّح لا يجاوز حناجرهم، مفتونةً قلوبهم وقلوب من يُعجبهم شأنهم» .

قال المناوي رحمه الله في شرحه: «اقرؤوا القرآن بلحون العرب» أي: تطريبها «وأصواتها» أي: ترنماتها الحسنة التي لا يختل معها شيء من الحروف عن مخرجه لأن القرآن لما اشتمل عليه من حُسن النظم والتأليف والأسلوب البليغ اللطيف يورث نشاطاً للقارئ، فإنه إذا قُرئ بالأسلوب الذي لا يخرجه عن وضعه تضاعف فيه النشاط، وزاد به الانبساط، وحنت إليه القلوب القاسية، وكشف عن البصائر غشاوة الغاشية «وإياكم ولحون أهل الكتابين» أي: احذروا لحون اليهود والنصارى «وأهل الفسق» من المسلمين الذين يُخرجون القرآن عن موضعه بالتمطيط بحيث يُزاد حرف أو يُنقص حرف فإنه حرام إجماعاً، كما ذكر النووي في التبيان[1].

وإنما نقلت هذا الحديث وشيئاً من شرحه لسببين اثنين:

أولاً: لأبين أن هذا الحديث كما قال العلماء: منكر لا يصح، وقد اغتر كثير من طلاب العلم به فظنوه صحيحاً.

ثانياً: لأن في شرح المُناوي (فيض القدير) خطأ قد يكون حصل من الناسخ أو الطابع وقد صححته هنا.

---

(١) فيض القدير ٢/ ٦٥.

التدبـر:

ونتساءل هنا ما الهدف من قراءة القرآن، وما الغاية من الترتيل، وما الهدف من تحسين الصوت؟ إن الهدف الأعظم من هذا كله إنما هو التدبر؛ فالتدبر هو المقصود الأول والأخير من قراءة القرآن الكريم، ولكن ما هو التدبر؟

الدُبُرُ: دُبُرُ الشيء ما هو وراءه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴾ [الأنفال:١٥].

فتدبر القراءة: أن لا يقف القارئ عند ظاهر الكلمات بل لابد أن يبحث عما وراء هذه الألفاظ من معانٍ ومقاصد وغايات، فإن معاني القرآن الكريم لا تنقضي، لذلك استنبط العلماء المتدبرون هذه الثروة العلمية العظيمة من آي القرآن الكريم، وما هذه العلوم التي نفاخر بها الدنيا إلا قطرة من هذا البحر الزاخر. ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴾ [الكهف:١٠٩].

وإذا تأملنا كلام ابن مسعود ﷺ وجدنا فيه خيراً كثيراً، فهذا الذي قال له: إني أقرأ المفصّل في ركعة، قال له ابن مسعود: هذّاً كهذِّ الشعر، إن قوماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع.

تراقيهم: جمع ترقوة وهي الضلع التي تكون أعلى الصدر، والمراد: أنه يمر على ألسنتهم ولا أثر له في قلوبهم، وإنما يقع في القلب إذا كان هناك تدبر، ولابد أن نقف بك أيها القارئ الكريم عند كلمة ابن مسعود التي أخرجها الآجُري رحمه الله «لا تنثروه نثر الدَّقَل، ولا تهذوه هَذَّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هَمُّ أحدِكم آخرَ السورة» .

وهذا الأثر عن ابن مسعود رضي الله عنه فيه علم جم وخير وهدى، وهذا الأثر فيه خمس نصائح أولاً: لا تنثروه نثر الدَّقَل، والدقل هو التمر الرديء ولرداءته كانوا يهزون النخلة هزاً فيتساقط عنها وينتثر، ولم يكن هذا تعاملهم مع الثمر الجيد، فمعنى هذه أنكم يجب أن تتعاملوا مع القرآن الكريم بعناية ورعاية وأن توجهوا له همكم، وأن تتعاملوا معه على أنه أنقى شيء في حياتكم، وأغلى عندكم من كل شيء، وإياكم أن تتعاملوا مع هذا القرآن كما تتعاملون مع ما تبخسون من أشياء، هذا معنى قول ابن مسعود: لا تنثروه نثر الدقل.

أما النصيحة الثانية: فلقد كانوا يقرؤون الشعر عجلين مسرعين فيذهبون كثيراً من حروفه، ولا يظهر كثير من كلماته، وقد تقدم هذا من قبل.

الثالثة: وهي قوله: وقفوا عند عجائبه: فإنها ذات مغزى سامٍ وحرص بعيد، إن عجائب القرآن الكريم كثيرة يجدها بعض القارئين في روعة أسلوبه وإحكام نظمه، ويجدها بعضهم في يُسرِهِ وسهولة حفظه، ويجدها بعضهم في صحة معانيه وصدق أخباره، ويجدها في أمثاله وقصصه، وللناس مشارب متعددة، والخلاصة أننا نجد عجائب القرآن فيما ذكر وفي غيره كذلك. أما النصيحة الرابعة: وحركوا به القلوب، والقلب هو أساس السعادة أو الشقاء.

يقول رسول الله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[1] ولذلك ولحكمةٍ ما قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥] فاختار الله

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب الإيمان (١/١٢٦) ومسلم في كتاب المساقاة (٣/١٢١٩).

تبارك وتعالى القلب الشريف قلب حبيبه ﷺ ليكون محلاً لنزول القرآن الكريم ذلكم لأن القلب هو الأساس، والأصل في التأثر بهذا القرآن، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر:٢٣] وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الأنعام:٢٥] فانظروا أرشدكم الله كيف بدأ الله بالقلب، القلبُ إذاً هو الركيزة الأولى في التأثر بهذا القرآن أو الإعراض عنه، وهذه القلوب سريعة التقلب، لذا يقول ابن مسعود رضي الله عنه : لابد أن نحرك هذه القلوب بالقرآن فإنها إن لم تحرك بالقرآن الكريم يُخشى عليها أن تحركها الشهوات والملذات والمعاصي، ولذلك كان خير ما تحيا به القلوب تلاوةُ القرآن في تدبر.

وههنا دقيقة من الدقائق ولطيفة من اللطائف لابد من الإشارة إليها والتنبيه عليها، لقد قرأنا من قبل «زينوا القرآن بأصواتكم» أما هنا فحركوا به القلوب، إن هناك جانبين ظاهراً وباطناً فلما كان الحديث عن الجانب الظاهري قال: حسنوا القرآن بأصواتكم، لأن القرآن الكريم يمكن أن يقرأه ذو الصوت الحسن وغيره، فينبغي أن نحسن القرآن بهذا الصوت، فالقرآن محسن بالصوت لأن من شأنه أن يُسمع فيتأثر الناس به، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

وأداة الاستماع الأولى هي القلب، فحين ما كان الهدف من القرآن التلاوة أمرنا أن نحسن به الصوت، فإذا أُريد الجانب الباطني كان القرآن الكريم هو المحرك، لذلك قال: وحركوا به القلوب. إن فعل القرآن في النفوس روي فيه أخبار كثيرة عن السلف والخلف، فمنهم من كان يقضي الليل كله متلذذاً في

تلاوة القرآن، وقد يكون المتلو آية واحدة يكررها حتى يُصبح. ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة:١٦].

أما النصيحة الخامسة فقوله: «لا يكن هَمُّ أحدكم آخر السورة»، إن كثيراً من الناس لا يخطر بباله وهو يتلو القرآن الكريم إلا قضية الكم، يفاخر بأنه قرأ في هذا اليوم ختمةً كاملة، وكل همه أن ينهي السورة ليبدأ بغيرها، هذا الفريق من الناس نوجه لهم أن يتذكروا نصيحة عبدالله بن مسعود ﷺ : إن قراءة القرآن الكريم لا تحسب بالكم بل بمقدار ما تحدث من أثر في النفوس، وحركة في القلوب، وهذا أمر لا خلافَ فيه بين العلماء، فمن قرأ عشر آيات متدبراً خيرٌ من أن يقرأ مئة آية هَذّاً، قالوا: ومن قرأ جزءاً أو سورة في ساعةٍ خير من الذي يقرأ جزأين في الساعة نفسها.

اللهم امنحنا حسن تدبر كتابك، واجعلنا من الذين يتلونه غير جافين ولا غالين، اللهم اجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، وشفاء صدورنا، وجلاء حزننا، وذهاب همنا، وسائقنا وقائدنا إليك وإلى جناتك جنات النعيم، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

الفصل الثاني
معنى علوم القرآن

معنى علوم القرآن :

لعل من المفيد - بعد تلك المقدمات التي ذكرناها - أن نعرض إلى معنى علوم القرآن، وقد عرفتم أنه صار عَلَماً على عِلْمٍ معين، ينتظم مسائل مخصوصة تتصل بالقرآن الكريم، و(علوم القرآن) مركب إضافي يتكون من مضاف (علوم) ومضاف إليه (القرآن) كما يقال: (علم النحو) و(علم البلاغة) و(علم الفقه). وقد يتساءل المتسائلون: لِمَ جاء بصيغة الجمع (علوم) ولم يأت بصيغة الإفراد (علم) كعلم النحو وعلم الفقه؟ وهو تساؤل وجيه وللإجابة عنه نقول:

أولاً: قبل أن يدوّن هذا العلم بمعناه الاصطلاحي الذي استقر عليه الأمر، كان الأئمة - رحمهم الله - يؤلف كل منهم في موضوع من موضوعات هذا العلم، فكتب بعضهم في أسباب النزول، وكتب آخر في النسخ، وثالث في المبهمات، ورابع في أمثال القرآن، وخامس في إعجاز القرآن إلى آخر ما هنالك من موضوعات، ثم اختصرت هذه الموضوعات وضمّ بعضها إلى بعض وسميت هذا الاسم (علوم القرآن).

ثانياً: وهذا يتفرع عن سابقه - تدل هذه التسمية على فخامة هذا العِلْم وعلوّ شأنه وعظيم خطره، فكل موضوع منه ينتظم فوائد متعددة. ولا نبعد كثيراً فهناك موضوع آخر شبيه بما نحن بصدده وهو علوم الحديث الذي اشتمل

على كثير من الأنواع والمباحث التي يتعلق بعضها بمتن الحديث وبعضها بسنده وغير ذلك مما هو معروف لذوي الشأن.

وقبل أن أبدأ بتعريف هذا العلم أراني مضطراً إلى التفرقة بين علوم القرآن بعد ظهور هذا المصطلح، أي: بعد أن أصبح علماً له شخصيته وموضوعه ومسائله، وهو ما يعبر عنه بالمعنى اللقبي، وبين هذا المركب أعني علوم القرآن قبل أن يكون كذلك، وهو ما يعبر عنه بالمعنى الإضافي. فعلوم القرآن قبل هذا المصطلح، أي بالمعنى الإضافي تشمل كل ما يتصل بالقرآن الكريم، فالتفسير – مثلاً – يصدق عليه أنه من علوم القرآن، وكذلك علم القراءات وعلم رسم المصحف، وإعراب القرآن كلها يصدق عليها أنها من علوم القرآن.

أما بعد أن أصبح هذا العلم ذا موضوع خاص كما هو الآن، وهو المعبر عنه بالمعنى اللقبي، فإنه أصبح أضيق نطاقاً وأكثر تخصيصاً فلم يعد يشمل التفسير والإعراب ومسائل القراءات، بل إن هذه الأمور إن بُحثت فيه فإنها تُبحث موجزة من حيثيات خاصة، فيُبحث في التفسير – مثلاً – عن تاريخه وتطوره، ومن اشتهر من المفسرين في الأعصر المختلفة، ويُبحث في القراءات عن القرّاء المشتهرين، وأقسام القراءات، وما يتعلق بالأحرف السبعة، ويُبحث في الإعراب عن أشهر الكتب في هذا الموضوع، وهكذا صار موضوع هذا العلم أكثر تحديداً وأقل شمولاً مما كان عليه قبل أن يصبح علماً مستقلاً.

وكي نُعرِّف هذا العلم تعريفاً دقيقاً لابد من الوقوف عند هذا المركب (علوم) و(قرآن):

أما العلوم فهي جمع عِلْم، ويختلف تعريف العلم عند أهل الاختصاص: فالحكماء (أي: الفلاسفة) يعرفونه بأنه حصول صورة الشيء في الذهن، والمتكلمون يعرفونه بأنه صفة توجب لمحلّها تمييزاً لا يحتمل النقيض. وهذان

تعريفان متقاربان من حيث النتائج، فإذا انطبع في ذهنك أن القرآن الكريم منه ما هو مكيّ ومنه ما هو مدنيّ، فهذه الصورة الحاصلة في ذهنك تسمى علماً وكذلك إذا علمت أن القرآن نزل في ثلاث وعشرين سنة فإن حصول هذه المعلومة في ذهنك يسمى علماً، وهذا معنى قولهم: إن العلم هو حصول صورة الشيء في الذهن، ثم إن هاتين القضيتين أعني كون القرآن الكريم مكياً ومدنياً ونزوله في ثلاث وعشرين سنة أصبحتا متميزتين في نفسك غير مختلطتين بغيرهما من المسائل، وهذا التمييز ثابت مجزوم به لا يحتمل نقيضاً على معنى أنه لا يقال مثلاً: إن القرآن نزل في أربعين سنة.

وهناك إطلاق ثالث للعلم عند غير الفلاسفة والمتكلمين يعنون به المسائل المتحدّث عنها، فمسائل علم النحو كقولنا: الفاعل مرفوع والمضاف إليه مجرور، ومسائل علم الفقه كقولنا: الصلاة فرض وبيع الغرر غير جائز، وهذا هو التعريف المقصود في علوم القرآن، هو المسائل التي يُبحث عنها في علوم القرآن كقولنا: أول ما نزل من القرآن الآيات الأولى من سورة العلق والنسخ رفع الحكم بدليل شرعي، والقرآن الكريم متواتر، والترجمة الحرفية للقرآن غير جائزة. هذا ما يتصل بمعنى «علوم» من قولنا: «علوم القرآن» .

أما القرآن فمع إجماعهم على أنه كلام الله الذي نزل به الروح الأمين لفظاً ومعنى على قلب سيدنا رسول الله ﷺ منجماً، فإن بحثنا في لفظة (قرآن) له حيثيات متعددة:

أولاً: من حيث الهمز والتخفيف.

ثانياً: من حيث الاشتقاق وعدمه.

ثالثاً: من حيث المصدرية والوصفية.

رابعاً: من حيث التعريف والتنكير.

وقبل أن أفصل هذه الحيثيات أرى لزاماً عليّ أن أبين أن الذي ارتأى رأياً من الأئمة لم ينكر على مخالفيه ما ذهبوا إليه.

أولاً: ذهب أكثر الأئمة إلى أن لفظ (قُرْآن) مهموز على (فُعْلان) وذهب الشافعي ﷺ والفراء والأشعري رحمهم الله تعالى إلى أنه غير مهموز فهو يُنطق (قُران) بقاف مضمومة وراء مفتوحة بعدها ألف[1].

ثانياً: ذهب جلّ العلماء إلى أن لفظ القرآن مشتق، فالذين ينطقون به مهموزاً قال بعضهم: إنه مشتق من (قرأ)، بمعنى (جَمَعَ).

---

(١) أما كلام الشافعي ﷺ فقد نقله الخطيب في تاريخ بغداد: ٢/ ٦٢، وذكره البيهقي في كتاب مناقب الإمام الشافعي بقوله: وقرأت على إسماعيل بن قسطنطين وكان يقول: القرآن اسم وليس بمهموز، ولم يؤخذ من قرأت، ولو أخذ من قرأت لكان كل ما قرئ قرآناً. ولكنه اسم للقرآن مثل التوراة والإنجيل، يهمز قرأت ولا يهمز القرآن، كأن يقول: «وإذا قرأت القران» الآية تهمز قرأت ولا يهمز القران [مناقب الشافعي (١/ ٢٧٧)]. وهذه هي قراءة ابن كثير المكي، فلا عجب أن تروى عن الشافعي الذي نشأ في مكة المكرمة، ويشهد له ما ذكره الإمام الشافعي في رسالته. قال الشيخ أحمد محمد شاكر – رحمه الله ورحم أخاه الأستاذ محمود شاكر الذي توفي قبل أيام – لفظ قرآن ضبطناه هنا وفي كل موضع ورد فيه في الرسالة بضم القاف وفتح الراء مخففة وتسهيل الهمزة. وذلك اتباعاً للإمام الشافعي – مؤلف الرسالة – في رأيه وقراءته.. وهذا النقل من الشافعي نقل رواية للقراء واللغة، ونقل رأي ودراية أيضاً، فإن قراءة ابن كثير – قارئ مكة - ، معروفة أنه يقرأ لفظ (قران) بدون همز. والشافعي ينقل توجيه ذلك من جهة اللغة والمعنى، ولا يرده، فهو يعتبر رأياً له حين أقره. وهو حجة في اللغة دراية ورواية. قال ابن هشام – صاحب السيرة المشهورة - : جالست الشافعي زماناً فما سمعته تكلم بكلمة إلا إذا اعتبرها المعتبر لا يجد كلمة في العربية أحسن منها، وقال أيضاً: الشافعي كلامه لغة يحتج بها» [الرسالة ص١٤-١٥]. وأما الأشعري فقد نقله عنه ابن فورك في كتابه (تجريد المقالات): ولكنه نقل عنه قولاً آخر وهو أن القرآن مهموز. قال: «وإنما يسمى قرآناً لأجل أن العبارة عنه قُرِن بعضها إلى بعض، وأن الجمع والتفرقة في القراءة لا في الكلام... ، وقال في موضع آخر إن كلام الله سمي قرآناً لأنه يقرأ بالعربية» ، ص٦٣.

وذلك لأن القرآن الكريم جُمعت آياته وسوره بعضها إلى بعض، وبعضهم يرى أنه مشتق من (قرأ) بمعنى (تلا).

أما الذين ينطقون به غير مهموز (قُران) فقد ذهب بعضهم[1]، إلى أنه مشتق من القرائن؛ لأن القرآن الكريم يصدّق بعضه بعضاً من حيث الإحكام والبلاغة والتواتر، وذهب بعضهم[2] إلى أنه مشتق من (القِران) لأن آياته وسوره مقترن بعضها ببعض، والفرق بين هذين القولين: أن الأول نظر إلى أن القرآن الكريم يصدّق بعضه بعضاً، ليس فيه اختلاف ولا تناقض، فأحكامه وقصصه وعقائده وأمثاله يكمل بعضها بعضاً، ليس فيها تعارض واختلاف، وأما الآخرون فنظروا إلى أن القرآن الكريم متصل بعضه ببعض اتصالاً وثيقاً، وذلك لما بين آياته وسوره من جمال الاتساق وحسن التناسب؛ هؤلاء الأئمة – رحمهم الله – مَن همز ومَن لم يهمز ذهبوا إلى أن لفظ القرآن مشتق على خلافٍ بينهم في أصل الاشتقاق كما عرفت، إلا الشافعي – رحمه الله – فقد ذهب إلى أن لفظ (القُران) المعرّف غير مشتق، وأنه علم مُرتجل على هذا الكتاب المبارك المنزل على سيدنا محمد رسول الله ﷺ . والشافعي – رحمه الله تعالى – الذي يرى القرآن غير مهموز، وأنه معرف غير مشتق، لم ينكر على غيره. كيف وهو من هو في حِذْق العربية والإلمام بها؟ .

ثالثاً: من حيث المصدرية والوصفية: الذين قالوا: إن لفظ القرآن مشتق ذهب أكثرهم إلى أنه مصدر مثل غُفْران وثُكْلان. يقال: (غفر غفراناً) كذلك (قرأ قرآناً). ومن هؤلاء اللحياني[3] قالوا: إن القرآن مصدر بمعنى اسم المفعول

---

(١) هو الفراء.

(٢) هو الأشعري.

(٣) اللحياني هو أبو الحسن علي بن مبارك، وقيل: علي بن حازم لغوي عاصر الفراء أخذ عن الكسائي توفي بعد سنة ٢٠٧ للهجرة.

لأنه (مقروء) وهذا كثير في العربية أن يُطلق المصدر ويراد منه اسم المفعول. وذهب الزجاج إلى أنه وصف وقد رُجّح المصدر على الوصف لأنه أكثر شيوعاً في العربية إذ الصفة على وزن (فعلان) غير شائعة ولا مشتهرة.

رابعاً: من حيث التعريف والتنكير: فرّق كثير من العلماء بين (القرآن) معرّفاً و(قرآن) دون تعريف.

أولاً: بأن اللفظ المعرّف بأل لا يصدق إلا على هذا الكتاب المبارك. أما (غير المعرف بأل) فقد يراد به القرآن الكريم كقوله سبحانه: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء:١٠٦] وقد يراد به غيره كقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة:١٧-١٨] فكلمة قرآن في هاتين الآيتين هنا لا يُقصد بها القرآن الكريم بل معناه القراءة.

ثانياً: ذهب بعض العلماء إلى أن لفظ القرآن معرّفاً إذا أطلق أريد به القرآن الكريم كله كقوله سبحانه ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩] وقوله سبحانه: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٩]. ولا يطلق على بعضه إلا مقيداً لقول النبي ﷺ : «زوجتكها بما معك من القرآن»[1] وقولنا: (يحرم على الجنب والحائض قراءة القرآن». (وحين آوي إلى الفراش أقرأ القرآن) فالقرآن هنا يصدق على أبعاض مخصوصة. أما لفظ القرآن مُنكّراً فيصدق على الكل والأبعاض على السواء، بمعنى أنه إذا أطلق لا يقصد به مجموع القرآن كله إلا إذا دلت القرائن على ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن باب «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» حديث رقم (٥٠٢٩).

الخلاصة: أن لفظ القرآن معرفاً يراد به مجموع القرآن، ويطلق على الأبعاض بقرائن فإن لم يكن معرفاً كان إطلاقه على الكل وعلى الأبعاض سواءً، واعلموا أرشدكم الله أننا إذا استقرأنا الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة وجدنا أن لفظ القرآن يطلق فيها حيناً على المجموع وحيناً على الأبعاض كما أسلفنا. قال تعالى: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ [البقرة:١٨٥] وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [الدخان:٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ [القدر:١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ ﴾ [يونس:٦١] ويقول الرسول ﷺ : «خيركم من تعلم القرآن وعلّمه»[(١)].

ونخلص من هذا كله إلى أن القرآن من حيث اللغة للعلماء فيه آراء من حيثيات مختلفة ولكل وجهة هو موليها. ولكن أرجح هذه الأقوال التي ذهب إليها جمهور العلماء، هو أن القرآن الكريم مصدر في الأصل كالغفران والشكران علم على هذا الكتاب المبارك من باب إطلاق المصدر على اسم المفعول.

هذا هو القرآن في اللغة ولعل من المفيد هنا بعد هذا التطواف الإشارة إلى أن (أل) في القرآن ليست للتعريف وإنما هي للمح الأصل كما يقول علماء النحو، أي: دخلت لتبين أن القرآن أصله مصدر، كما نقول الفضل والعباس فإن أل فيهما ليست للتعريف؛ لأنهما علمان دخلت أل أم لم تدخل. بيان ذلك أن (أل) قد تكون للتعريف كما نقول: «الرجل والبيت والمرأة والكتاب، ويمكن أن لا تفيد صاحبها التعريف لأنه معرفة قبل دخولها وبعده، وكذلك لفظ القرآن فهو علم قبل دخول (أل)[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ١٠٨، كتاب فضائل القرآن، طبعة دار الفكر، سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
(٢) وهو رأي أستاذنا الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله، وبه أقول وإليه أميل.

وبعد أن تحدثنا عن معنى القرآن لغة لنتحدث عن معناه شرعاً.

تعريف القرآن شرعا :

القرآن الكريم مصدر العلوم وأصل الحقائق الثابتة ومرجع العلماء، ومن هنا يُهرع العلماء جميعاً للإفادة من هذا القرآن، كلٌّ يأخذ منه حسب حاجته وتخصصه. فالفقهاء والأصوليون هدفهم معرفة الأحكام الشرعية إجمالاً أو تفصيلاً، واللغويون على اختلاف تخصصاتهم هدفهم بيان إعجازه، والإفادة من رائق أسلوبه، والوقوف أمام صوره البيانية الخلابة، ومعاني كلماته إفراداً وتركيباً.

أما علماء القراءات فهدفهم معرفة كيفية النطق بألفاظه الكريمة، وهؤلاء العلماء جميعاً غايتهم الوقوف أمام ألفاظه الكريمة لاستنتاج الأحكام وبيان الإعجاز وكيفية النطق، لذا عرفوا القرآن بخصائصه التي تعنيهم، فقالوا: هو كلام الله المنزل على سيدنا محمد رسول الله ﷺ المعجز المتعبد بتلاوته المنقول إلينا بالتواتر، وبعضهم اقتصر على بعض هذه الخصائص. فقولنا: «كلام الله» يخرج غيره من الكلام، وقولنا: «المنزل» يخرج كلام الله الذي استأثر بعلمه أو الذي أوحاه إلى ملائكته، وقولنا: «على سيدنا رسول الله» يخرج الكلام المنزل على رسل الله من قبل، وقولنا: «المتعبد بتلاوته» أي: تلاوته عبادة، ولا يصح غيره في الصلاة، يخرج الأحاديث القدسية عند من يرى أنها منزلة بلفظها من الله.

وهي قضية اختلف فيها الأئمة فالأكثرون على أنها كذلك «أي: منزلة بلفظها ومعناها من الله» وذهب بعض المحققين «إلى أنها منزلة بمعانيها والقرآن الكريم وحده هو الذي أُنزل بلفظه ومعناه» وعلى هذا فيكون قولنا: «المعجز المتعبد بتلاوته المنقول إلينا بالتواتر» ليست قيوداً بل هي خصائص امتاز بها القرآن الكريم وحده.

وأرى لزاماً قبل أن أجاوز هذا المبحث إلى بحث آخر أن أبين للأخوة القراءة أن بعض الكاتبين ذكر[1] حديثاً رفعوه إلى رسول الله ﷺ (القرآن كلام الله غير مخلوق) وهذا لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ فهو يحمل دليل وضعه معه؛ لأن هذا المصطلح «وهو كون القرآن مخلوقاً أو غير مخلوق» ظهر فيما بعد وإنما هذا من كلام أبي داود عند قول الرسول ﷺ «أعيذُكما بكلمات الله التامة»[2]، قال أبو داود: «هذا دليل على أن القرآن ليس بمخلوق»، فظن بعض الناس أن هذا من كلام النبي ﷺ .

أسماء القرآن الكريم:

إن صح أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمّى، فلقد ذكر الزركشي للقرآن خمسة وخمسين اسماً[3] وقد أوصلها غيره إلى نيف وتسعين اسماً ولكن عند التحقيق يظهر أن ما عدّوه اسماً هو في حقيقة الأمر صفات كالحكيم والمجيد والكريم والعزيز، وذي الذكر والبيان والتبيان والرحمة والشفاء والهدى.

أما الأسماء فهي القرآن وهو أشهرها، ويليه الفرقان في الشهرة كما يذكر بعض الكاتبين، وذلك لأنه فرق بين الحق والباطل، والكفر والإيمان، والظلمة والنور، ولكن الذي يظهر لي أن الذي يلي القرآن في الشهرة الكتاب حيث ذكر أكثر مما ذكر الفرقان ففي أول سورة البقرة قول الله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢]، ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام:٩٢]، ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل:٨٩]، ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا

(١) البيان في مباحث من علوم القرآن، عبدالوهاب غزلان، ص٢٨.
(٢) سنن أبي داود، حديث رقم (٤٧٣٧).
(٣) البرهان، (١/ ٢٧٣).

لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة:٤٨]، فهذان الاسمان أعني القرآن والكتاب هما أشهر الأسماء، وقد ذُكِرا معاً في أكثر من آية ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر:١]، ﴿ طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل:١]. وهذان الاسمان يرجعان إلى أصل واحد من حيث المعنى، فالكتابة هي ضم الحروف بعضها إلى بعض، والقراءة ضم الألفاظ بعضها إلى بعض، ولأستاذنا الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله كلام جيد حريّ بالتأمل جدير أن يُفاد منه. قال رحمه الله: «روعي في تسميته قرآناً كونه متلواً بالألسن، كما روعي في تسميته كتاباً كونه مدوناً بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه. وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً،... وهذا بيان لوجه الصلة .. فإذا رجعنا إلى أصلهما الأصيل في اللغة وجدنا مادتي «ك ت ب» و «ق ر أ» تدوران على معنى الجمع والضم مطلقاً»[1].

ومن هنا ندرك الخطأ والخطل الذي ذهب إليه شحرور في كتابه الذي سماه «الكتاب والقرآن» الذي خرج فيه عن مدلولات المنطق واللغة، والشرع والعقل، كما ستعرفه فيما بعد إن شاء الله.

ومن أسماء القرآن كذلك الفرقان كما مرّ، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١] وذكروا أن من أسمائه الذكر ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف:٤٤]، ومنها التنزيل، والذي يبدو أن أشهر هذه الأسماء: القرآن والكتاب والفرقان.

---

(١) النبأ العظيم، ١٢، ١٣.

وبالجملة فإن خير ما يعرفنا بأسماء هذا الكتاب وصفاته الطيبة القرآن الكريم نفسه والسنّة النبوية، حيث ورد فيها بعض الأوصاف الجوهرية لهذا القرآن، مثل قوله ﷺ في خطبته الشهيرة التي أخرجها الإمام مسلم ﷺ فيما يرويه عن ربه «وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظاناً»[1] وقوله ﷺ «القرآن حبل الله المتين»[2].

* * *

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة، حديث رقم ٢٨٦٥، انظر: شرح النووي على مسلم ١٩٦/١٧ طبعة المقدمة المصرية سنة ١٣٤٩هـ.

(٢) رواه الدارمي في فضائل القرآن، ١.

الفصل الثالث

الوحي

تعريف الوحي لغة وشرعا :

قال الإمام الزمخشري في الأساس: أوحى إليه وأومى إليه بمعنىً، ووحيت إليه وأوحيت إذا كلمته بما تخفيه عن غيره. وأوحى الله إلى أنبيائه ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ [النحل:٦٨].

وقال الراغب الأصفهاني: أصل الوحي: الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: «أمرٌ وحيٌ» وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة، وقد حُمِل على ذلك قولُه تعالى عن زكريا: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم:١١]، أي: أشار إليهم ولم يتكلم.

والوحيُّ بتشديد الياء: السريع. ومن وحي الإيماء بالجوارح قول الشاعر:

نظـرت إليهـا نظـرة فـتحيرت ... دقـائق فكـري في بـديع صـفاتها
فأوحى إليها الطرف أني أحبها ... فـأثر ذاك الـوحي في وجناتهـا

فالقول الجامع في معنى الوحي اللغوي: إنه الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه، بحيث يخفى على غيره، ومنه الإلهام الغريزي كالوحي إلى النحل

وإلهام الخواطر بما يلقيه الله في روع الإنسان السليم الفطرة الطاهر الروح، كالوحي إلى أم موسى، ومنه ضده وهو وسوسة الشيطان. قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام:١٢١]، وقال ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام:١١٢].

ووحي الله تعالى إلى أنبيائه قد روعي فيه المعنيان الأصليان لهذه المادة وهما الخفاء والسرعة، فهذا معنى المصدر، ويطلق على متعلقه وهو ما وقع به الوحي أي: اسم المفعول، وهو ما أنزله تعالى على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع والحكم، فمنهم من أعطاه كتاباً، أي: تشريعاً يكتب، ومنهم من لم يعطه.

والله تعالى يوحي إلى ملائكته ما يأمرهم بفعله كقوله: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الأنفال:١٢]، ويوحي إلى ملك الوحي بما يوحيه الملك إلى الرسول كقوله: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم:١٠]، أي: أوحى إلى عبده جبريل عليه السلام ما أوحى جبريل إلى محمد ﷺ.

أما تعريف الوحي شرعاً فقد عرفوه:

١- أنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه.

٢- عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قِبَل الله بوساطة أو بغير وساطة، والأول - أي بوساطة - بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت[1].

---

(١) انظر الوحي المحمدي، ص٣٤-٣٥.

أنواع الوحي:

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى:٥١]، هذه الآية الكريمة بينت لنا أنواع الوحي الذي يكرم الله به أنبياءه عليهم الصلاة والسلام:

النوع الأول: في قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾ .

وهذا النوع، هو ما يقذفه الله في قلب النبي والرسول، فيوقن الرسول والنبي أن هذا من الله تبارك وتعالى، وهذا هو الفرق بينه وبين الإلهام، فالإلهام هو «وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور»[١].

النوع الثاني: أن يسمع النبي كلام الله، من غير أن يدرك مصدر هذا الكلام؛ وذلك مثل تكليم الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام ، وهذا المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ ﴾ .

النوع الثالث: وهو ما يكون بوساطة الملك جبريل عليه السلام وهو المشار إليه بقوله ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ .

هذه طرق الوحي للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن الطريق الأول ما جاء عن سيدنا رسول الله ﷺ «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»[٢].

---

(١) الوحي المحمدي، ص٣٥.

(٢) أخرجه البغوي في شرح السنّة ١٤/ ٣٠٤، وأبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢٧، وانظر (جامع الأصول: ١٠/ ١١٧).

لكنَ أكثر أنواع الوحي وقوعاً هو النوع الثالث، وهو إرسال الملك إلى النبي يبلغه شرع الله، ولقد كان نزول القرآن الكريم بوساطة هذا الملك، «ولقد جاء في صحيح البخاري – رحمه الله – كما روت السيدة عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام ﷺ سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة رضي الله عنها. ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقاً»[1].

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم لا تخفى عليهم هذه الحال للرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه، فكانوا يعرفون مجيء الوحي بما يحدث للنبي ﷺ ، قال الدكتور محمد عبدالله دراز: «وكلنا نعرف تلك الظاهرة العجيبة التي كانت تبدو على وجهه الكريم في كل مرة حين ينزل عليه القرآن، وكان أمرها لا يخفى على أحد ممن ينظر إليه، فكانوا يرونه قد احمرّ وجهه فجأة وأخذته البرحاء، حتى يتفصد عرقاً، وثقل جسمه حتى يكاد يرضّ فخذه فخذ الجالس إلى جانبه، حتى ولو كان راكباً لبركت به راحلته، وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه أصواتاً مختلطة تشبه دويّ النحل.. ثم لا يلبث أن تُسرّى عنه تلك الشدة، فإذا هو يتلو قرآناً جديداً وذكراً محدثاً»[2].

ذلكم هو الوحي بصورته المشرقة الوضاءة، لم يكن لأحد فيه دخل ولا له عليه سبيل، حتى رسول الله ﷺ كان لا يملك شيئاً من أمر الوحي، فقد يكون

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١٠/ ٢٠٢)، وأحمد (٦/ ٢٥٧)، والبخاري في بدء الوحي رقم (٢) باب كيف كان الوحي إلى النبي ﷺ رقم (٢١)، (١/ ٢).

(٢) النبأ العظيم، ص٧٠.

في أمس الحاجة إليه، وأكثر الحالات اشتياقاً له. وصدق الله ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ [مريم:٦٤].

ولقد كان نزول القرآن الكريم بوساطة هذا الوحي ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

هذا القرآن الذي أكرم الله به نبيه والأمة والدنيا كلها ما كان أحد من الناس يملك شيئاً من التصرف فيه ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس:١٦]، ذلكم ما يحتمه المنطق ويؤيده الواقع، ويشهد له العقل، ومع هذا نجد أناساً يكابرون في ضوء الشمس حتى في أبرز حالات سطوعها، ويكابرون في حركة الحياة الدؤوب، فهم يريدون أن تجمد الحياة معهم ويأبى الله إلا أن تنبض الحياة بالحركة.

هذا وإن قرآنية القرآن الكريم، وكونه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من الأمور التي لا يزيدها مرور الأيام وكر الغداة ومر العشي إلا تثبيتاً في النفوس، فكلما تقدم العلم ومرت السنون، وهيئ للإنسان اكتشاف كثير من المجاهيل في هذه الحياة، والتوصل إلى حلول كثير من الأمور المستعصية. وجد أولو الفكر وذوو العلم ما يزيدهم طمأنينة ويبدد غيوم الشكوك من أنفسهم بصدق هذا الكتاب أخباراً، وعدله حكماً.

شبهات حول الوحي :

لقد أثار أعداء هذا الدين شبهات يشككون فيها في أن القرآن الكريم وحي من عند الله تعالى، أوحاه الله بوساطة الروح الأمين جبريل، ثم نزل به على قلب الرسول الكريم ﷺ ، ومن هذه الشبهات:

أولاً: إن محمداً ﷺ قد تعلم القرآن الكريم من غيره، ولكن ممن تعلم هذا القرآن، احتمالات متعددة:

١- أن يكون مصدر القرآن مجتمعه الذي عاش فيه، أي: في مكة المكرمة.

٢- أن يكون اكتسبه من اليهود والنصارى.

٣- أن يكون تعلمه من تلك الرحلات التي كان يقوم بها للتجارة إلى الشام وإلى اليمن.

٤- أن يكون تعلمه من الصابئة والزرادشتية.

الاحتمال الأول: وهو أن يكون ما جاء به النبي ﷺ منتزعاً من هذا المجتمع الذي كان يعيش فيه، فهو مردود لما يلي:

١- أن القرآن الكريم في آيات كثيرة بيّن أحوال هذا المجتمع ناعياً على أهله معنفاً لهم، فقد قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:١٧]، ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ [النحل:٢٠-٢١] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل:٥٨-٥٩].

٢- إن المجتمع الجاهلي لم يكن يحفل بالقضايا الدينية والمسائل العقدية، فقد كانت تسوده روح القبيلة.

٣- إن المعاصرين للعرب، كاليهود والفرس وغيرهم، كانوا يصفون العرب بالأميين، فقد حدثنا القرآن أن اليهود قالوا: ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ

سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران:٧٥]، أفيعقل بعد ذلك أن يكون الرسول ﷺ أخذ القرآن الكريم من المجتمع الذي يعيش فيه؟!! .

الاحتمال الثاني: أن يكون القرآن مكتسباً من اليهود والنصارى الذين كانوا في مكة المكرم يعملون ببعض الحرف.

إن هذا الاحتمال مردود، إذ إنه لم يثبت أن الرسول ﷺ كان كثير التردد على هؤلاء، ونحن نعلم أن أوقاته كلها كانت بين رحلة لتجارة أو رعي الغنم، أو جلوس مع قومه لما تتطلبه الأمور الحياتية واليومية، وكان قبل النبوة بمدة ليست طويلة يقضي وقته في غار حراء، وعليه فهو لم يكن يملك من الوقت ليتردد على هؤلاء الحرفيين وهم قلة. والقرآن الكريم نفسه يرد هذا الاحتمال، فالقرآن الكريم الذي أدهش العرب أسلوباً وأعجزهم نظماً يستحيل أن يوحي به هؤلاء الذين لا يحسنون النطق بالعربية، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل:١٠٣].

الاحتمال الثالث: أن تكون التوراة والإنجيل الأساس لهذا القرآن. وهذا الاحتمال مردود.

أولاً: إن التوراة والإنجيل لم يترجما إلى العربية إلا بعد قرون من بعثة الرسول ﷺ .

ثانياً: إن ما جاء في القرآن الكريم يختلف في كثير من مسائله وقضاياه عما قرر في هذين الكتابين، فهناك اختلافات جوهرية في قضايا كثيرة منها قضية الخلق، والقصص وما يتفرع منها، وفي قضايا التشريع والمسؤولية الأخلاقية وغير ذلك.

الاحتمال الرابع: أن يكون الرسول ﷺ اكتسب القرآن من رحلاته إلى الشام واليمن. وهذا ما ذكره جولدتسيهر، ونقول: إن هذا القول مردود كذلك، لأن النبي ﷺ لم يذهب أبعد من سوق حباشا في تهامة، وسوق غراش في اليمن، وذهب إلى بصرى الشام في صغره، وكان أكثر الذين يلاقيهم في طريقه من العرب، وهؤلاء كانوا بين عابدي وثن وبين معتنقي النصرانية، وعُبّاد الوثن معرفتهم عن الدين والأنبياء محدودة وساذجة، أما معتنقو النصرانية فلم يكن عندهم شيء أكثر من إخوانهم الوثنيين، ولهذا يقول سيدنا علي بن أبي طالب عن نصارى تغلب: «لم يأخذوا من النصرانية إلا شرب الخمر» . ويقول تايلور في كتابه المسيحية القديمة: «إن ما قابله محمد وأتباعه في كل اتجاه لم يكن إلا خرافات منفرة ووثنية منحطة ومخجلة، ومذاهب كنسية مغرورة، وطقوساً دينية منحلة وصبيانية، بحيث شعر العرب ذوو العقول النيرة بأنهم رسل من قِبَل الله مكلفين بإصلاح ما ألمّ بالعالم من فساد»[(١)].

وقد زاد وصف موشايم المسيحيين في عصر الرسول ﷺ ، فرسم صورة للمقارنة أبرز فيها التعارض بين المسيحيين الأوائل والأواخر، وخرج بأن الديانة الحقيقية في القرن السابع كانت مدفونة تحت أكوام من الخرافات والأوهام السخيفة حتى إنه لم يكن في مقدروها أن ترفع رأسها، وهذا كله يؤكد استحالة استفادة النبي ﷺ[(٢)].

أما الاحتمال الأخير، وهو أن يكون القرآن الكريم متأثراً بالبنية الشرقية الزرادشتية أو الصابئة فهو مردود كذلك، فالصابئة كانوا يحجون إلى حران في العراق، بدل الكعبة، وكانوا يعبدون النجوم والكواكب، وكانت طقوسهم

---

(١) (١/ ٢٦٦).

(٢) راجع كتاب: مدخل إلى القرآن الكريم، د. محمد عبدالله دراز، ص١٣٦-١٣٨.

الدينية عند طلوع الشمس وعند زوالها وغروبها، وهي الأوقات التي حرم الإسلام العبادة فيها، وكانوا يبيحون الزواج من بعض المحارم، وعليه يبعد كل البُعد أن يقتبس القرآن الكريم منهم شيئاً، وأما الزرادشتية فلسي هناك أي تشابه بينها وبين القرآن.

ثانياً: الادعاء بأن يكون القرآن منه ﷺ :

وهذا الادعاء باطل ودليل بطلانه إقرار الرسول ﷺ نفسه أن هذا القرآن ليس من عنده، بل هو من عند الله، وأي عاقل يتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات وينسب ما يأتي به لغيره؟، ولو قال أحد: إنه نسب القرآن إلى الوحي الإلهي، لأن في ذلك ما يعينه على دعوة الناس ليستجيبوا له ويطيعوه؟ نقول: إن هذا قياس فاسد، وذلك لأن النبي ﷺ قد صدر عنه كلام نسبه إلى نفسه، وجاء بكلام نسبه إلى ربه، وكلاهما استوجب على الناس طاعته فيهما على السواء، وكانت طاعته من طاعة الله، ومعصيته من معصية الله، ثم إن هذا القول مبني على افتراض باطل، وهو أن يكون النبي ﷺ يريد الوصول إلى غايته عن طريق التمويه والكذب، ذلك أن سيرة الرسول ﷺ تشهد أنه كان أبعد الناس عن الكذب. ومن الأدلة على صدقه ﷺ :

١- أنه كانت تنزل به النوازل، وكانت حاجته ملحة لأن يتكلم فيها، ومع ذلك يبقى أياماً وليالي ينتظر أن ينزل في شأنها قرآناً. خذ أكبر مثال على ذلك حديث الإفك، فلو كان أمر القرآن بيده، ما الذي يمنعه أن يتقول بشيء يحمي عرضه ويذب عنه.

٢- كانت آيات كثيرة تنزل على الرسول الكريم تعاتبه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ [التحريم:١]، ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ [عبس:٥-١٠]، فلو كان القرآن منه لما عاتب نفسه ولستر نفسه.

٣- كانت تنزل آيات مجملة، وقد تشكل عليه هو وأصحابه فلا يتبين تأويلها حتى ينزل عليه بيان من الله، عندما نزلت الآية ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:٢٨٤] حيث أزعجت الصحابة، لأنهم فهموا منها أنهم سيحاسبون على كل شيء، حتى خطرات النفوس، حتى نزلت الآية ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] فنسختها.

٤- كان حين ينزل عليه القرآن يتلقفه متعجلاً خشية أن يفوت منه شيء، فلو كان القرآن من عند نفسه لما كانت له حاجة إلى التعجيل وتحريك لسانه طلباً لحفظه وخشيته ضياعه.

٥- أخلاقه ﷺ وسيرته العظيمة، ولو كان كاذباً ما الذي يمنعه من ادعاء علم الغيب وقد روي عنه قوله: «والله لا أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي»[1]، وما الذي يمنعه أن يتقول أشياء عما بعد الموت ينسبها إلى نفسه مثل عذاب القبر والجنة والنار؟ .

ثالثاً: الادعاء بأن محمداً ﷺ كان له من الذكاء الفطري والبصيرة النافذة ما يؤهله لإدراك الحق والباطل من الآراء والحسن والقبيح من الأخلاق، فكل ما جاء به مما أدركه محمد بوجدانه وشعوره، ونقول لهؤلاء: هل كلُّ ما في القرآن الكريم مما يمكن أن يستنبطه عقله وتفكيره، أو يمكن أن يدركه بوجدانه وشعوره؟ اللهم كلا، ففي القرآن الكثير من القضايا التي لا مجال فيها للذكاء والاستنباط، خذ مثلاً القصص التاريخي، وأسماء بعض الأنبياء والأمم الماضية، وما جرى من حوادث التدمير في ديار عاد وثمود وطوفان نوح، وبعض الأرقام التي ذكرها القرآن، كالمدة التي لبثها أهل الكهف في كهفهم، وخذ كذلك

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، حديث رقم ١٢٤٣.

القضايا الغيبية من حديث عن الجنة والنار ونهاية الخلق والجن والملائكة، وكذلك ما يتعلق بمستقبل الإسلام وغير ذلك.

وبعد هذا التطواف يتبين لك سقوط هذه الادعاءات، ويثبت أن هذا القرآن الكريم لا يمكن أن يكون إلا من عند الله تعالى.

* * *

الفصل الرابع
إعجاز القرآن

من نعم الله تبارك وتعالى أنه لم يخلق الناس ويدعهم وشؤونهم، إنما تكفل لهم سبحانه بما يصلح شؤونهم، ويكفل لهم السعادة في دنياهم وآخرتهم، ذلكم لأن الإنسان مهما أوتي من علم، وأودع الله فيه من عقل؛ فإن ذلك لا يغنيه عن الهداية الربانية؛ لذا كان من رحمة الله وحكمته أن يرسل الرسل مبشرين ومنذرين، يدعون الناس إلى الإيمان بالله الواحد ويبينون لهم ما يصلحهم.

ولما كان كثير من الناس يمكن أن يكذّبوا الرسل في دعواهم، كان من رحمة الله أن يؤيد هؤلاء الرسل بالمعجزات تصدقهم في دعواهم النبوة، حتى لا تبقى شبهة تحيك في النفس.

وحديثنا في هذا الفصل يتناول تعريف المعجزة لغةً واصطلاحاً، ووجوه إعجاز القرآن البياني والعلمي والتشريعي.

المعجزة لغة:

أصل مادة معجزة العجز، يقول الراغب الأصفهاني: عجز، عَجُزُ الإنسانِ: مؤخَّرُه، وبه شُبِّه مؤَخَّر غيره، قال: ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر:٢٠]. والعَجزُ أصله التأخُّر عن الشيء، وحصولُه عند عَجُزِ الأمر، أي: مُؤخَّرِه، كما ذُكر في الدُّبُر، وصار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد

القدرة، قال ﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ ﴾ [المائدة:٣١]، وأعجزتُ فلاناً وعَجَّزْتُهُ وعاجَزْتُهُ جعلته عاجزاً»[١].

وذكر ابن فارس أن العين والجيم والزاي تدل على أصلين: أحدهما الضَّعف، والآخر مؤخَّر الشيء[٢].

وأمام هذه الآراء، نرى أن أولاها قول الراغب الأصفهاني «فأصل العَجُز في اللغة مؤخَّر الإنسان، واستعير لغيره، وهناك صلة وثيقة بين هذا المعنى وبين القصور عن الشيء، فإن التأخر والقصور متلازمان، لأن من تأخر عن غيره إنما يرجع ذلك إلى تقصيره» .

المعجزة اصطلاحا :

هي أمر خارق للعادة يدل على تصديق الله تعالى للمدعي في دعواه الرسالة، أو هي تأييد الله تعالى مدعي النبوة بما يؤيد دعواه ليصدقه المرسل إليهم.

ومن هنا نعلم أن المعجزة لابد لها من شروط حتى تتحقق، ومن هذه الشروط أن تكون فعلاً لله تبارك وتعالى، فلا تكون من فعل البشر، ومنها أن تكون خارقة للعادة ليست مما ألفه الناس واعتادوه، ومنها أن تكون معارضتها غير ممكنة، فلا يمكن للناس أن يأتوا بمثلها، ومنها أن تكون قد ظهرت على يد مدعي النبوة وليس على يد غيره من الناس، وأن تكون موافقة لما يدعيه النبي، وتكون كذلك بعد ادعائه النبوة.

ومن حكمة الله سبحانه وتعالى أن هذه المعجزة تكون منسجمة مع أحوال الناس الذين ظهرت عليهم، لأن الناس يختلفون باختلاف أزمنتهم وأمكنتهم، فالمعجزة لابد أن تكون جارية مع تفكيرهم، ومع طبيعة بيئتهم.

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني، ٣٢٣.

(٢) معجم مقاييس اللغة (٤/ ٢٣٢).

فمعجزة موسى عليه السلام العصا الجافة التي ألقاها باسم الله فإذا هي حية تسعى من حيث الظاهر فقط، والأمة التي تحداها تفوقت في السحر وحذقته.

وكذلك معجزة عيسى عليه السلام منسجمة مع البيئة؛ ذلك لأن العهد الذي أرسل عليه السلام فيه كان عهداً قد طغت عليه المادة، وبخاصة على بني إسرائيل، حيث قطعوا كل صلة بينهم وبين شريعة موسى، فكانت معجزته تقويضاً للمادة رأساً على عقب، وصفعة للماديين، وليس صحيحاً ما يقال من أن معجزته كانت كذلك لاشتهار قومه بالطب.

أما معجزة النبي محمد ﷺ فكانت القرآن الكريم الذي كان على أعلى درجة من الفصاحة والبلاغة، لأن القوم كانت البلاغة صناعتهم.

ومعجزة النبي ﷺ معجزة عقلية، وسبب كونها عقلية أنها معجزة عامة باقية خالدة على مرّ الأزمنة والعصور، فعموم الرسالة وبقاؤها ودوامها يتطلب أن تكون معجزة عقلية تامة الهداية لا تقتصر على مجال دون مجال، أو مكان دون مكان أو شعب دون شعب.

إعجاز القرآن:

معنى إعجاز القرآن عجز الناس عن الإتيان بمثله، فكلمة إعجاز مصدر، وإضافتها إلى القرآن من إضافة المصدر إلى فاعله، فكأن التقدير: أعجز القرآن الناس أن يأتوا بمثله.

وجوه الإعجاز:

القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للنبي ﷺ ، وقد اتفق العلماء على أن أعظم وجوه إعجاز القرآن ببيانه وبلغته ونظمه، ولكنهم اختلفوا فيما وراء ذلك:

فرأى بعضهم أن القرآن معجز ببيانه فحسب، وذهب أكثرهم إلى أن وجوه الإعجاز كثيرة ومتعددة منها الإعجاز البياني، والعلمي، والتشريعي.

ولكي نرجح أحد هذين الرأيين، لابد أن نتحدث عن التحدي ومراحله في القرآن الكريم.

امتاز العرب بسلالة السليقة، وسرعة البديهة، وعرفوا كثيراً من أصول النقد الأدبي، ولذلك لما سمعوا القرآن الكريم استولى على مسامعهم، وصار حديث نواديهم، واهتزت له ألبابهم، ولذا كان حرياً بهم أن يؤمنوا به، ولكنهم كانوا أشد عناداً، فتحداهم القرآن، وأرخى لهم العنان في التحدي، ولكنهم وقفوا منه موقف العاجز فلم يستطيعوا معارضته، مع أن الأسباب متوفرة لديهم، وهي فصاحتهم وبلاغتهم، واستثارة القرآن الكريم لهم فقد رماهم بسفاهة العقل، وسبّ آلهتهم. ومع هذا فقد عجزوا عن معارضته، فاتجهوا إلى اتهام الرسول ﷺ بالكهانة والسحر والجنون.

مراحل التحدي:

تحدى القرآن العرب في أكثر من آية على مراحل متعددة، وهذه المراحل:

أولاً: تحدوا أن يأتوا بمثل القرآن من غير تعيين قدر. قال تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴾ [الطور:٣٤].

ثانياً: لما عجزوا عن الإتيان بمثله أرخى لهم القرآن العنان فقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ ﴾ [هود:١٣].

ثالثاً: فلما عجزوا ولم يستطيعوا خفف عنهم القرآن فقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [يونس:٣٨].

رابعاً: ولكن القوم عجزوا كذلك، فتحداهم القرآن للمرة الأخيرة فقال ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة:٢٣].

دراسة هذه المراحل:

أولاً: إن هذه المراحل الثلاث الأولى كلها مكية التنزّل، فالطور وهود ويونس سور مكية باتفاق، أما الآية الرابعة فهي مدنية باتفاق.

ثانياً: إن المراحل الثلاث الأولى خوطب بها العرب، لأنهم هم المتحدون في هذه السور الثلاث، أما المرحلة الرابعة فقد خوطب بها الناس جميعاً، يدل لذلك سياق الآيات ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة:٢١-٢٣].

ثالثاً: إن المراحل الثلاث الأولى مختلفة من حيث الأسلوب عن المرحلة الرابعة، وإليكم بيان ذلك:

المرحلة الأولى: (فليأتوا بحديث مثله) والثانية (قل فأتوا بعشر سورٍ مثله) والثالثة (فأتوا بسورة مثله) أما المرحلة الرابعة فجاء الأسلوب فيها (فأتوا بسورة من مثله) فكلمة (من) لم تذكر إلا في المرحلة الرابعة.

هناك اختلاف – إذن – بين المراحل الثلاث والمرحلة الرابعة من حيث التنزل، ومن حيث السياق ومن حيث الأسلوب، ولهذه الفروق دلالاتها في تعيين أو ترجيح أحد القولين السابقين في بيان وجوه الإعجاز.

فإذا كان التحدي في المراحل الثلاث المخاطب به العرب، والعرب كان البيان بضاعتهم والبلاغة سجيتهم، فإن المرحلة الرابعة المخاطب بها الناس جميعاً عربهم وعجمهم، وإذا كانت المراحل الثلاث الأولى خالية من كلمة (من) فلقد جاءت المرحلة الرابعة مشتملة على هذا الحرف الدال على التبعيض، ومعنى هذا أن المرحلة الأخيرة كان التحدي فيها للناس جميعاً، ولا يعقل أن يتحدى الناس جميعاً بالبيان وحده، إنما هو تحدٍ عام عموم المخاطبين به.

وبعد هذه الدراسة نقرر أن وجوه الإعجاز متعددة، وأن القرآن الكريم معجز من حيث بيانه، ومن حيث تشريعه، ومن حيث ما فيه من حقائق علمية وكونية، ومن حيث ما فيه من أخبار غيبية إلى ما هنالك من وجوه أخر، وسنتحدث هنا عن أهم هذه الوجوه وهي البياني والعلمي والتشريعي.

الإعجاز البياني:

إن أعظم وجوه إعجاز القرآن الإعجاز البياني، لأنه ينتظم القرآن الكريم كله، سوره على اختلافها طولاً وقصراً، أما الوجوه الأخرى من وجوه الإعجاز فليس الأمر فيها كذلك، فأنباء الغيب مثلاً ليست موجودة في كل آية من القرآن، وكذلك الإعجاز العلمي والتشريعي، ومن هنا كان الإعجاز البياني أهم هذه الوجوه، وأعمها، بل أتمها، لأنه عام في القرآن كله لا تخلو منه سورة على قصرها، بل هو في كل آية من الآيات القرآنية.

والإعجاز البياني يرجع في لبّه وجوهره إلى النظم، وهذا النظم ليس خاصاً بالعرب وحدهم، والنظم هو ذلكم الترتيب الذي كان لكلمات القرآن في جملها من جهة، واختيار هذه الكلمات من جهة أخرى، ثم ترتيب الجمل والآيات في السورة، وتلك قضية كان يدركها العربي عند نزول القرآن بذوقه وسليقته، أما العرب اليوم فإنما يدركونها بالفكرة لا بالفطرة بعد أن تفسر لهم وتبين لهم دقائقها.

والكلمة القرآنية هي أساس النظم، إذ إن مفردات القرآن مختارة منتقاة وهي كما قال الراغب: «هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته، وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة»[1].

الكلمة القرآنية مقدرة خير تقدير، معبرة أصح تعبير وأصدقه، فاختيار الكلمة في موضع دون آخر واختيار الكلمة دون غيرها من إعجاز القرآن، ولذا فإن كتاب الله تعالى لا ترادف في كلماته، فكل كلمة تحمل معنى خاصاً بها، لا تسد غيرها مسدها.

فمن ذلك كلمتا الحمد والشكر، فقد ذكرت كلمة الحمد في كتاب الله تعالى مرات عديدة فاتحة لسورة عديدة، لكن كلمة الشكر ذكرت أكثر من كلمة الحمد. قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة:١٥٢]، وقال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم:٧].

ولقد ذكر بعض المفسرين أن الكلمتين ذواتا معنى واحد، والمحققون ذهبوا غير هذا المذهب، وإذا كان من فرق بين الحمد والشكر، فإن الحمد يكون باللسان، أما الشكر فلا يختص به اللسان وحده، وإنما يكون بالقلب والجوارح.

وهناك فرق آخر، وهو أن الشكر لا يكون إلا مقابل نعمة، أما الحمد فإنما يكون لأي شيء ومن أجل هذا اختيرت كلمة (الحمد) في فاتحة الكتاب.

---

(١) المفردات، ص٦.

وإذا كانت هذه مكانة الكلمة القرآنية، فإن الحرف لا يقل عنها إذ إن له نصيبه الأوفى وحظه الأوفر في البيان القرآني وهل الحرف إلا كلمة؟ أليست الكلمة إلا اسماً وفعلاً وحرفاً؟؟ سواء أكان من حيث حذفه وذكره، أم كان من حيث وضع حرف مكان آخر، ولابد من الإشارة إلى أن ما ذهب إليه كثير من العلماء من تناوب الحروف بعضها مكان بعض، أمر غير مسلم أو مستساغ في كتاب الله، فكل حرف له مدلوله الخاص به ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [طه:٧١]، لا يمكن أن يقال إن معنى (في) هنا على.

فإن حرف الجر (في) جيء به قصداً ولا يسد غيره مسده؛ ذلك لأن الحرف يصور لنا ما في نفس فرعون من حقد وغيظ على أولئك السحرة المؤمنين، فهو لا يريد فقط تصليبهم على الجذوع، بل يود أن يدخلهم في جذوع النخل ويحشرهم فيها.

ومن دقة القرآن في استعمال الأحرف قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ [البقرة:١٣٦]، وقوله: ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ﴾ [آل عمران:٨٤]، فقد عبر بـ (إلى) حينما كان الخطاب للأمة؛ لأن القرآن إنما أنزل إليهم، وجاءت (على) حينما كان الخطاب للرسول ﷺ ؛ لأن القرآن إنما أنزل عليه وحده.

وإذا تجاوزنا الكلمة والحرف القرآني إلى الجملة القرآنية، فإننا نجد أن في هذه الجملة مظاهر من مظاهر الإعجاز، ومن هذه المظاهر الحذف والذكر، فقد نجد جملاً ذكرت فيها بعض الكلمات، على حين نجد جملاً أخرى مشابهة لها قد حذفت منها هذه الكلمات، ومنها التقديم والتأخير فقد نجد بعض الجمل قُدِّمت فيها بعض الكلمات، ولكن هذه الكلمات نفسها أُخِّرت في جمل أخرى.

فمن الحذف والذكر قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾ [النساء:١٩]، مع أن أكثر المنهيات كانت تلي حرف النهي مباشرة ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ ﴾ [الإسراء:٣١]، ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء:٣٢]، ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ [الحجرات:١١]، ولكن آية النساء جاء نسقها غير هذا كله فلم يقل فيها: «لا ترثوا النساء كرهاً» .

وإذا رجعنا إلى الآيات القرآنية، وصنفنا الآيات التي تشبه هذه الآية بعضها إلى بعض مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا ﴾ [البقرة:٢٢٩]، يظهر لنا أن هذه الكلمة إنما تجيء بجانب الأمور، أو بجانب القضايا التي كان الناس يزاولونها دون أن يروا بها بأساً او حرجاً، أما غيرها من المنهيات فهي أمور تنفر منها الطباع، أو ينكرها العرف، فالقتل والزنا، وأكل مال اليتيم لا يقرها عقل، ولا يحلها شرع. أما التحكم في النساء ووراثتهن كرهاً فإنها تختلف عن الأمور السابقة، حيث رأينا أن بعض التشريعات عند الأمم المتمدينة كانت تجيز ذا إلى عهد قريب، وهنا تبرز دقة التعبير في كتاب الله في مخاطبة النفس الإنسانية، فالأمور المتفق على تحريمها تلي حرف النهي «لا تقربوا» ، «لا تأكلوا» ، «ولا تقتلوا النفس» ، أما ما يظنه بعض الناس حقاً لا مرية فيه ولا غبار عليه، فإننا نجد القرآن يعبر عنه بأسلوب آخر حيث يلي حرف النهي هذه الجملة «يحل» .

ومن التقديم والتأخير: الجن والإنس، فقد تُقدَّم كلمة الجن تارة، وكلمة الإنس أخرى، وهذا ما يستدعيه السياق، وتوجبه الحكمة البيانية، ففي سياق التحدي بالقرآن الكريم يقدم الإنس على الجن؛ لأن الإنس هم المقصودون بالتحدي أولاً وقبل كل شيء، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ

عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الإسراء:٨٨].

أما في سياق التحدي بالنفوذ من أقطار السماوات والأرض، فلقد قدم الجن، لأنهم أقدر على الحركة من الإنسان، قال تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ [الرحمن:٣٣]. أما قوله سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، فلقد قدم الجن على الإنس؛ لأنه روعي السبق الزمني، فإن الجن مخلوقون قبل الإنس.

الأسلوب القرآني :

أسلوب القرآن الكريم أسلوب متميز فريد، يختلف عن غيره من أساليب العرب، وقد ذكر الدكتور محمد عبدالله دراز – رحمه الله – خصائص لهذا الأسلوب وهي:

١- القصد في اللفظ: والوفاء بحق المعنى، وهاتان نهايتان لا يستطيع أحد من الكُتّاب الجمع بينهما، فالذي يعمد إلى ادّخار لفظه والقصد فيه، وعدم الإنفاق منه إلا على حدّ الضرورة لابد أن يحيف على المعنى، ولا يوفيه حقه، والذي يعمد إلى الوفاء بحق المعنى، وتحليله إلى عناصره وإبراز دقائقه لابد أن يطيل الكلام ويمد فيه.

«لكن القرآن الكريم استطاع أن يجمع بين هاتين الخصيصتين، فإنك إذا نظرت إليه تجد بياناً قد قدّر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف، ولا بمخمصة التقتير، يؤدي لك من كل معنى صورة نقية

وافية، نقية لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها، وافية لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية، كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه»[1].

٢- خطاب العامة وخطاب الخاصة: وهاتان كذلك غايتان متباعدتان عند الناس، فإن الكاتب إذا أراد مخاطبة العامة لابد أن ينزل إلى مستواهم فيوضح ويبين، ولو خاطب بهذا الأسلوب الخاصة لعدّ كلامه معيباً؛ لأن الخاصة تكفيهم اللمحة والإشارة، وهكذا تجد أن هناك أسلوباً للخاصة وآخر للعامة، ولا يمكن أن تخاطبهما بجملة واحدة، ولكنك واجدٌ هذا في القرآن الكريم، فإن الجملة الواحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء والأذكياء والأغبياء.

٣- إقناع العقل وإمتاع العاطفة: في النفس الإنسانية قوتان: قوة تفكير وقوة وجدان، وكل منهما تحتاج إلى ما لا تحتاجه الأخرى، والحكماء والعلماء لا يخاطبون إلا العقل والفكر، والأدباء والشعراء لا يخاطبون غالباً إلا الوجدان، فإنك لا تجد فيلسوفاً يخاطب عاطفتك، أو شاعراً يخاطب عقلك، فالحكماء هم الذي يقنعون العقل، والشعراء والأدباء، هم الذين يمتعون العاطفة ولا نجد من يجمع بينهما في الخطاب إلا ما نجده في كتاب الله تعالى.

٤- البيان والإجمال: وهذه كذلك عجيبة لا نجدها عند الكُتّاب، فمن أراد أن يجمل لابد أن يذهب إلى الإبهام والإلباس، ومن أراد تحديد غرضه وتوضيحه لم تتسع تلك لتأويل، فهذان الطرفان لا يجتمعان إلا في كتاب الله فإنك إذا قرأت القطعة من القرآن وجدت الإحكام والدقة والخلو من الغريب، ويخيل إليك أنك أحطت بها وبمعانيها، ولكنك لو رجعت إليها كرة أخرى لاستخرجت منها معنى آخر جديداً غير الذي فهمته من قبل، وهكذا تجد للكلمة الواحدة والجملة الواحدة وجوهاً عدة، كلها صحيحة[2].

---

(١) النبأ العظيم، د. محمد عبدالله دراز، ص١٠٦.

(٢) النبأ العظيم، ص١١٢.

الإعجاز العلمي:

القرآن الكريم كتاب الله ووثيقة السماء الخالدة، أنزله الله ليكن موعظة وشفاء وهدى ورحمة وبرهاناً ونوراً ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾ [النساء:١٧٥]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس:٥٧].

فالقرآن كتاب الإنسانية كلها، ونوره سيبقى يشع ما دامت الحياة، لتُهدي به قلوب غلف، وتُبصر به عيون عمي، وتُفتح به آذان صم، وكما جاء القرآن دعوة صريحة للإيمان الصحيح ومكارم الأخلاق، فإنه جاء كذلك دعوة صريحة للعلم والنظر والتفكر، ويكفي أن أول ما تلألأ من آياته كان الأمر بالقراءة بسم الرب الذي خلق، الرب الأكرم الذي علّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، ولا نجد كتاباً سماوياً أو أرضياً كرّم العلم والعلماء، ودعا في مواضع كثيرة منه للتزود من منهل العلم كهذا القرآن: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم:٢٢]، ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الزمر:٩]، ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨]، ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ [المجادلة:١١].

وشرّف الله العلماء بمعيته ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨].

ومن عظيم شأن هذا القرآن وعجيب أمره أنه جعل دعوته للعلم مفتوحة للبشر جميعاً، ولم يفرق بين غني وفقير، ورجل وامرأة، أحراراً كانوا أو مملوكين. ولقد ظهر أثر ذلك في وقت مبكر في ظل حكومة القرآن. وإذ بهذه الأمة المنطوية على نفسها المنحصرة في مضاربها تفجر طاقات الكون، وهي تجوب آفاق الأرض التي جعلها الله لها ذلولاً، لتمشي في مناكبها غير معتدية أو سالبة، وإنما هي فاتحة للعقول قبل البلاد، لقد نمت دعوة القرآن للعلم، فأحيت أمة من أجداثها، وإذ بهذه الأمة الأمية، والتي منّ الله عليها بالهداية ليصبح كل بيت من بيوتها، ومسجد من مساجدها موئلاً للعلم، يأتيه الناس على اختلاف لغاتهم وأديانهم من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم. هذه حقيقة لا يختلف فيها اثنان ولا يشك فيها عدو.

وهناك بدهية أخرى وهي أن هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ورغم اكتشاف كثير من المجاهيل، رغم تقدم الإنسان في مضمار العلم، وآفاق الكون الفسيحة، لا يتعارض مع المسلمات الصحيحة التي وصل إليها الإنسان فضلاً عن أن يناقضها. وهذه البدهية التي لا يختلف فيها اثنان كذلك، نجد مع كل أسف بعضاً ممن ينتسبون لهذه الأمة بأسمائهم فحسب، ممن رانت مخالات الأفكار الغربية على عقولهم، يمارون فيها؛ لأنهم حُجبوا بالهوى وأسروا بالتقليد.

والخلاصة أن القرآن بدعوته المفتوحة للعلم، بنى حضارة شامخة سعدت بها الإنسانية حيناً من الزمان، وإن هذا القرآن لن يناقضه علم كوني صحيح، ولكن هل يمكن أن تفسر آيات القرآن تفسيراً علمياً؟، وهل هناك إعجاز علمي؟ .

اختلفت كلمة العلماء قديماً وحديثاً في هذه القضية، فذهب بعضهم إلى أن القرآن ليس معجزة علمية، ولكنه معجزة بيانية فحسب، ومن هؤلاء الإمام

الشاطبي من الأقدمين[1]، والشيخ محمد حسين الذهبي، والشيخ محمود شلتوت[2]، والأستاذ محمود شاكر من المحدثين[3].

وذهب أكثر العلماء إلى أن القرآن معجزة علمية، وإلى أنه لا مانع من تفسير آياته تفسيراً علمياً، إذ إن آياته فيها من دقائق العلوم ما لا يحصى، ومن هؤلاء الإمام الغزالي[4] والإمام الرازي[5] والسيوطي من الأقدمين، والشيخ محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا والأستاذ مصطفى صادق الرافعي والدكتور محمد عبدالله دراز، والأستاذ عبدالوهاب حمودة والأستاذ محمد أحمد الغمراوي من المحدثين.

والذي نراه أن التفسير العلمي ضرورة تتطلبها هذه الفترة الزمنية التي نعيشها، شريطة أن يتهيأ لذلك ذوو الاختصاص، إذ إن القرآن ليس ديوان شعر، كما أن سوره وآياته ليست قصائد وأبياتاً يقولها الشاعر في ظرف معين، وإنما القرآن كتاب الله ما دامت الإنسانية، وإذن فلابد من أن تكون فيه الجدة دائماً، وهو الذي لا تنقضي عجائبه.

التفسير العلمي إذا توفر له مناخه الصالح، واستجمع الشروط فلا مانع منه أبداً، وهذه الشروط كما ارتأيتها:

١- موافقة اللغة موافقة تامة بحيث يطابق المعنى المفسر المعنى اللغوي.

٢- عدم مخالفة صحيح المأثور عن الرسول ﷺ أو ما له حكم المرفوع.

---

(١) الموافقات، (٢/ ٧٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ص١١.

(٣) مقدمة الظاهرة القرآنية، مالك بن ني، ص٢٤.

(٤) إحياء علوم الدين، (١/ ٢٥٨).

(٥) تفسير الرازي، (١٤/ ١٢١-١٢٢).

٣- موافقة سياق الآيات بحيث لا يكون التفسير نافراً عن السياق.

٤- التحذير من أن يتعرض التفسير العلمي لأخبار وشؤون المعجزات.

٥- أن لا يكون التفسير حسب نظريات وهمية متداعية، بل لابد أن يكون حسب الحقائق العلمية الثابتة.

وآن لنا أن نذكر بعض النماذج من التفسير العلمي.

١- قال تعالى: ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا ﴾ [مريم:٢٥-٢٦]. فقد خص الرطب بالذكر في الآية الكريمة، وقد أثبت العلم أخيراً أن البلح له تأثير على خفض ضغط الدم عند الحوامل، وبذلك تقل كمية الدم النازلة منها، وهو يحتوي على نسبة عالية من السكاكر البسيطة السهلة الهضم والامتصاص، والسكاكر هو الغذاء المفضل للعضلات، وعضلة الرحم من أضخم عضلات الجسم، وتقوم بعمل جبار أثناء الولادة التي تتطلب سكاكر بسيطة بكميات جيدة، ونوعية خاصة سهلة الهضم والامتصاص كتلك التي في الرطب.

وأثبت العلم أن ثمر النخيل الناضج يحتوي على مادة مقبضة للرحم تقوي عضلات الرحم في الأشهر الأخيرة من الحمل وتساعد على الولادة.

٢- قال تعالى: ﴿ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ﴾ [الزمر:٦]، والمفسرون القدامى يعدون هذه الظلمات الثلاث ظلمة البطن والرحم والمشيمة، ويأتي علم التشريح الحديث ليثبت بما لا يقبل الريبة أن هذه الظلمات إنما هي أغشية ثلاثة، تحيط بالطفل غشاء فوق غشاء، وهذه الأغشية لا تظهر بالعين المجردة، وهي: المنباري، الخربوتي، اللفائفي، أو كما يقول توماس إيدن: «هي الكوريون وهو الغشاء الخارجي، يليه الميزودرم».

الإعجاز التشريعي:

القرآن كتاب الله تبارك وتعالى الذي أنزله على نبيه عليه وآله الصلاة والسلام، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ليهديهم صراطاً مستقيماً، وصدق الله ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩] ومعنى هذه الآية الكريمة أن هداية القرآن هي أعظم الهدايات، وهذا يفهم من قوله: (للتي هي أقوم) وتظهر هذه الهداية في أحكام القرآن وقيمه الخلقية، وقواعده التربوية، ونظمه التشريعية.

والحق أن بيان القرآن وتشريعاته لا ينفصل بعضها عن بعض، وإذا عرفنا أن القرآن معجزة بيانية، فيجب أن نعلم أنه معجزة تشريعية كذلك.

وقد اقتضت حكمة الله ومشيئته – وقد أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله – أن ينزل هذا القرآن الكريم، وقد بلغت اللغة العربية غاية في نموها وتهذيبها، سعةً وإحكاماً ودقة وضع، وبلغ العرب الناطقون بها مبلغاً في المهارات اللغوية فطنة ورقة طبع، وذلك من أجل أن يكون القرآن الكريم معجزة لغوية فيتحدى فحول العلماء وجهابذة البلغاء.

واقتضت مشيئة الله وحكمته كذلك أن ينزل القرآن الكريم، وقد مرّ على القانون الروماني، الذي كان مرجع البلاد المتمدينة وقد بلغ من الإصلاح والتهذيب، فكان نتيجة إصلاحات لكبار الفلاسفة ورجال العلم والقانون والاجتماع مدة ثلاثة عشر قرناً، ابتداءً من سنة سبعمائة وأربعة وأربعين قبل الميلاد إلى سنة خمسمائة وثلاث وثلاثين ميلادية في عهد (جوستنيان)، فكان القرآن كذلك معجزة تشريعية ليتحدى القوانين والمقننين، والفلسفة والفلاسفة كما تحدى اللغويين.

والمتحدث عن الإعجاز التشريعي جدير أن يقف أولاً على تشريعات القرآن الكريم في شتى مناحي الحياة ومختلف جهاتها، وقد يجد نفسه مضطراً إلى

الإلمام بما جاء في السنّة المطهرة من تشريعات، فإن القرآن الكريم كثيراً ما تذكر فيه الأحكام مجملة، فتأتي السنّة لتشرح هذه القواعد وتفصل ذلك الإجمال، والسنّة – إذن – ليست أجنبية عن القرآن، بل هي شارحة مبينة.

وجدير به ثانياً أن يدرس ما وصل إليه العقل البشري من قوانين وأنظمة في مناحي الحياة المختلفة وجوانبها المتعددة.

وسيجد أي باحث منصف الفرق الشاسع بين تشريعات القرآن الكريم من حيث سموها وشمولها، وما فيها من نظرة إنسانية، وخلو من السلبيات والثغرات والمآخذ، أقول سيجد فرقاً بين تشريعات القرآن الكريم وبين غيره من القوانين التي بذلت في تنقيحها طاقات، وعلمت أفكار وعقول. ولسنا نحيف على هذه القوانين، فنجردها من كل خير، ولكننا – ونحن – لا نبخس الناس أشياءهم، سنجدها غير بالغة من حيث قراراتها ومضامينها ما بلغه كتاب الله، ولا هي قريبة منه في كثير من الشؤون.

«إن ما اشتمل عليه القرآن من أحكام تتعلق بتنظيم المجتمع وإقامة العلاقات بين آحاده على دعائم من المودة والرحمة والعدالة، لم يسبق به في شريعة من الشرائع الأرضية، وإذا وازنا بين ما جاء في القرآن وبين ما جاءت به قوانين اليونان والرومان وما قام به الإصلاحيون للقوانين والنظم بما جاء في القرآن، وجدنا أن الموازنة فيها خروج عن التقدير المنطقي للأمور.. فجاء محمد ﷺ ومعه القرآن الذي ينطق عن الله سبحانه وتعالى، من غير درسٍ دَرَسَه، وكان في بلد أمي ليس فيه معهد ولا جامعة ولا مكان للتدارس، وأتى بنظام للعلاقات الاجتماعية والتنظيم الإنساني، ولم يسبقه سابق»[1].

---

(١) المعجزة الكبرى، الشيخ محمد أبو زهرة، ص٣٨٥.

ذلكم أن أول ما نلحظه ونلمحه في التشريعات البشرية أنها تشريعات محددة يلائم كل منها البيئة التي وضع فيها، والمجتمع الذي وضع له مع كثير من الثغرات والسلبيات، ولكن القرآن الكريم أراده الله للناس جميعاً. وصدق الله ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام:١٩].

إن تعاليم القرآن موجهة للعالم بأسره، فهي للناس في شتى أرجاء العالم كافة، بغض النظر عن أصلهم، أنزلت إليهم لتدخل السرور والبهجة إلى قلوبهم، وتطهر نفوسهم وتهذب أخلاقهم، وتوجه مجتمعهم، وتستبدل سطوة القوي بالعدل والأخوة، وقد أكد الله عز وجل أن في القرآن حلولاً لجميع قضايا البشر ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل:٨٩].

والتشريعات القرآنية متعددة الجوانب: منها ما اصطلح على تسميته بالعبادات، وهي الطهارة والصلاة والزكاة والحج، ومنها المعاملات: كالبيع والإجارة وهي ما تعرف بالقانون المدني، ومنها الأحوال الشخصية، ومنها التشريعات التي تتصل بالعقوبات وهي ما تعرف بالقانون الجنائي، ومنها ما يعرف بالسير وهي التي تسمى في لغة القانون بالعلاقات الدولية.. إلى غير ذلك من التشريعات.

ولقد كان للقرآن السبق في تلك التشريعات، والمتأمل في أي جانب من هذه الجوانب وهو يقارن ويوازن بينها وبين شبيهاتها من القوانين، فسيدرك دون صعوبة أحقية التشريعات القرآنية وجدارتها بتبوّء المكانة العليا، وصدق الله ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء:١٠٥]، ومعنى قوله: (وبالحق أنزلناه) أي

أن القرآن هو حقاً من عند الله، ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، ومعنى قوله: (وبالحق نزل) أي: أن كل ما في القرآن من حقائق وتشريعات وأخبار حق لا يتطرق إليه باطل، وهو في أعلى رتب الحق، لا يتجارى في قضاياه، ولا يدانيه كتاب آخر في أحكامه ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

خذ أي قاعدة من القواعد التشريعية، وأي باب من أبواب الفقه القرآني لتجد مصداقية أسبقية القرآن وسمو تشريعاته[١].

* * *

(١) نكتفي بما ذكرناه ومن أراد التوسع فليراجع كتابنا إعجاز القرآن الذي ذكرنا فيه الكثير من الأمثلة على سمو تشريعات القرآن الكريم.

الفصل الخامس

علم المناسبات

علم المناسبة علم شريف، فهو رافد من روافد إعجاز القرآن الكريم، فكما أن القرآن معجز في ألفاظه ومعانيه ونظمه، فهو كذلك معجز في ترتيب سوره وآياته، وقبل أن نبدأ الحديث عن المناسبات؛ لابد لنا أن نعرِّف الآية والسورة ونبين القول الفصل في ترتيب الآيات والسور أهو توقيفي أم اجتهادي؟

أولا: الآية القرآنية:

الآية لغةً: تطلق ويراد منها العلامة، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة:٢٤٨]، ويراد منها المعجزة، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء:٥٩]، ويراد منها العبرة، والأمر العجيب.

أما اصطلاحاً فهي: طائفة من القرآن ذات مبدأ ومنتهى، مندرجة في سورة يسمى آخرها فاصلة.

وقد أجمع العلماء على أن ترتيب الآيات في السور توقيفي لا مجال فيه للرأي والاجتهاد، علمه رسول الله ﷺ للصحابة، وهكذا أخذه التابعون، بل إن ترتيب الآيات في السور من أعظم روافد الإعجاز في القرآن الكريم، واستدلوا لذلك بأحاديث كثيرة منها ما رواه مسلم عن عمر ﷺ قال: ما سألت النبي ﷺ

عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بأصبعه في صدري وقال: «أما تكفيك آية الصيف التي في آخر النساء»[1].

وما أخرجه البخاري عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ [البقرة:٢٤٠] وقد نسختها الآية الأخرى، فَلِمَ تَكْتُبُها؟ قال: تدعُها، يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه[2].

ثانيا: السورة القرآنية:

السورة لغةً: يرى بعضهم أن الواو منقلبة عن همزة، والأكثرون على أنها أصلية، فإن كانت منقلبة عن همزة فهي من السؤر، وهو ما بقي من الشراب، فهو قطعة منه، وعليه فقد سميت السورة كذلك لأنها قطعة من القرآن الكريم. أما إن كانت الواو أصلية فإما أن تكون مأخوذة من سور البناء وهو المنزلة، وعليه فالسورة هي منزلة من منازل القرآن الكريم، وإما من سور المدينة المحيط بها، وعليه سميت سورة لإحاطتها بآياتها.

أما اصطلاحاً: فالسورة هي طائفة من القرآن الكريم لها بداية ونهاية، واسم خاص يميزها عن غيرها بتوقيف من النبي ﷺ.

أما ترتيب السور في القرآن فللعلماء مذاهب فيها، وما نرجحه هو رأي جمهور العلماء، وهو أن ترتيب السور في كتاب الله توقيفي لا مجال للاجتهاد فيه، وقد استدلوا لذلك بأدلة كثيرة منها قوله ﷺ: «اقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران»[3].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفرائض، (٢/ ١٢٣٦)، حديث رقم ٩.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، تفسير سورة البقرة، (٤/ ١٦٤٦)، حديث رقم (٤٥٣٦).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في كتاب صلاة المسافرين، (١/ ٥٠٣).

وعن ابن مسعود ﷺ قال: بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن العتاق الأول وهن من تلادي»[1].

وعن أوس بن حذيفة قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: وإنه طرأ علي حزبي من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أتمه، قال أوس: فسألت أصحاب النبي ﷺ كيف تحزّبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده»[2].

ونكتفي بهذا القدر ونعود لنتحدث عن المناسبات.

معنى المناسبة:

النسب في اللغة القرابة، والمناسبة بمعنى المشاكلة والمشابهة، يقال: بين هذين الشيئين مناسبة وتناسب، أي: مشابهة وتشابه.

يقول الزركشي: «اعلم أن المناسبة علم شريف، تحرز به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول. والمناسبة في اللغة المقاربة، وفلان يناسب فلاناً، أي: يقرب منه ويشاكله، ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل، كالأخوين وابن العم»[3].

وعلم المناسبة في الاصطلاح: علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه وهو سر البلاغة[4].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، تفسير سورة الإسراء، (٨/ ٣٨٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، (١/ ٤٢٧).

(٣) البرهان في علوم القرآن، (١/ ١٣١).

(٤) نظم الدر للبقاعي، (١/ ٦).

اختلف المفسرون في ذكرهم لهذه المناسبات بين الآيات القرآنية في السورة الواحدة، وبين السورة والسورة كذلك، فتجد بعضهم يذكر هذه المناسبات بإجمال وبعضهم يفصل في ذكرها. وبعضهم يرى أن المفسر ينبغي أن لا يعرض لهذه القضية في تفسيره كما يرى ابن عاشور.

وقد تشعب العلماء في ذكر المناسبات وممن أكثر في ذكر المناسبات من المفسرين الإمام الرازي في تفسيره فهو يقول: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط» وتبعه في ذلك أبو حيان في البحر المحيط، وبعد ذلك الإمام الألولسي في تفسيره روح المعاني وغيرهم من المفسرين.

هذا وقد وضعت المؤلفات في مناسبة الآيات والسور، ومن هذه المؤلفات كتاب «البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن» لأبي جعفر بن الزبير، وكتاب «نظم الدرر في تناسب الآي والسور» للشيخ برهان الدين البقاعي، وكتاب «تناسق الدرر في تناسب السور» للسيوطي، ومنها كتاب «جواهر البيان في تناسب سور القرآن» لأبي الفضل عبدالله محمد الصديق الغماري، وكتاب «إمعان النظر في نظام الآي والسور» للدكتور محمد عناية الله أسد سبحاني وغيرها من الكتب.

لقد كان لشيخنا الأستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز - رحمه الله - دروس في التفسير، سجلت للإذاعة ومن يستمع إليها يدرك عمق فهمه لكتاب الله تعالى، بخاصة عند ربطه بين الآيات القرآنية في السورة، وكم أتمنى أن تُسمع هذه الأحاديث، وأن يرجع إليها ليفيد منها العلماء وغيرهم.

إن إيجاد الروابط بين الآيات من جهة، وبين السور بعضها مع بعض من جهة أخرى أمر اجتهادي، يفتح الله به ما يشاء على من شاء من عباده، أذكر وقد كنت على مقاعد الدراسة، أنه كان من الأسئلة التي جاءتنا في امتحان

التفسير، ما مناسبة سورة المجادلة لسورة الحديد التي قبلها، وقد كتبت ما ذكره أئمة التفسير، ثم ألهمني الله تعالى أمراً آخر لم أقرأه في هذه الكتب، وهو أن سورة الحديد جاء فيها قوله تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ [الحديد:٢٧] فجاءت سورة المجادلة لتتحدث عن الزوجية، وتثبيت عرى هذه الزوجية، التي هي ضد الرهبانية ولعل هذا الذي كتبته كان السبب في إعجاب شيخي الأستاذ محمد محمد السماحي بي، والسبب في نجاحي ذلك العام.

وقد تحدث العلماء عن نوعين للمناسبة:

الأول: مناسبة الآي بعضها لبعض بحيث يظهر ارتباطها وتناسقها كأنها جملة واحدة، وهذا ما أشار إليه الرازي بقوله: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»[١] ويقول ابن العربي «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض - حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني منتظمة المباني - علم عظيم»[٢].

الثاني: مناسبة السور بعضها لبعض:

وقبل أن أمثل لك ببعض الأمثلة، أذكر لك أن كثيراً من الآيات القرآنية مناسباتها لما قبلها من الآيات ولما بعدها ظاهرة، يسهل على القارئ فهمها، ولكن هناك آيات لا تدرك مناسباتها لما قبلها وما بعدها بسهولة ويسر، بل لابد من التدبر وإعادة النظر، لإدراك هذه المناسبات.

أمثلة للنوع الأول: المناسبات بين الآيات:

١- بعد آية الطلاق في سورة البقرة ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ

(١) «تفسير الرازي»، ١٠/ ١١٣، ط. دار الكتب العلمية، «البرهان»، ١/ ١٣٢.

(٢) «البرهان»، ١/ ١٣٢.

عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٣٧] يقول سبحانه وتعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة:٢٣٨] تحدث العلماء عن مناسبة هذه الآية لما قبلها، فالمناسبة غير ظاهرة وهي تحتاج إلى تأمل وإعمال فكر. ومما ذكروه في ذلك ما قاله الآلوسي: «ولعل الأمر بها عقيب الحض على العفو، والنهي عن ترك الفضل، لأنها تهيئ النفس لفواضل الملكات، لكونها الناهية عن الفحشاء والمنكر، أو ليجمع بين التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلقه، وقيل: أمر بها في خلال بيان ما تعلق بالأزواج والأولاد من الأحكام الشرعية المتشابكة إيذاناً بأنها حقيقة بكمال الاعتناء بشأنها، والمثابرة عليها من غير اشتغال عنها بشأن أولئك، فكأنه قيل: لا يشغلنكم التعلق بالنساء وأحوالهن، وتوجَّهوا إلى مولاكم بالمحافظة على ما هو عماد الدين ومعراج المؤمنين» .

٢- يقول سبحانه وتعالى في سورة النساء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْ ﴾ [النساء:٤٣] وقد تحدث العلماء عن مناسبتها لما قبلها تلك التي تتحدث عن أحوال يوم القيامة ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴾ [النساء:٤١-٤٢] .

يقول البقاعي: لما وصف الوقوف بين يديه في يوم العرض والأهوال الذي أدت فيه سطوة الكبرياء والجلال إلى تمني العدم، ومنعت فيه قوة يد القهر والجبر أن يكتم حديثاً، وتضمن وصفه أنه لا ينجو فيه إلا من كان طاهر القلب والجوارح بالإيمان به والطاعة لرسوله ﷺ ؛ وصف الوقوف بين يديه في الدنيا في

مقام الأنس وحضرة القدس المنجي من هول الوقوف في ذلك اليوم، والذي حظرت معاني اللطف والجمال فيه الالتفات إلى غيره، وأمر بالطهارة في حال التزين به عن الخبائث.

ومن أمثلة النوع الثاني، أي المناسبات بين السور :

١- صلة سورة المجادلة بسورة الحديد : فقد ذكر العلماء وجه مناسبتها لما قبلها أن الأولى ختمت بفضل الله تعالى، وافتتحت سورة المجادلة بما هو من ذلك. وقال بعضهم: لما كان في مطلع سورة الحديد ذكر صفاته تعالى الجليلة ومنها الظاهر والباطن وقال سبحانه: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد:٤] افتتح سورة المجادلة بذكر أنه جل وعلا سمع قول المجادِلة التي شكت إليه.

وقد ذكرت لك أن معرفة المناسبات قضية اجتهادية، للفكر فيها رأيه، حيث يفتح الله تعالى به ما شاء على من يشاء، ولذا أزيد هنا ما ذكرته لك من قبل: إن مناسبة سورة المجادلة لما قبلها أن سورة الحديد هي السورة الوحيدة التي أشارت إلى الرهبانية التي ابتدعها النصارى.. ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ [الحديد:٢٧]، والرهبانية تمنع الزواج؛ ولذا جاءت سورة المجادلة لتحث على إقامة عرى الزوجية والمحافظة عليها.

٢- صلة سورة الإسراء بسورة النحل: سورة النحل هي سورة النعم – كما يسميها العلماء؛ وذلك لأننا إذا تدبرناها على طولها، فإننا نجدها من أولها إلى آخرها تذكيراً للإنسان بهذه النعم، ابتداء من نعمة الوحي ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل:٢].

ثم تذكيراً بالنعم التي لا حياة للإنسان إلا بها ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [النحل:٣]، ثم الامتنان على هذا الإنسان ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [النحل:٤]، ثم ما خلق الله له ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [النحل:٥]، وهكذا تذكر السورة الكريمة ما أكرم الله به هذا الإنسان من نعم لا تحصى وفي السورة نفسها ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل:١٨] ونرجو من القارئ الكريم أن يشرف بالمصحف الشريف ليتدبر هذه السورة تدبراً واعياً حتى يدرك هذه الحقيقة.

إذا كانت سورة النحل سورة النعم، فمن اليسير أن ندرك لماذا جاءت بعدها سورة الإسراء؛ ففي هذا الترتيب البديع من الإشارات واللطائف ما تمتلئ به القلوب فرحة وطمأنينة، وخشوعً وجلالاً؛ فإن الإسراء هو من أعظم نعم الله على هذه الأمة، وأعظم نعم الله على نبيها ﷺ ، وإذا كانت سورة النحل تتحدث عن نعم عامة، لا تخص جانباً من الكون دون جانب، فإن سورة الإسراء جاءت تتحدث عن نعم خاصة، ولا تظنن أن أسرار اللطائف تقف عند هذا الحد بل إن لطائف الأسرار لتنقلك من بُعد إلى بُعد. تذوق معي – أسأل الله أن يذيقنا طعم الإيمان وحلاوته، وأسرار الكتاب وطلاوته، وأن لا يذيقنا طعم أنفسنا:

إن آخر آية في سورة النحل هي قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨] ولا ريب أن هذين المقامين – أعني مقام التقوى والإحسان – هما من مقامات المقربين، أما التقوى فأن يطاع الله فلا يعصى ويذكر فلا ينسى، ويشكر ولا يكفر، وأما الإحسان فهو دوام المراقبة كما

قال رسول الله ﷺ «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1]، ولا ريب أن أعظم الناس رفعة في هذين المقامين هو سيدنا رسول الله ﷺ، فهو القائل «أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له»[2].

ولعلك تدرك السر الآن بين آخر سورة النحل وأول سورة الإسراء – ونعجب من الذين لم يتذوقوا هذه اللطيفة الربانية، فيزعمون أن لا صلة بين آخر سورة النحل وأول سورة الإسراء، ويعلم الله أنها مسفرة كالصبح في ظهورها ونورها، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨]، هذه معية خاصة من الله لعباده، تلك هي آخر آية في سورة النحل، ثم تأتي سورة الإسراء، لتكون برهاناً واضحاً على هذه المعية ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الإسراء:١]، فإذا كان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، فإن ذلك مما لا ينبغي أن يرتاب فيه مرتاب، وإليك الدليل على هذه المعية، فها هو سبحانه يكرم سيد المتقين والمحسنين، بهذه المعية الخاصة حيث أسرى به ليلاً، ليريه من آياته.

وعلى هذا نستطيع أن ندرك أن الإسراء كان جزاءً يستحقه سيد المقربين، كما نفهم من الآيتين، آية النحل وآية الإسراء؛ إن قرب العبد من ربه إنما هو الأساس في قرب الرب من عبده، ولا ننسى ما جاء في آخر سورة النحل من ذكر إبراهيم عليه السلام، وما لإبراهيم من صلة بالمسجد الحرام والمسجد الأقصى على السواء، وما كان له من صلة بحديث المعراج كذلك.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، حديث رقم (٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم (٩).

(٢) رواه البخاري في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم الباب ١، رقم الحديث ٤٧٧٦.

الفصل السادس

نزول القرآن الكريم

معنى نزول القرآن :

كثيرة تلك الآيات التي بُيِّن فيها نزول القرآن على سيدنا رسول الله ﷺ وقد مر كثير معنا من قبل مثل قوله سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [النساء:١٠٥] وقال تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [آل عمران:٣] وقال سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر:٢] وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ [محمد:٢] وقال سبحانه: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥] وقد اختلف العلماء في صيغتي الإنزال والتنزيل، فذهب بعضهم إلى أنهما سواء. وفرق بعضهم بينهما بأن الإنزال ما كان دفعة واحدة، وبأن التنزيل ما كان مفرقاً، واستدلوا بمثل قوله سبحانه: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:٣-٤] وليس هنا تفصيل القول في هذه القضية. وقد نتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله، وإنما غرضنا هنا أن نبين معنى الإنزال من حيث اللغة، ومعنى إنزال القرآن بخاصة.

يطلق الإنزال على معنيين أحدهما: الهبوط من علو، والثاني: الإيواء إلى المكان والحلول فيه، وهذان المعنيان مستعملان استعمالاً حقيقياً، والمعنى الأول هو المتبادر، يقال: نزل من شاهق الجبل، ونزل من علٍ. ويقال: نزل في المكان إذا أوى إليه. قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون:٢٩] وقال سبحانه: ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الصافات:١٧٧] وقال سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان:٤٨] فالآيتان الأوليان جاء الإنزال فيهما بمعنى الإيواء والحلول، والآية الثالثة جاء الإنزال فيها بمعنى الانحدار من الأعلى، ولكن أيمكن أن نحمل إنزال القرآن على هذين المعنيين؟؟ ، الظاهر أن الإجابة بالنفي؛ ذلكم لأن القرآن ليس شيئاً مادياً يصدق عليه أحد معنيي الإنزال. لذا ذهب العلماء إلى أن إنزال القرآن لا يمكن حمله على الحقيقة بل هو أمر مجازي ولهم فيه توجيهان اثنان:

أولاً: أن يقصد من إنزال القرآن إنزال حامله وهو الروح الأمين جبريل عليه السلام.

ثانياً: أن يقصد من الإنزال لازمه وهو الإعلام، وكلا المعنيين مجازي. أما الأول فظاهر، وأما الثاني فلأن إنزال شيء ما يلزم منه إعلام المنزل إليه بهذا الشيء وإيصاله له، فمعنى إنزال القرآن على النبي ﷺ إيصاله إليه وإعلامه به. وما دام القرآن الكريم قد كثر فيه هذا اللفظ (أعني لفظ الإنزال) فإنما ذلك لحكمة عظيمة وهي بيان شرف هذا القرآن وعلو منزلته. وأنه من العالم العلوي. من هنا اختيرت كلمة الإنزال على كلمة الإعلام والإيصال. هذا هو معنى إنزال القرآن كما ذكره العلماء، ولا ينبغي أن نتجاوز هذا الحد بل نقف عند ما أخبر به الله تبارك وتعالى قال سبحانه: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء:١٠٥]، ومعنى قوله: (وبالحق أنزلناه) أن هذا القرآن منزل عليك من الله

تبارك وتعالى ومعنى (وبالحق نزل) أي: إن ما في هذا القرآن حق كله ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت:٤٢].

تنزلات القرآن :

هل للقرآن الكريم أكثر من تنزّل؟؟ .

لكي يتبين لنا هذا الأمر تبيناً تاماً ينبغي أن نقف أمام هذه الآيات الكريمة:

١- قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة:١٨٥].

٢- قال سبحانه: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ... ﴾ [الدخان:١-٣].

٣- قال سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر:١].

هذه الآيات الكريمة تبين أن القرآن الكريم أنزل في رمضان، وأنه أنزل في ليلة مباركة، وأن هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر.

ولكن ما معنى نزول القرآن في ليلة القدر؟ اختلف العلماء في ذلك على أقوال:

القول الأول: ذهب بعض العلماء إلى أن القرآن الكريم نزل كلُّه دفعة واحدة في ليلة القدر، من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا.

ثم نزل من سماء الدنيا على قلب النبي ﷺ منجماً في بضع وعشرين سنة. وقد استدلوا على ما ذهبوا إليه بآثار موقوفة عن ابن عباس رضي الله عنهما وبعض الأحاديث المرفوعة التي لم تصح.

القول الثاني: إن هناك تنزلاً واحداً للقرآن الكريم، وهو نزوله على النبي ﷺ في ليلة القدر، في شهر رمضان، ولكن الذي نزل على النبي ﷺ إنما هي الآيات الأولى من سورة اقرأ، فكيف تفسر قوله؟ قالوا: إن الأمور العظيمة والشؤون الخطيرة يؤرخ دائماً ببدئها فمعنى قوله سبحانه: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ أي: الذي ابتُدئ فيه نزول القرآن عليك أيها النبي.

وكذلك يقال في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾، و ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ أي: ابتدأنا إنزاله.

القول الثالث: يُجمع العلماء على أن القرآن الكريم كما يطلق على القرآن كله فإنه يطلق على الآية والآيتين، وعلى هذا فمعنى قوله سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ أي: أنزلنا الآيات الأولى وهي الآيات الخمس من سورة العلق.

الموازنة بين هذه الأقوال:

ونحن إذ نوازن بين هذه الأقوال يبدو لنا والله أعلم بالصواب أننا نختار القولين الأخيرين فهما متقاربان بل يكادان يكونان قولاً واحداً. فإن ابتداء الإنزال في الشهر الكريم والليلة المباركة معناه أنزل بعض الآيات، وإنما اخترت هذا القول لما يلي:

أولاً: لأن القول بأن القرآن الكريم أنزل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في ليلة القدر في رمضان، لم يصل إلينا من كتاب أو سنّة صحيحة وإنما وردت آثار موقوفة عن ابن عباس رضي الله عنهما وهي تحتاج إلى تمحيص من حيث أسانيدها. والقول بأن مثل هذا لا يمكن أن يكون رأياً لابن عباس غير مسلّم، فقد يكون ابن عباس فهم الآية هذا الفهم إن صحت هذه الأقوال عنه.

ثانياً: يلزم على القول الأول وهو أن القرآن الكريم أُنزل في شهر رمضان دفعة واحدة إلى السماء الدنيا، عدم نزوله على سيدنا محمد ﷺ ، في رمضان لأنهم يرون أن الذي ذكرته الآيات في حديثها عن نزول القرآن في رمضان هو نزوله دفعة واحدة إلى السماء الدنيا.

وهذا غير مسلم به فإن الذي أجمعت عليه الأمة إجماعاً مستنداً إلى السنّة الصحيحة وإلى الكتاب الكريم هو أن القرآن نزل على سيدنا محمد ﷺ في رمضان.

ثالثاً: إن المتدبر للآية الكريمة يجزم بما لا يحتمل شكاً بأنها تتحدث عن نزول القرآن على النبي ﷺ ، فلنتدبر هذه الآية الكريمة: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ فلو كان المقصود نزوله إلى سماء الدنيا لم يكن هناك كبير فائدة في قوله تعالى ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ إنما الأمر الذي يطمئن إليه القلب وتستريح إليه النفس هو أن القرآن نزل على سيدنا رسول الله ﷺ هدى للناس.

رابعاً: إن الله تبارك وتعالى يمنّ علينا بالهداية بأن كرّمنا بهذا القرآن الكريم ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ﴾ [الحجرات:١٧]. وهذه المنّة إنما تتحقق بإنزال القرآن لنتعظ منه ونعتبر، وهذا أمر غير متحقق بنزوله إلى سماء الدنيا. يقول السيد محمد رشيد رضا رحمه الله: «وأما معنى إنزال القرآن في رمضان مع أن المعروف باليقين أن القرآن نزل منجماً متفرقاً في مدة البعثة كلها فهو أن ابتداء نزوله كان في رمضان، وذلك في ليلة منه سميت ليلة القدر، أي: الشرف، والليلة المباركة، كما في آيات أخرى، وهذا المعنى ظاهر لا إشكال فيه، على أن لفظ القرآن يطلق على هذا الكتاب كله، ويطلق على بعضه. وقد ظن الذين تصدوا للتفسير منذ عصر الرواية أن الآية مشكلة، ورأوا في حل الأشكال أن

القرآن نزل ليلة القدر من رمضان إلى سماء الدنيا، وكان في اللوح المحفوظ فوق سبع سموات ثم نزل على النبي ﷺ منجماً بالتدريج، وظاهر قولهم هذا أنه لم ينزل على النبي ﷺ في رمضان منه شيء خلافاً لظاهر الآيات، ولا تظهر المنّة علينا ولا الحكمة في جعل رمضان شهر الصوم على قولهم هذا؛ لأن وجود القرآن في سماء الدنيا كوجوده في غيرها من السموات أو اللوح المحفوظ من حيث إنه لم يكن هداية لنا، ولا تظهر لنا فائدة في هذا الإنزال ولا في الإخبار به، وقد زادوا على هذا روايات في كون جميع الكتب السماوية أنزلت في رمضان. كما قالوا إن الأمم السابقة كلفت صيام رمضان»[1].

وأياً ما كان الأمر فإنه لا يتعلق بهذه القضية أمر ذو بال فلا يضير المسلم أي المسلكين سلكه، وإنما أحببت أن أنبه على هذا لأن كثيراً من المسلمين يحسبون أن كون القرآن الكريم له عدة تنزلات أمر لا يجوز مخالفته.

فرية القول بنزول القرآن بالمعنى:

سامح الله بعض العلماء الذين يذكرون في كتبهم عن حسن نية ما غثّ وسمُن، وما علم هؤلاء رحمهم الله أن هناك أناساً يتصيّدون كل ما يرونه محققاً لمصالحهم مما يكيدون به هذا الدين، وسنرى كثيراً من هذا في موضوعات علوم القرآن. والقضية التي نحن بصددها من أخطر القضايا التي لو قدّر لها أن تحيا لعصفت لا سمح الله بقواعد هذا الدين وأحكامه، ولكن هيهات هيهات.

فلقد تكفل الله بحفظ هذا الكتاب ونصرة هذا الدين، ذكر الزركشي في البرهان[2]، وتبعه السيوطي في الإتقان[3]، رحمهما الله وعفا عنهما، وهما

---

(١) تفسير المنار، ج٢، ص١٦١.

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٣٠).

(٣) الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٥٩).

يتحدثان عن نزول القرآن الكريم أقوالاً منها: نزول القرآن بالمعنى، أما لفظ القرآن فذهب بعضهم إلى أن جبريل هو الذي صاغ هذه الألفاظ، وذهب آخرون إلى أن الذي صاغ ألفاظ القرآن هو النبي ﷺ وشبهتهم في هذا القول فهمهم الخاطئ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

وتفصيل هذه الشبهة أن الله سبحانه وتعالى بيّن للنبي ﷺ أن الروح الأمين جبريل عليه السلام نزل بالقرآن على قلب النبي، قالوا: والذي يناسب النزول على القلب هو المعنى، أما اللفظ فإنما يخص به السمع، ثم قال سبحانه: ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ أي: تنذر الناس بلسان عربي. فقوله سبحانه: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ ﴾ متعلق بقوله: ﴿ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ أي: من المنذرين بلسان عربي، وهذا الفهم للآية الكريمة مردود من جوانب كثيرة.

أولاً: لا مانع أن ينزل اللفظ والمعنى على القلب، ونحن نرى في عصر العلم اليوم ما يبهر العقول فهذه الإشارات التي ترسلها مركبات الفضاء من كواكب بيننا وبينها ألوف الأميال ومئات الألوف ترسلها إشارات تتحول إلى ألفاظ هذا شأن البشر ولله المثل الأعلى.

ثانياً: أن تعلق قوله سبحانه وتعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ بقوله: ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ ليس له كبير فائدة، فليس النبي وحده الذي ينذر بلسان عربي مبين بل إن غيره من الأنبياء العرب كهود وصالح وشعيب وإسماعيل ومن بعده كذلك من العرب كانوا ينذرون بلسان عربي، ثم إن الإنذار بهذا القرآن ليس للعرب وحدهم ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾

[الأنعام:١٩]، وعلى هذا فإن المعنى الصحيح للآيات الكريمات ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ ، فقوله سبحانه: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ ﴾ متعلق بقوله سبحانه ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ أي: نزل به الروح الأمين بلسان عربي، وإنما أخرت هذه الآية ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ ﴾ عن قوله: ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ ليبين ما للإنذار من أهمية قصوى.

قال الزمخشري رحمه الله: « (بلسان عربي) إما أن يتعلق بالمنذرين فيكون المعنى لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم خمسة هود وصالح وشعيب وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وإما أن يتعلق بنزل فكون المعنى نزّله باللسان العربي لتنذر به لأنه لو نزّله باللسان الأعجمي لتجافوا عنه أصلاً ولقالوا ما نصنع به لا نفهمه فيتعذر الإنذار به، وفي هذا الوجه أن تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزل له على قلبك لأنك تَفهَمُه وتُفهِمه قومَك، ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك لأنك تسمع أجراسَ حروفٍ لا تَفهم معانيها ولا تعيها»[١].

ولله درّ الزمخشري على هذا الفهم الرائق وعلى هذا الغوص على درر المعاني، ثم إن فرية القول بنزول القرآن بالمعنى تتناقض مع بدهيات الدين ومع ما علم من الدين بالضرورة، إذ نحن نعلم بداهة أن القرآن معجز لأنه كلام الله، فلو كان لفظه من عند غير الله لم يكن معجزاً، ونحن نفرق بداهة كذلك بين كلام الله تبارك وتعالى وبين كلام النبي ﷺ ، وهذه هي الأحاديث النبوية مع ما تبوأته من سدة الفصاحة فإن الفرق بينها وبين القرآن الكريم يبقى بعيد الشأو[٢]

(١) الزمخشري، (٣/ ١٢٨)، طبع دار الفكر.
(٢) وسيأتي لهذا مزيد من التفصيل – إن شاء الله – في مبحث الوحي.

ثم إن هذه الفرية تتعارض مع كثير من الآيات الكريمة مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة:١٦-١٩].

فلو كان لفظ القرآن الكريم من عند النبي ﷺ فلم العجلة إذن، ثم هل يحتاج إلى بيان، ثم إن هذا متعارض مع قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف:٢] وقوله: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ [الزمر:٢٨] وقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢] وقوله: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ [يونس:١٦].

وقوله: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل:٥]، فكيف يمكن أن نوفق بين نزول القرآن بالمعنى وبين كونه قولاً ثقيلاً؟ والآيات التي ترد هذه الفرية لا يمكن أن نذكرها جميعها لكثرتها، وكذلك ما جاء في الأحاديث الصحيحة يرد هذه الفرية مثل قول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه «وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظاناً»[١] وقوله: «ما من نبي إلا وأعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أعطيته وحياً يوحى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[٢].

رحم الله السمرقندي الذي نقل عنه الزركشي والسيوطي رحمهما الله هذا القول الذي ما كانوا يؤمنون به، وما كان أغنانا عن مثل هذه الأقوال التي ينبغي

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن حديث رقم (٤٩٨١).

أن يتنزه عنها، وأن يخلو منها تأليف العلماء، ولكن يشاء الله أن يهيئ لهذا الدين من يردُّ عنه زيغ المنحرفين وانحراف الضالين، وصدق الله ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

نزول القرآن الكريم منجما وحكمه:

مما لا ريب فيه أن القرآن الكريم نزل على قلب سيدنا رسول الله ﷺ في نيّف وعشرين سنة، وذلك منذ بعثته إلى قبيل انتقاله إلى الرفيق الأعلى. وقد سجّل القرآن الكريم اعتراض الكافرين على هذا التنجيم وتمنّيهم أن يكون القرآن الكريم نُزِّل جملة واحدة، فرد عليهم سبحانه أبلغ ردّ وأحكمه.

إن نزول القرآن منجّماً فقد جاءت فيه آيتان كريمتان إحداهما قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان:٣٢] والثانية قوله سبحانه: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء:١٠٦].

ومن عظيم حكمة الله تعالى أننا لو تدبَّرنا كلتا الآيتين الكريمتين وجدنا أن كلاً منهما استقلّت بحكمة خاصة بها، فآية الفرقان كانت الحكمة فيها تثبيت فؤاد النبي ﷺ ، أما الحكمة من آية الإسراء فهي تثبيت أفئدة المؤمنين ليستوعبوا ويتدبَّروا ويحفظوا، ومن هاتين الحكمتين الكلّيتين تتشعب حِكَم كثيرة ذكرها العلماء رحمهم الله تعالى وسأعرض هنا بعض ما ذكروه ليستيقن الذين يريدون وجه الله ويزداد الذين آمنوا إيماناً.

١- التدرج في هدم ما بقي في نفوس المسلمين من آثار عقائدهم وعاداتهم قبل الإسلام، والتدرج في غرس العقيدة الإسلامية ومكارم الأخلاق والتكاليف الشرعية والعبادات في نفوس المسلمين، فقد تدرج القرآن الكريم في القضاء

على ما وقر في نفوس المسلمين قبل الإسلام من عقائد زائفة ومن عادات اجتماعية سيئة كعبادة الأصنام وشرب الخمر وأكل الربا وغير ذلك، فإن من الصعب على الإنسان ترك ما ألفه دفعةً واحدة، كما تدرّج القرآن الكريم في إكساب المؤمنين الفضائل الخلقية العالية كالحِلْم والإيثار، وتدرَّج كذلك في التشريع وتكليف المسلمين بالواجبات والعبادات كالصلاة والصوم وغيرهما.

٢- تثبيت القرآن الكريم في نفوس المسلمين حفظاً وفهماً وتدبراً، وما كان ذلك ممكناً لو نزل جملةً واحدة وبخاصة في ظل الظروف الصعبة التي عاشها المسلمون قبل الهجرة وبعدها.

٣- كان القرآن الكريم يُتنزَّل بحسب الدواعي، فقد كان بعض القرآن يتنزل جواباً لسؤال في حينهٰ كقوله تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء:٨٥] كما أن انتظار الرسول ﷺ نزولَ الوحي للإجابة عن هذا السؤال وسواه يدل على أنه ﷺ لم يكن يشرّع من عنده، بل كان يوحى إليه.

وكان بعضه يتنزل لمعالجة الحوادث في وقت وقوعها، فكثير من آي الكتاب نزل بسبب حادثةٍ مبيناً ما يتصل بها من أحكام حالَ حدوثها، مثل الآيات الأول من سورة المجادِلة التي نزلت في شأن خولة بن ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت، وآيات سورة النور المتعلقة بحادثة الإفك، وكان بعضه يتنزل لمعالجة بعض القضايا والأخطاء التي تقع للجماعة المسلمة في حينها، كعتاب الله لفريقي الأنصار حينما نجح اليهود في الإيقاع بينهما. وكان بعضه يتنزل لكشف خبايا المنافقين وأحوالهم، فكانوا كلما أضمروا للإسلام كيداً، كشف الله كيدهم في حينه.

٤- تثبيت أفئدة المؤمنين وتصبيرهم على الأذى والمعاناة من حين لآخر، فقد جاء في القرآن الكريم كثير من قصص الأنبياء وأخبار الأمم السالفة التي تبين فيها عاقبة المؤمنين والكافرين.

الفصل السابع

أول ما نزل وآخر ما نزل

اختلف العلماء في أول ما نزل وآخر ما نزل، على أن هذا الخلاف عند التحقيق، نجد أنه ليس ذا أثر كبير، بل سيظهر لنا أن من اليسير الجمع بين هذه الأقوال، ورد بعضها الآخر.

أول ما نزل:

ذكر السيوطي – رحمه الله – في الإتقان أقوالاً أربع في أول ما نزل:

القول الأول: الآيات الأولى من سورة (اقرأ) ودليله (حديث عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثلَ فلق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاءُ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيه – وهو التعبد – الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه المَلَكُ فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجَهدَ، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجَهدَ ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾ [العلق:١-٣][(١)] فرجع بها رسولُ الله ﷺ

(١) وتتمة ما نزل ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ [العلق:٤-٥].

يرجُف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرَّحِم، وتحمل الكَلَّ، وتَقْري الضيف، وتُكسِب المعدوم، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى، ابن عم خديجة، وكان امرأ تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عَمِّ اسمع من ابن أخيك، فقال له وَرَقَة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ : أوَ مُخرِجيَّ هم؟، قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِي، وإن يدركْني يومك أنصرْك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي[(١)].

القول الثاني: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ [المدثر:١]، وقد ورد في ذلك روايتان:

الأولى: عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ ، وهو يحدّث عن فترة الوحي فقال في حديثه: بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، - فرُعِبتُ – منه، فرجعت فقلت: زمّلوني، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر:١-٢] إلى قوله ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ [المدثر:٥] فحمى الوحي وتتابع[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي على رسول الله ﷺ (٣).
(٢) فتح الباري (١/ ٣١)، حديث رقم (٤).

الثانية: عن يحيى بن أبي كثير: سألت أبا سلمة بن عبدالرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال: يا أيها المدثر، قلت: يقولون: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن ذلك، وقلت له الذي قلتَ، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا به رسول الله ﷺ ، قال: «جاورت بحراء فلما قضيتُ جواري هبطتُ، فنوديتُ، فنظرتُ عن يميني فلم أرَ شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أرَ شيئاً، ونظرت أمامي فلم أرَ شيئاً، ونظرت خلفي فلم أرَ شيئاً. فرفعتُ راسي فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة فقلت: دثروني، وصبُّوا عليّ ماءً بارداً. قال: فدثروني وصبّوا عليّ ماءً بارداً. قال: فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾»[1].

القول الثالث: فاتحة الكتاب، واستدل القائلون به بما أخرجه الواحدي عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة: أن رسول الله ﷺ كان إذا سمع منادياً يناديه «يا محمد» فإذا سمع الصوت انطلق هارباً فقال له ورقة بن نوفل: إذا سمعت النداء فاثبت حتى تسمع ما يقول لك: قال فلما برز سمع النداء (يا محمد) فقال: لبيك، قال: قل: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، ثم قال: قل: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ . ﴾ [الفاتحة:٢-٤] حتى بلغ ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٧][2] وهو حديث مرسل.

القول الربع: «بسم الله الرحمن الرحيم» .

والذي ذكره السيوطي، هو الذي ذكره فيما بعد جميع الكاتبين في علوم القرآن – رحمهم الله – . على أن هنا أمراً لابد من تسجيله، وهو أن بعض هذه

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٣٠٣، ٣٠٤)، حديث رقم (٤٩٢٢).

(٢) أسباب النزول، الواحدي، ص١٩، وهو حديث مرسل.

الأقوال من الضعف، بحيث لا يستحق أن يذكر؛ فالقول بأن «بسم الله الرحمن الرحيم» هي أول ما نزل ضعيف رواية ودراية؛ ولم يذكره الزركشي – رحمه الله – في البرهان، وهو من أمهات مراجع السيوطي في الإتقان. أما ضعفه رواية فلأنه ليس فيه رواية متصلة يعول عليها، وأما ضعفه دراية، فإنه لا يعقل أن تكون هذه الآية وحدها أول ما ينزل على النبي ﷺ ، حتى إن السيوطي الذي ذكر هذا القول، قال: القول الربع: (بسم الله الرحمن الرحيم) حكاه ابن النقيب في مقدمة تفسيره قولاً زائداً. وأخرج الواحدي بإسناده عن عكرمة والحسن: قالا: أول ما نزل من القرآن «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم قال: وعندي أن هذا لا يعد قولاً برأسه، فإنه من ضرورة نزول السورة نزول البسملة معها، فهي أول آية نزلت على الإطلاق»[1].

وقد يصح ما قاله السيوطي في غير سورة اقرأ؛ لأن الثابت في الأحاديث الصحيحة أن سورة (اقرأ) لم ينزل في صدرها (بسم الله الرحمن الرحيم).

أما القول الثالث: وهو أن أول ما نزل سورة الفاتحة، فمع أن الحديث الذي رواه الواحدي وغيره، حديث لا يصح، لكن بعض العلماء ذهبوا إلى الجمع بينه وبين الحديث الصحيح، أعني الذي روي عن السيدة عائشة، بأن الفاتحة أول ما نزل من القرآن الكريم سورة كاملة، ومع تسليمنا بأن أول سورة تامة نزلت من القرآن الكريم هي الفاتحة، لكن الذي نراه أن هذا الجمع متكلف، ذلك لأن المعول عليه صحة الرواية.

على أن بعض العلماء أقدمين ومحدثين رجحوا هذا القول، فمن الأقدمين الإمام الزمخشري[2]، حيث قال في الكشاف: وأكثر المفسرين على أن الفاتحة أول

---

(١) الإتقان (١/ ٩٥).

(٢) الكشاف، ٤/ ٢٢٣.

ما نزل، وليس الأمر كما قال رحمه الله، بل الجمهور على أن أول ما نزل الآيات الخمس من سورة العلق.

وأما من المحدثين، فالإمام محمد عبده – رحمه الله – حيث قال: «إن السنّة الإلهية في هذا الكون – سواء كان كون إيجاد أو كون تشريع – أن يظهر سبحانه وتعالى الشيء مجملاً ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجياً، وما مثل الهدايات الإلهية إلا مثل البذرة والشجرة العظيمة، فهي في بدايتها مادة حياة تحتوي على جميع أصولها ثم تنمو بالتدريج حتى تبسق فروعها بعد أن تعظم دوحتها ثم تجود بثمرها. والفاتحة مشتملة على مجمل ما في القرآن، فتبين من مجموع ما تقدم أن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً على الأصول التي يفصلها القرآن تفصيلاً، فكان إنزالها موافقاً لسنّة الله تعالى في الإبداع»[١].

ولكن مع وجاهة ما ذهب إليه هذا الإمام من حيث الدليل العقلي، فإن ذلك يمكن أن يقبل إذا لم يتعارض مع النص الصريح، وحديث السيدة عائشة في صحيح البخاري، لا ينبغي أن يقدم عليه قول.

بقي القول بأن سورة المدثر هي أول ما نزل، وإذا كان القولان السابقان غير صحيحين، فإن هذا القول، قد روي في صحيح الإمام البخاري عن جابر ابن عبدالله رضي الله عنهما، فهو من حيث الصحة يشبه ما روي عن السيدة عائشة، إذ كلاهما في صحيح البخاري؛ لذا حاول الأئمة الجمع بينهما، فقال بعضهم: إن المدثر أول سورة نزلت بتمامها.

وقال بعضهم: إنها أول سورة نزلت بسبب، كما سنعرف هذا من الروايات التي سنذكرها فيما بعد.

---

(١) المنار، ١/ ٣٥، ٣٨.

وقال قوم: إنها أول سورة نزلت تأمر بالإنذار، فسورة (اقرأ) جاءت لإثبات نبوته ﷺ وسورة المدثر كانت في إثبات رسالته عليه وآله الصلاة والسلام؛ لأن فيها (قم فأنذر). وقال آخرون: إنها أول سورة نزلت بعد فترة الوحي.

وكل هذه الأقوال حري بها أن تناقش، فمنها ما لا يصح، ومنها ما هو متكلف. فالقول بأنها أول سورة نزلت بتمامها قول غير صحيح نقلاً وعقلاً، أما من حيث النقل؛ فالثابت في صحيح الإمام البخاري أن الذي نزل من المدثر إلى قوله سبحانه: ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ [المدثر:٥].

وأما من حيث العقل؛ فلأن السورة الكريمة تحدثنا عن تلك المرحلة التي احتدم فيها الجدل بين الحق والباطل، وتلك المعارضة الشرسة التي حمل لواءها أولئك الكفار الخصمون الألداء، وما كان من وعيد وتهديد، وسوء عاقبة ينتظرهم، نقرأ هذا في قوله سبحانه: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالاً مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ﴾ [المدثر:١١-٣١] ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر:٣٨]، كل هذا لا يعقل أن تكون نزلت في أول الدعوة، قبل أن يدعوهم النبي ﷺ إلى دين الله، القول – إذن – بأنها أول سورة تامة نزلت قول غير صحيح.

أما بقية الأقوال، فنلمح فيها التكلف، على أننا لا نجد أي سبب يضطرنا إلى مثل هذه الأقوال، فنحن إذا تدبرنا الأحاديث المروية سهل علينا أن نجمع بين الروايتين جمعاً يزيل التعارض والتناقض ففي صحيح البخاري روايتان:

«عن يحيى بن أبي كثير: سألت أبا سلمة بن عبدالرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴾ قلت: يقولون ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ فقال أبو سلمة: سألت جابراً بن عبدالله رضي الله عنهما عن ذلك وقلت له مثل الذي قلتَ، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا به رسول الله ﷺ ، قال: «جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت، فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أرَ شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أرَ شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً. فرفعت رأسي فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة فقلت: دثروني وصبُّوا عليّ ماءً بارداً. قال: فدثروني وصبوا عليّ ماءً بارداً، قال: فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾ »[1].

أما الرواية الثانية: أخبرنا أبو سلمة بن عبدالرحمن أن جابر بن عبدالله الأنصاري قال وهو يُحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذ الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرُعبت منه، فرجعت فقلت: زمّلوني، فأنزل الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾ إلى قوله ﴿ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴾ فحمى الوحي وتتابع[2].

---

(١) فتح الباري، ١٠/ ٣٠٣، ٣٠٤، حديث رقم (٤٩٢٢).

(٢) الفتح ١/ ٣١، رقم الحديث (٤)، وقد قال الحافظ هنا: دل قوله: «عن فترة الوحي» وقوله: «الملك الذي جاءني بحراء» على تأخر سورة «المدثر» عن «اقرأ» ولما خلت رواية يحيى بن أبي كثير الآتية في التفسير [برقم (٤٩٢٢) أي: الرواية الأولى] عن أبي سلمة عن جابر عن هاتين=

والمتدبر لهاتين الروايتين يحمل إحداهما على الأخرى، فالرواية الثانية، تبين لنا صراحة أن جابر بن عبدالله – رضي الله عنهما – كان يتحدث عن فترة الوحي، ومعنى هذا أن سورة (اقرأ) هي أول سورة نزلت، ثم فتر الوحي بعدها، وبعد الفترة نزلت أوائل سورة المدثر، فلا إشكال. وعلى هذا فلا تعارض بين الروايتين، رواية جابر وعائشة، والقول بأن جابراً قال اجتهاداً قول مردود.

علماً أن ما قاله الحافظ ابن حجر – رحمه الله – يزيل هذا الإشكال أحد أمرين: قال رحمه الله «إما أن يكون سقط على يحيى بن أبي كثير وشيخه من القصة مجيء جبريل بحراء باقرأ باسم ربك وسائر ما ذكرته عائشة، وإما أن يكون جاور ﷺ بحراء شهراً آخر، فقد تقدّم أن في مرسل عبيد بن عمير عند البيهقي أنه كان يجاور في كل سنة شهراً وهو في رمضان وكان ذلك في مدة فترة الوحي، فعاد إليه جبريل بعد انقضاء جواره»[1] .

وقبل أن أغادر هذا الموضوع أود أن أنبه على أن هناك أقوالاً في أول ما نزل لم يذكرها العلماء لعدم ذكر السيوطي لها، ومن هذه الأقوال:

أن أول ما نزل سورة المزمل، فهي وسورة المدثر متشابهتان في مطلعيهما، حتى إن القارئ لكتاب الظلال للأستاذ سيد قطب – رحمه الله تعالى – يفهم من كلامه التردد في أي السورتين نزلت أولاً، لولا الروايات الصحيحة التي تثبت أسبقية نزول سورة المدثر.

= الجملتين – يعني قوله: «وهو يحدث عن فترة الوحي» وقوله: «الملك الذي جاءني بحراء» – أشكل الأمر، فجزم من جزم بأن المدثر أول ما نزل ورواية الزهري – أي الرواية الثانية – هذه هي الصحيحة، ترفع هذه الإشكال.

(١) الفتح (١٠/ ٣٠٥).

وهناك قول لمجاهد أن أول ما نزل سورة (ن). قال ابن حجر – رحمه الله – «وفي أول سورة نزلت قول آخر عن عطاء الخراساني قال: المزمل نزلت قبل المدثر، وعطاء متكلم فيه، وروايته معضلة لأنه لم يثبت لقاؤه لصحابي معين.

وظاهر الأحاديث الصحيحة تأخر المزمل، لأن فيها ذكر قيام الليل، وغير ذلك مما تراخى عن ابتداء نزول الوحي بخلاف المدثر فإن فيها ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾، وعن مجاهد: أول سورة نزلت ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ ﴾ [القلم:١] وأول سورة نزلت بعد الهجرة ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [المطففين:١][١].

وعلى هذا نخلص من هذا كله، إلى أن أول ما نزل على الإطلاق هو الآيات الأولى من سورة اقرأ.

آخر ما نزل من الآيات:

بعد أن تحدثنا عن أول ما نزل من القرآن الكريم، وعرضنا الأقوال ورجحنا ما يستحق الترجيح نعرض – إن شاء الله – لآخر ما نزل.

وينبغي أن أنبه القارئ الكريم أولاً، على أن الكلام في أول ما نزل يختلف عن الكلام في آخر ما نزل؛ من حيث إن الأول حديث عن أول لقاء جبريل عليه السلام سيدنا رسول الله ﷺ، وهذا أمر يحتاج إلى أحاديث صحيحة مرفوعة إلى الرسول الكريم عليه وآله أفضل الصلاة والتسليم، وليس آخر ما نزل كذلك؛ لذا كثرت فيه الروايات والأقوال، ومع هذه الكثرة لا نجد رواية مرفوعة إلى الرسول الكريم بخلاف أول ما نزل، فالروايات المعتبرة التي نوقشت وهي رواية السيدة عائشة ورواية جابر بن عبدالله رضي الله عنهم جميعاً، وكلتاهما مرفوعة

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٣٠٥).

إلى النبي ﷺ . أما آخر ما نزل، فمن الطبيعي أن لا تكون فيه رواية عن الرسول ﷺ يقول فيها: آخر ما نزل عليّ كذا، أو ما في معناها.

وقبل أن نستعرض الأقوال يجدر بنا أن نشير إلى ما اشتهر من أن آخر ما نزل هو قوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] حيث ظن كثير من الناس بأن هذا كان آخر عهد النبي بوحي السماء، ومن المقطوع به أن هذا الجزء من الآية الكريمة نزل في حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة، وعاش النبي ﷺ بعد نزولها مدة ثلاثة أشهر، ومن المقطوع به كذلك أن هناك آيات نزلت بعدها؛ لذا ذهب بعض العلماء على أنها آخر آية نزلت في الأحكام ولا ينافي أن ينزل بعدها آيات في الوعظ والتذكير، وهذا القول وإن كان مقبولاً بادئ بدء، فإنه عند التأمل حري بالمناقشة، فالثابت أنه قد نزل بعد هذه الآية الكريمة آيات في الأحكام، كما ستعرف نبأه قريباً إن شاء الله.

ولقد أجاب شيخ المفسرين ابن جرير الطبري في تفسيره الفذ إجابة شافية كافية، قال رحمه الله: «اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ اليوم أكملت لكم أيها المؤمنون فرائضي عليكم وحدودي وأمري إياكم ونهيي، وحلالي وحرامي وتنزيلي من ذلك ما أنزلت منه في كتابي وتبياني ما بيّنت لكم منه بوحيي على لسان رسولي والأدلة التي نصبتها لكم على جميع ما بكم الحاجة إليه من أمر دينكم، فأتممت لكم جميع ذلك فلا زيادة فيه بعد هذا اليوم، قالوا: وكان ذلك في يوم عرفة عام حج النبي ﷺ حجة الوداع، وقالوا: لم ينزل على النبي ﷺ بعد هذه الآية شيء من الفرائض ولا تحليل شيء ولا تحريمه، وأن النبي ﷺ لم يعش بعد نزول هذه

الآية إلا إحدى وثمانين ليلة.. وقال آخرون: معنى ذلك اليوم: اليوم أكملت لكم دينكم: حجكم فأفردتم بالبلد الحرام تحجونه أنتم أيها المؤمنون دون المشركين، لا يخالطكم في حجكم مشرك.. وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله عز وجل أخبر نبيه ﷺ والمؤمنين به أنه أكمل لهم يوم أنزل هذه الآية على نبيه دينهم بإفرادهم بالبلد الحرام وإجلائه عنه المشركين حتى حجه المسلمون دونهم، لا يخالطهم المشركون، فأما الفرائض والأحكام فإنه قد اختلف فيها، هل كانت أكملت ذلك اليوم أم لا.. وروي عن البراء بن عازب أن آخر آية نزلت من القرآن ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾ [النساء:١٧٦][(١)].

ولا يدفع ذو علم أن الوحي لم ينقطع عن رسول الله ﷺ إلى أن قبض، بل كان الوحي قبل وفاته أكثر ما كان تتابعاً؛ فإذا كان ذلك كذلك، وكان قوله: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾ آخرها نزولاً، وكان ذلك من الأحكام والفرائض، كان معلوماً أن معنى قوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ على خلاف الوجه الذي تأوله من تأوله، أعني كمال العبادات والأحكام والفرائض، فإن قال قائل: فما جعل قول من قال: قد نزل بعد ذلك فرض، أولى من قول من قال: لم ينزل، قيل: لأن الذي قال: لم ينزل لجد أنه لا يعلم نزول فرض، والنفي لا يكون شهادة، والشهادة قول من قال: نزل، وغير جائز دفع خبر الصادق فيما أمكن أن يكون فيه صادقاً[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب «يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة» رقم الباب (١٠٧)، حديث رقم ٤٣٢٩.

(٢) تفسير الطبري، (٦/ ٥٢).

وما قاله الإمام الطبري رحمه الله جدير بالرضا حريّ بالقبول، وستتحدث الآن إن شاء الله عن الروايات التي وردت في آخر ما نزل من حيث الآيات أولاً ومن حيث السور ثانياً. وهذه الروايات كما قلت من قبل ليس فيها رواية مرفوعة إلى رسول الله سيدنا محمد ﷺ بل كلها موقوفة على الصحابة رضي الله عنهم.

أولاً: آخر آية نزلت آية الربا وقوله سبحانه: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٨١]:

اعلموا أرشدكم الله وإياي أن آيات الربا في آخر سورة البقرة ابتدأت بقوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ [البقرة:٢٧٥].

واختتمت بقوله سبحانه: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٧٩] وبعد هذه الآية قوله سبحانه: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٨١] فالآية الأخيرة ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ متصلة اتصالاً تاماً بآية الربا. لذا جعلهما بعض العلماء قولين وكلاهما مروي عن الحبر رضي الله عنهما (ابن عباس)، والأولى أن يكونا قولاً واحداً، وهذا ما ذهب إليه الإمام العظيم البخاري ﷺ ، حيث قال مترجماً في صحيحه باب ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾. وذكر بالإسناد إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: «آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير (سورة البقرة) باب «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله» رقم ٥٥، رقم الحديث (٤٢٧٠).

فذكر في الترجمة آية وفي الإسناد آية أخرى، وهذا إنما يدل على فقهه وعلمه ﷺ . قال الحافظ ابن حجر: «ولعله أراد أن يجمع بين قولي ابن عباس، فإنه جاء عنه ذلك في هذا الوجه، وجاء عنه من وجه آخر «آخر آية نزلت على النبي ﷺ ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أخرجه الطبري من طرق عنه.

ومن هنا يتبين لنا أن هذين القولين المرويين عن ابن عباس رضي الله عنهما حريّ أن يكونا قولاً واحداً لأن الآية الأخيرة متصلة بآيات الربا، وهي تذكر الرجوع إلى الله وتوفية كل نفس ما كسبت وهذا مناسب أن يختم به الوحي.

ثانياً: آخر آية نزلت: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾ [النساء:١٧٦] وقد روي هذا عن البراء بن عازب ﷺ قال البخاري ﷺ باب «يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة...» إلى آخر الآية.

وذكر بسنده إلى البراء بن عازب ﷺ قال: «آخر سورة نزلت براءة، وآخر آية نزلت: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾».

ثالثاً: آخر آية نزلت قوله سبحانه: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ [النساء:٩٣].

وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو في صحيح الإمام البخاري كذلك «قال في إسناده عن سعيد بن جبير ﷺ قال: آية اختلف فيها أهل الكوفة فرجعت فيها إلى ابن عباس فسألته عنها فقال: نزلت هذه الآية ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ [النساء:٩٣] هي آخر ما نزل وما نسخها شيء» وهذه الروايات الثلاث كما نرى كلها في صحيح البخاري.

رابعاً: آخر آية نزلت ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨].

وهذه الرواية عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب ﷺ، وهي في المستدرك للحاكم[1].

خامساً: آخر آية نزلت ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران:١٩٥] وهذه الرواية جاءت عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها وقد عزاها السيوطي إلى ابن مردويه.

مناقشة هذه الروايات :

بادئ بدء نبين أن أضعف هذه الروايات وأولاها بالرد هي الرواية الأخيرة وذلك للأمور التالية:

١- إن هذه الآية الكريمة جاءت في ضمن العشر آيات من أواخر سورة آل عمران، والثابت أن النبي ﷺ كان يقرؤها عند قيامه من نومه قبل أن يبتدئ صلاة الليل كما جاء في الأحاديث الصحيحة، فلا يعقل أن تكون هذه آخر آية نزلت لأنها من ضمن الآيات العشر.

٢- إن الرواية عن أم سلمة رضي الله عنها ذكر فيها أكثر من آية حيث جاء في الحديث أنها قالت: يا رسول الله إني أرى الله يذكر الرجال ولا يذكر النساء فنزلت هذه الآية ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ... ﴾ [آل عمران:١٩٥] وفي رواية ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾ [الأحزاب:٣٥] وفي رواية ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا

---

(١) المستدرك (٢/ ٣٣٨) وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ [النحل:٩٧] وسنتحدث عن هذه الرواية إن شاء الله بشيء من البسط عند حديثنا عن أسباب النزول.

٣- إن سورة آل عمران نزلت مبكرة كما نعلم حيث تحدثت في آيات كثيرة منها عن غزوة أحد.

٤- إن المصدر الذي ذكر فيه هذه الرواية من المصادر التي يكثر أصحابها رحمهم الله ذكر الأحاديث الضعيفة.

٥- إنها تعارض الروايات الصحيحة، من أجل ذلك كله كانت هذه الرواية حرية بالرد.

أما الرواية التي قبلها وهي رواية المستدرك عن ابن عباس عن أبيّ رضي الله عنهم ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ [التوبة:١٢٨]، فهي مخالفة لما جاء عن ابن عباس في صحيح البخاري وقد أخذ بها جمهور العلماء.

ثم إن هاتين الآيتين آخر سورة التوبة - كما جاء عن زيد ﷺ وهو يجمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر وقد وجدهما مع أبي خزيمة - ، وقد كان زيد ﷺ يحفظهما ويقول إنه كان يسمعهما من رسول الله ﷺ ، ثم إن رواية المستدرك إذا تعارضت مع ما جاء في صحيح البخاري تقدم عليها رواية البخاري.

وإذا كانت هاتان الروايتان - الرابعة والخامسة - ليستا في صحيح البخاري فكيف الحال مع الروايات الثلاث الباقية وكلها في صحيح الإمام البخاري؛ فنقول وبالله التوفيق.

أما الرواية الثالثة التي وردت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم وهي أن آخر آية نزلت قوله سبحانه: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ [النساء:٩٣] فالأمر فيها سهل إن شاء الله، وذلك أن الذي يتدبر الرواية

يدرك قصد ابن عباس رضي الله عنهما. حيث جاء عن ابن عباس «وهي آخر ما نزل وما نسخها شيء. فقول الحبر رضي الله عنهما نفهم منه أنها ثابتة الحكم لم تنسخ ولا يفهم منه أنها آخر آية في القرآن الكريم؛ لأن سياق الحديث يوجب هذا الفهم. هذا الذي نفهمه من كلام بن عباس رضي الله عنهما.

ويدل لهذا ما ورد عنه في الرواية الأولى، أن آخر الآيات نزولاً آية الربا وهذا القول عن ابن عباس كان قولاً عاماً ليس له سياق معين كما هو الشأن في سياق آية النساء ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ [النساء:٩٣].

أما حديث البراء بن عازب عن آخر ما نزل فقد كان ذا شقين عن آخر سورة وعن آخر آية وسنترك الحديث عن الشق الأول إلى حين.

فأقول وبالله التوفيق: لقد روي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أكثر من رواية تدل على أنه كان هو السبب في نزول هذه الآية، فبعض هذه الروايات جاء فيها أن ذلك السؤال كان في مرضه ﷺ وبعضها الآخر جاء فيها: إن ذلك كان في طريقه ﷺ إلى مكة في حجة الوداع، وأياً ما كان الأمر فإن آية الكلالة قد تكون من آخر ما نزل وليس آخر ما نزل، ونستأنس بل نستدل لهذا بما جاء عن سيدنا عمر ﷺ . وقد كان يكثر من سؤال النبي ﷺ عن الكلالة.. وكان النبي ﷺ يقول له: «تكفيك آية الصيف» .

وبعد هذا التطواف الطيب الذي انتشر عبقه وأضاء أفقه مع تلك الأحاديث الطيبة لا يسعنا إلا أن نقرر ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ [النحل:١٠١] أصح الأقوال في آخر آية نزلت هو الذي فيه آية الربا وما بعدها من قوله سبحانه ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٨١] .

الفصل الثامن

جمع القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظ القرآن الكريم، وهيأ لذلك الوسائل الكفيلة بحفظه، وقيض الله لهذه الأمة من يقوم بحفظ هذا الكتاب الخالد.

ولقد مر جمع القرآن الكريم وحفظه بمراحل تجلت فيها العناية التامة بحفظه نصاً، وضبطه لفظاً وأداء، وسنحدثك في هذا الفصل عما يلي:

أولاً: معنى الجمع.

ثانياً: جمع القرآن الكريم في عهد الرسول ﷺ .

ثالثاً: جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

رابعاً: جمع الناس على مصحف واحد في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه .

معنى الجمع :

الجمع في اللغة: الاستقصاء والإحاطة بالشيء، نقول: جمع فلان علم كذا إذا استوعبه وأحاط بمسائله، ويكون هذا بطريقتين هما الحفظ والكتابة.

فمن الأول قول عبدالله بن عمرو: «جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة» أي: حفظت القرآن، ومن الثاني قول أبي بكر لزيد بن ثابت رضي الله عنهما «تتبع القرآن فاجمعه، أي: اكتبه كله» .

جمع القرآن في عهد الرسول ﷺ:

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم على سيدنا محمد ﷺ منجماً في ثلاث وعشرين سنة، وقد كان النبي ﷺ يعجل بالقرآن حين يتلوه عليه جبريل عليه السلام خشية أن يفوته شيء، فأنزل الله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة:١٦-١٩]، فكان في ذلك طمأنينة للنبي ﷺ أن لن يفوته شيء من القرآن.

والجمع في عهد الرسول ﷺ تضمن الطريقين السابقين وهما الحفظ في الصدور، والكتابة في السطور.

جمعه بمعنى حفظه في الصدور:

لقد كان في هذا العهد عوامل كثيرة ساعدت على تلاوة القرآن الكريم وحفظه وتعليمه للآخرين، ومن هذه العوامل ما يرجع إلى العرب أنفسهم، ومنها ما يرجع إلى الرسول ﷺ خاصة، ومنها ما يرجع إلى الصحابة رضوان الله عليهم، ومنها ما يشترك فيه الرسول ﷺ والصحابة معاً. فمن العوامل التي ترجع إلى ظروف العرب:

١- بيئتهم الطبيعية وما فيها من سماء صافية، وشمس مشرقة، فقد أدى هذا إلى نشاط أذهانهم وصفاء قرائحهم، فكان تهيؤهم للحفظ أقوى واستعدادهم له أكمل.

٢- بُعدهم عن الترف، واقتناعهم بضروريات الحياة فقط، وبُعدهم عن مشاغل الدنيا.

٣- الخصائص البلاغية والمزايا البيانية المتوافرة في كتاب الله تعالى والتي بلغت حداً لم يستطعه العرب، فهذا جعلهم يقبلون على القرآن ويكثرون من قراءته.

ومن العوامل الخاصة بالرسول ﷺ : تلقيه الوحي عن جبريل ﵇ ، مع أن الله تعالى ضمن له جمع القرآن في صدره، ومنها إملاؤه القرآن على كُتّاب الوحي، فإن في حفظ الشيء ثم إملائه على الآخرين تثبيت له في الصدر، ومنها معارضة جبريل ﵇ له بالقرآن في شهر رمضان من كل عام مرة وفي العام الأخير عارضه إياه مرتين.

وهناك عوامل أخرى كثيرة منها:

١- أمية الصحابة، حيث لم يكن لهم وسيلة للمعرفة سوى الرجوع إلى القرآن الكريم عن طريق الرسول ﷺ ومن ثم حفظه.

٢- ما أعده الله من أجر لقارئ القرآن في الدنيا كما قال ﷺ : «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»[(١)].

٣- مفاضلة الرسول ﷺ بينهم بالقرآن الكريم، فيقدم دائماً الأحفظ للقرآن في أمور كثيرة: كالإمامة وغيرها، حتى في اللحد كما ثبت في خبر شهداء أحد، كما قال: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله»[(٢)].

٤- ما في تلاوته من طمأنينة للقلوب، وتزكية للنفوس، وسمو للأرواح، كيف لا؟ وتالي القرآن الكريم يتلوه موقناً أن الله تبارك وتعالى يناجيه، ولأن هذه الآيات القرآنية ما هي إلا رسائل ربانية يتلقاها التالون لكتاب الله.

٥- ما أودعه الله في هذا القرآن ومازه به من غيره من خصيصة التيسير لقارئه، ولمن أراد حفظه، وهذه ميزة للقرآن لا تفارقه ولا تزول عنه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وخير دليل التاريخ والواقع، فقد حدث التاريخ وشهد

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٨٠٤).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٤٦٥) كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب رقم ٥٣.

الواقع أنه لا ينقطع عصر، ولا يخلو مصر من الجمّ الغفير والجموع الكثيرة التي تحفظ كتاب الله، حتى أولئك الذين لم يبلغوا الحلم، وصدق الله ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ [القمر:١٧].

٦- ما روي من الوعيد الشديد لمن حفظ شيئاً من القرآن ثم نسيه[(١)]، ومن هنا وجدنا الصحابة رضوان الله عليهم يقبلون على حفظ القرآن الكريم، ولقد اشتهر من الحفاظ: الخلفاء الأربعة، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وعبدالله بن مسعود، وحذيفة، وسالم مولى أبي حذيفة، وابن عباس وغيرهم.

روى البخاري أن النبي ﷺ قال: «خذوا القرآن من أربعة: من عبدالله بن مسعود وسالم ومعاذ وأبي بن كعب»[(٢)].

جمع القرآن بمعنى كتابته في عهد الرسول ﷺ:

كان القرآن الكريم ينزل على الرسول ﷺ شيئاً فشيئاً، وكان كلما نزل منه شيء أمر الرسول ﷺ كتاب الوحي بكتابته، روي عن عثمان بن عفان قال: «كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان ينزل عليه من السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول: ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا»[(٣)].

---

(١) البيان في مباحث من علوم القرآن، عبدالوهاب عبدالمجيد غزلان، ص١٤٦.

(٢) صحيح البخاري (٤/ ١٩١٢)، وانظر فتح الباري لابن حجر العسقلاني (١٠/ ٤٢٢)، وقد وردت روايات أخرى ذكرت أسماء صحابة آخرين.

(٣) سنن الترمذي (٨/ ٢٤٠)، تحفة الأحوذي (٨/ ٤٧٨).

وقد عنى الصحابة رضوان الله عليهم بكتابة القرآن، فقد وجه النبي ﷺ هممهم نحو كتابة القرآن، ونهاهم أن يكتبوا شيئاً غيره حتى السنّة قال: «لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه»[1].

وقد علل كثير من العلماء نهي النبي ﷺ الصحابة أن يكتبوا شيئاً من الحديث بأن مبعثه خشية اختلاط الحديث بالقرآن، وهذا التعليل غير مسلَّم، لأن أسلوب القرآن الكريم أسلوب فريد يمتاز عن أسلوب البشر، والصحابة كانوا من العرب الخلص الذين يستطيعون تمييز كلام الله من كلام غيره، لذا فإننا نرى أن هذا النهي إنما كان من أجل أن يُخص القرآن الكريم بالعناية من الصحابة، ولا يشغلهم أي شيء عنه.

وقد كانت عناية الصحابة كذلك بكتابة القرآن الكريم مرتب الآيات، وهذا بتوقيف من الرسول ﷺ كما ورد في الحديث السابق، وهذا الترتيب لم يكن حسب نزول الآيات.

وسبب كتابة القرآن في عهد الرسول ﷺ هو المحافظة على النص القرآني من أن يطرأ عليه شيء من التغيير، إذ إنه لا تحل روايته بالمعنى، لأن القرآن الكريم معجز بنظمه متعبد بتلاوته، فكان لابد من الاحتياط في ضبط ألفاظه وصيانته، وهذا لا يتحقق بالحفظ وحده، بل لابد من الكتابة كذلك.

وقد ذكر الإمام ابن كثير في البداية والنهاية[2] أسماء كتاب الوحي بين يدي النبي ﷺ ومن هؤلاء الكُتّاب:

١- الخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٨-٢٢٩٩).

(٢) البداية والنهاية، (٣/ ١١١).

٢- الأرقم بن أبي الأرقم.

٣- حنظلة بن الربيع بن رياح بن الحارث.

٤- خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس.

٥- خالد بن الوليد بن عبدالله بن عمر بن مخزوم أبو سليمان المخزومي.

٦- الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد.

٧- عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق.

٨- عبدالله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري أخو عثمان لأمه من الرضاعة أرضعته أم عثمان، وكتب الوحي ثم ارتد عن الإسلام، ولحق بالمشركين بمكة، فلما فتحها رسول الله ﷺ ، وكان قد أهدر دمه فيمن أهدر من الدماء فجاء إلى عثمان بن عفان فاستأمن له فأمنه رسول الله ﷺ ، ثم حَسُنَ إسلام عبدالله بن سعد.

٩- العلاء بن الحضرمي.

١٠- العلاء بن عقبة.

١١- معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية الأموي.

١٢- المغيرة بن شعبة الثقفي، وهؤلاء كلهم من أهل مكة المكرمة.

إضافة إلى ذلك أنه لا يعقل أن يترك القرآن الذي نزل في مكة المكرمة دون كتابة، حيث إن القرآن المكي يمثل ثلثي القرآن الكريم، أي ما يعادل أكثر من ثمانين سورة.

ومن الكتبة في العهد المدني أبيّ بن كعب وزيد بن ثابت.

ومن هنا نستطيع أن نقرر مطمئنين أن القرآن الكريم كله من فاتحة الكتاب إلى سورة الناس كُتب في عهد الرسول ﷺ .

أما الأدوات التي كان يكتب عليها الوحي في ذلك الوقت فهي:

١- **العسب**: جمع عسيب وهي الجريدة من النخل، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض[١].

٢- **اللخاف**: مفردها لخفة وهي الحجارة الدقاق، صفائح الحجارة[٢].

٣- **الأكتاف**: جمع كتف، وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان من الناس والدواب[٣]، قال السيوطي: هو العظم الذي للبعير أو الشاة[٤].

٤- **الجريد**: هي التي يجرد عنها الخوص ولا يسمى جريداً ما دام عليه الخوض وإنما يسمى سعفاً، والجريد سعفة طويلة رطبة أو يابسة أو التي تقشر من خوصها[٥].

٥- **الأقتاب**: الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه[٦].

٦- **الرقاع**: جمع رقعة وقد تكون من ورق أو غيره[٧].

٧- **الصحف**: جمع صحيفة وهي قطعة من جلد أو قرطاس يكتب فيه.

٨- **الألواح**: مفرد لوح وهو الكتف وكل عريض، واللوح الذي يكتب فيه، هو كل صفيحة عريضة خشباً أو عظماً[٨].

٩- **الظرر**: حجر له حد كحد السكين والجمع ظرار[٩].

---

(١) الصحاح للجوهري (١/ ١٨١).

(٢) الصحاح للجوهري (٤/ ١٤٢٦).

(٣) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، (٤/ ١٥٠).

(٤) الإتقان، (١/ ٥٨).

(٥) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير (٤/ ١٠).

(٦) الصحاح (٢/ ١٤٥٥)، القاموس المحيط (١/ ٢٨٢).

(٧) الإتقان (١/ ٥٨).

(٨) الصحاح (١/ ٤٠٢)، القاموس المحيط (١/ ٢٤٧).

(٩) الصحاح (٢/ ٧٢٩).

١٠- الخزف: والخزف الفخار وهو الطين المشوي[١].

١١- الكرانيف: الكرناف أصول الكرب، التي تبقى في جذع النخلة بعد قطع السعف، وما قطع من السعف فهو الكرب الواحدة كرنافة[٢].

لماذا لم يجمع القرآن في عهد الرسول ﷺ:

مع أن القرآن الكريم كُتب كله في عهد الرسول ﷺ ، إلا أنه لم يُجمع في مصحف واحد، ولعل سبب ذلك:

١- أن القرآن الكريم كان ينزل شيئاً فشيئاً، وهذا يجعل كتابته في مصحف واحد أمراً غير متيسر.

٢- أن الآيات القرآنية كانت تنزل من السور الكبيرة المختلفة على حسب الدواعي بلا ترتيب ثم يعلم ترتيبها، فلو كتب كل شيء عقب نزوله في المصحف، لكان لابد من إعادة كتابته مرة أخرى كلما نزلت آية وفي هذا ما فيه من المشقة[٣].

وقد اتخذت الكتابة في عهد الرسول ﷺ نمطين اثنين، الأول: الكتابة الرسمية، وهي التي كان يكتبها كُتّاب الوحي بين يدي الرسول ﷺ ، والذي كانوا يكتبونه كان يوضع في حجرات النبي ﷺ عند أزواجه، وقد تكون من بعض كتبة الوحي، والثاني: الكتابة الخاصة التي كان يكتبها بعض الصحابة لأنفسهم.

---

(١) لسان العرب (٩/ ٦٦).

(٢) الصحاح (٤/ ١٤٢٠).

(٣) وقد ادعي أن من أسباب عدم جمعه في عهده ﷺ. نسخ تلاوة بعض الآيات، لكنني لا أتفق مع هذا القائل، وسيأتيك هذا مفصلاً إن شاء الله في مبحث النسخ.

وقد كان جبريل يأتي الرسول ﷺ فيعرض عليه القرآن مرة في شهر رمضان من كل عام، وفي العام الأخير من حياته ﷺ عرضه جبريل عليه عرضتين[1].

روى البخاري بسنده عن فاطمة رضي الله عنها «أسرّ إليّ النبي ﷺ أن جبريل يعارضني بالقرآن كل سنة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي»[2]، وهذا العرض لم يكن في المدينة المنورة فحسب بل في مكة كذلك.

ولم ينتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا وقد كان القرآن كله محفوظاً في الصدور مكتوباً في السطور.

جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، تولى أبو بكر الصديق الخلافة، وكان مما حدث في زمانه حروب طاحنة قامت بينه وبين المرتدين، ومن هذه الحروب وقعة اليمامة، التي استشهد فيها أكثر من سبعين من قراء القرآن الكريم من الصحابة[3] فراع ذلك عمر بن الخطاب وأشار على أبي بكر بجمع القرآن الكريم خشية ضياعه.

أخرج البخاري عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: «أرسل إليّ أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه ، إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى إن استمر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع

---

(١) البيان في مباحث من علوم القرآن، ص١٩٠-١٩١.

(٢) صحيح البخاري (٤/ ١٩١١).

(٣) ذكر القرطبي أن استشهد أكثر من سبعمائة من القراء في هذه الوقعة [تفسير القرطبي، (١/ ٥٠)].

القرآن، قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ، قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر، قال زيد، قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه.

فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن.

قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ، قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ [التوبة:١٢٨] حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله. ثم عند عمر رضي الله عنه حياته، ثم عند حفصة رضي الله عنها»[١].

وجاء في رواية أخرى عند البخاري، أن الآية التي فقدت من سورة الأحزاب، فعن زيد بن ثابت قال: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف، قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب:٢٣]، فألحقناها في سورتها في المصحف[٢].

---

(١) صحيح البخاري (٤/ ١٩٠٧).

(٢) صحيح البخاري (٤/ ١٩٠٨)، ومسند الإمام أحمد (٥/ ١٨٨).

وهذان الحديثان عند الإمام البخاري أساس في جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر، وفيهما علم جم.

أولاً: علمنا من قبل أن القرآن كان مكتوباً في عهد النبي ﷺ ، لكنه لم يكن مجموعاً في مصحف واحد، أو في مكان واحد.

ثانياً: لقد كان عمر ﷺ ذا حصافة وإحساس مرهف بعيد النظرة صائب الفكر عند مجيئه أبا بكر ﷺ .

ثالثاً: لقد كان أبو بكر ﷺ شديد التمسك بسنّة رسول الله ﷺ ، يدل على ذلك هذه المحاورة التي كانت بينه وبين عمر، كيف يفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؛ إن ما كان من هذين الصحابيين، يدل على التربية التي كان رسول الله ﷺ يتعهد بها أصحابه، فحرية التفكير والجرأة بالرأي من أسس هذه التربية. لقد خشي أبو بكر ﷺ أن يفعل ما لم يفعله النبي الكريم ولكن عمر ﷺ رأى أن ذلك العمل، فضلاً على أنه لا يتعارض مع سنّة النبي الكريم فإن الرسول ﷺ ، كان يملي على كُتّاب الوحي ما ينزل عليه، وكان يعلم أن بعض الصحابة كانوا يكتبون لأنفسهم كذلك. أقول إن عمل عمر ﷺ ، فضلاً على أنه لا يتعارض مع سنّة الرسول الكريم فإنه مع ذلك من أعظم أعمال الخير، وأفضل القربات والمنافع.

قال ابن حجر – رحمه الله – «قال الخطابي وغيره: يحتمل أن يكون ﷺ إنما لم يجمع القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته فلما انقضى نزوله بوفاته ﷺ ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك، وفاء لوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة المحمدية زادها الله شرفاً، فكان ابتداء ذلك على يد الصديق ﷺ بمشورة عمر..

قال ابن حجر: وإذا تأمل المنصف ما فعله أبو بكر من ذلك جزم بأنه يعد في فضائله، وينوه بعظيم منقبته لثبوت قوله ﷺ : «من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها» فما جمع القرآن أحد بعده إلا وكان له مثل أجره إلى يوم القيامة، وقد كان لأبي بكر من الاعتناء بقراءة القرآن ما اختار معه أن يرد على ابن الدغنة جواره ويمضي بجوار الله..

ثم قال: قال ابن بطال: إنما نفر أبو بكر أولاً ثم زيد بن ثابت؛ لأنهما لم يجدا رسول الله ﷺ فعله فكرها أن يحلا أنفسهما محل من يزيد احتياطه للدين على احتياط الرسول، فلما نبههما على فائدة ذلك، وأنه خشية أن يتغير الحال في المستقبل إذا لم يجمع القرآن فيصير إلى حالة الخفاء بعد الشهرة رجعا إليه، قال: ودل ذلك على أن فعل الرسول[1] إذا تجرد عن القرائن، وكذا تركه لا يدل على وجوب ولا تحريم»[2].

رابعاً: إن اختيار زيد ﷺ كانت نتيجة حكمة وحصافة، ودليل ذلك هذه الأوصاف التي ذكرها أبو بكر الصديق ﷺ «إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ » : الشباب والقوة حتى لا تفتر عزيمته في أثناء عمله؛ لأنه يحتاج إلى صبر، والعقل والفطنة والأمانة والتقوى حتى لا يقع أي نقص في عمله، ولأنه حضر العرضة الأخيرة.

خامساً: لقد شعر زيد ﷺ بعظم المسؤولية، ولذلك قال كلمته «لو كلفوني نقل جبل...» ولذلك وجدنا زيداً ﷺ لا يقوم وحده بهذه المهمة الشاقة

---

(١) هذا فهم يشكر صاحبه وجزاه الله خيراً، لو أن المسلمين استقر عندهم هذا الفهم، لأراحوا أنفسهم من كثير من الخلافات التي فرقت كلمتهم، وعمقت العداوة والبغضاء، وصرفتهم من الأولويات التي ينبغي أن يجتمعوا عليها.

(٢) فتح الباري، ج١، ص٣٨٦-٣٨٧.

والمسؤولية الصعبة، بل وجدناه يستعين بغيره من الصحابة رضوان الله عليهم. ورد من طريق أبي العالية: أنهم لما جمعوا القرآن في خلافة أبي بكر كان الذي يملي عليهم أبيّ بن كعب، فلما انتهوا من براءة إلى قوله: ﴿ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة:١٢٧]، ظنوا أن هذا آخر ما نزل منها، فقال أبيّ بن كعب: أقرأني رسول الله ﷺ آيتين بعدهن ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ إلى آخر السورة»[1].

بقي شيء واحد في هذا المبحث: تذكر بعض الروايات أن أبا خزيمة، هو الذي جاء بالآيتين من آخر سورة براءة، وبعض الروايات تذكر أنه خزيمة بن ثابت، كما أن هذه الروايات تذكر أنه جاء بآية الأحزاب، وهي قوله سبحانه: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَـٰهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب:٢٣] والحق أنهما حادثتان مختلفتان من صحابيين مختلفين في عهدين مختلفين، فالذي جاء بالآيتين من آخر سورة براءة هو أبو خزيمة الحارث بن خزيمة، وكان ذلك في عهد أبي بكر ﷺ، أما الذي جاء بآية الأحزاب فهو خزيمة بن ثابت ﷺ الذي تعدل شهادته شهادتين.

لكن ذلك لم يكن في عهد أبي بكر ﷺ، وإنما كان في عهد عثمان ﷺ حينما جمع الناس على مصحف واحد يدلنا على ذلك ما أخرجه الإمام البخاري عن زيد بن ثابت أنه قال: لما نسخنا الصحف في المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصاري الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته شهادة رجلين ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَـٰهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب:٢٣][2].

فقوله: نسخنا الصحف من المصاحف يدل على ما ذهبنا إليه، إذ من المعلوم أن النسخ في المصاحف كان على عهد عثمان بن عفان ولم يكن على عهد أبي بكر الصديق.

ومع هذا الحرص من أبي بكر وعمر وزيد والصحابة جميعاً، ومع هذا التحقيق، ومع هذا الإتقان، مع هذا كله فإن بعض المستشرقين ومن رضع لبانهم أبوا إلا أن تكون لهم بعض النفثات من السموم.

يقول الأستاذ عبدالصبور شاهين: وملاحظة انتقالها من أبي بكر إلى حفصة تدلنا على أن هذه الصحف، منذ كتبت، كانت معدودة من الملكية العامة، إذ لو كانت ملكاً خاصاً لأبي بكر لما ورثها غير أبنائه من بعده، وأغلب الظن أنها لم توضع لدى حفصة إلا لتكون رهن تصرف الخليفة الثالث، حين يطلبها، وبخاصة إذا كانت حفصة من أمهات المؤمنين. وهو ما حدث فعلاً.

جمع القرآن الكريم في عهد خلافة عثمان ﷺ :

اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في عهد عثمان بن عفان ﷺ بعد توالي الفتوحات، وكثر الداخلون في الإسلام من العرب وغير العرب، فانتشرت قراءات الصحابة في الأمصار الإسلامية المتعددة، فكان من أهل الأمصار من يقرأ بقراءة ابن مسعود، أو بقراءة أبيّ بن كعب أو غيرهما من كبار قراء الصحابة[(١)].

ومن الواضح أن كثرة الاختلافات تؤدي إلى اضطراب وفتن، ولهذا قام عثمان ﷺ بتوحيد المسلمين على مصحف واحد قطعاً لدابر الفتنة التي بدأت تطلّ برأسها.

---

(١) مناهل العرفان: (١/ ٢٤٨).

روى البخاري في صحيحه عن أنس: «أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفةَ اختلافُهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرِكْ هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردّها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، ردّ عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق»[1].

في ضوء هذا النص يتضح لنا أن حركة عثمان في المصاحف امتداد لحركة أبي بكر، غير أن الجديد في حركة عثمان أنه وحّد المسلمين على هذا المصحف الذي قام بكتابته، وجمع مصاحف الصحابة فأحرقها أو محاها على اختلاف في الرواية على حين أن هذه المصاحف لم تمسّ في عهد أبي بكر.

قد يتساءل متسائل: لَمِ لَمْ يوحّد أبو بكر أو عمر المسلمين على مصحف واحد كما فعل عثمان؟ والجواب على هذا واضح يسير، إذ كانت القراءات المرخص بها تروى في عهد الخليفتين ويُقرأ بها دون أن يُحدث ذلك تنافراً أو اختلافاً، أما في عهد عثمان فلقد وصل الأمر بالمسلمين إلى تخطئة بعضهم بعضاً، فكان توحيد عثمان للمسلمين على مصحف واحد حسماً لذلك الخلاف وقضاءً على تلك الفتنة.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن (٤/ ١٩٠٨).

ولقد امتدح علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه) موقف عثمان في كتابة المصحف، فقال: «يا معشر الناس، اتقوا الله عز وجل، وإياكم والغلو في عثمان، وقولكم: حرّاق المصاحف، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب محمد ﷺ.. ووالله لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان»[(١)].

كما أن عثمان رضي الله عنه لم يكتف بأمر الرهط القرشيين بجمع القرآن، وإنما أشرف على عملهم. ومن الشواهد الدالة على معاونته لهم وإشرافه عليهم في مهمتهم الجليلة:

١- ما رواه البخاري عن عبدالله بن الزبير حيث سأل عثمان بشأن آية البقرة ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا ﴾ [البقرة:٢٣٤] الآية، أيكتبها في المصحف أم لا إذ هي منسوخة الحكم فقال له عثمان: « دعها يا بن أخي لا أغيّر شيئاً من مكانه»[(٢)].

٢- ما أخرجه الإمام أحمد وأصحاب السنن وصححه ابن حبان والحاكم من حديث ابن عباس قال: «قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئتين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطوال...» الحديث[(٣)]. وتوجيه ابن عباس الخطاب لعثمان دليل على مشاركته في تلك المهمة الجليلة.

٣- حينما اختلف الرهط القرشيون في كلمة (التابوت) أيكتبونها (التابوت) بالتاء أم (التابوه) بالهاء رفعوا خلافهم إلى عثمان فقال: اكتبوه (التابوت) فإنه نزل بلسان قريش[(٤)].

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن – مقدمة كتاب المباني: (٤٦)، وانظر تفسير القرطبي: (١/ ٥٤).

(٢) فتح الباري: (٨/ ١٣٩).

(٣) نفسه: (٩/ ٣٥). وسيأتي الكلام وافياً على هذا الحديث إن شاء الله.

(٤) فتح الباري (١٠/ ٤٩٤).

عدة المصاحف العثمانية:

اختلف في عدد المصاحف التي نسخها عثمان رضي الله عنه على أقوال[1]:

١- ذكر الإمام الزركشي أنها أربعة مصاحف بعث بها إلى الكوفة والبصرة والشام وترك واحداً عنده[2].

٢- وذكر أبو حاتم السجستاني أنها سبعة بعث بها إلى مكة، والشام، اليمن، والبحرين، والبصرة، والكوفة، وحبس واحداً في المدينة[3].

٣- وذكر ابن الجزري أنها ثمانية قال: «فكتب منها عدة مصاحف - أي من مصحف حفصة - فوجه بمصحف إلى البصرة، ومصحف إلى الكوفة، ومصحف إلى الشام، وترك مصحفاً بالمدينة، وأمسك لنفسه مصحفاً الذي يقال له الإمام، وجه بمصحف إلى مكة، وبمصحف إلى اليمن، ومصحف إلى البحرين»[4].

والذي نراه أن الذي كتبه عثمان أكثر من أربعة يدل لذلك أولاً رواية البخاري عن أنس المذكورة[5] حيث جاء فيها أن عثمان أرسل إلى كل أفق بمصحف، وثانياً أن الهدف من نسخ المصاحف هو القضاء على الفتنة والاختلاف وهذا لا يتأتى إلا ببعث مصحف إلى كل مصر من الأمصار التي كانت مفتوحة في ذلك الوقت.

وقد أرسل عثمان مع كل مصحف قارئاً يقرئ الناس؛ وذلك لأن المصاحف كانت خالية من النقط والشكل فقد تحتمل الكلمة أكثر من وجه، ولكي لا يقرأ كل كما يريد أرسل قارئاً مع كل مصحف يعلمهم كيفية قراءة القرآن.

---

(١) فتح الباري، (١٠/ ٣٩٥).

(٢) البرهان للزركشي، (١/ ٢٤٠).

(٣) البيان في مباحث في علوم القرآن، عبدالمجيد غزلان، ٢٠٩.

(٤) النشر، (١/ ٧).

(٥) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، (٤/ ١٩٠٨).

رسم المصحف العثماني:

كُتب المصحف العثماني الذي أجمعت عليه الأمة بهجاء خاص وقواعد معينة سميت «بالرسم العثماني» نسبة إلى الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد ظل هذا الرسم سنّة متبعة حتى يومنا هذا، وقد ورد تحريم تغيير شيء من هجائه عن علماء كثيرين[1].

والشيء الوحيد الذي تغيّر في المصاحف هو إحداث النقْط وهو الإعجام. قال الداني: «فأول ما أحدثوا فيه النقط على الياء والتاء، وقالوا: لا بأس به، هو نور له، ثم أحدثوا فيه نقطاً عند منتهى الآي، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم»[2]. أما أول من نقط القرآن الكريم من التابعين فقد اختُلف في تسميته، وقد ذكر أنه أبو الأسود الدؤلي، وأنه فعل ذلك بعد اختلاط العرب بالأعاجم خوفاً من فشوّ اللحن في تلاوة القرآن الكريم[3]. وسيأتي مبحث خاص نتحدث فيه عن رسم المصحف إن شاء الله.

الموازنة بين جمع القرآن الكريم في العهود الثلاثة:

من خلال عرضنا للمراحل التي مرّ بها توثيق نص القرآن الكريم، في العهود الثلاثة: عهد النبي ﷺ ، وعهد خلافة أبي بكر، وعهد خلافة عثمان رضي الله عنهما نخلص إلى المقارنة والموازنة بين جمع القرآن في تلك العهود، ونجملها بالأمور التالية[4]:

١- تجرد الكتابة من النقط والشكل مشترك بين العهود الثلاثة.

---

(١) معجم القراءات: (١/ ٣٩)، وانظر: القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية للدكتور عبدالعال سالم مكرم، ص١٧ وما بعدها.

(٢) المحكم في نقط المصاحف، ٢.

(٣) المصدر نفسه: ٣-٤.

(٤) انظر كتاب البيان في مباحث من علوم القرآن: ٢١١ وما بعدها.

٢- جمع القرآن في مصحف واحد مشترك بين عهد أبي بكر وعهد عثمان رضي الله عنهما.

٣- ترتيب الآيات في سورها مشترك بين العهود الثلاثة.

٤- ترتيب السور مشترك بين العهود الثلاثة.

٥- حمل الناس في كتابة القرآن الكريم وقراءته على حرف واحد مختص بعهد عثمان.

٦- البحث عن الأشياء التي كتب فيها القرآن بين يدي النبي ﷺ ومقابلتها بالمحفوظ عند الصحابة كان في جمع أبي بكر.

٧- تَفَرُّقُ الأشياء المكتوبة وعدم اجتماعها في موضع واحد كان في عهد النبي ﷺ.

٨- الداعي إلى جمع القرآن الكريم في عهد الرسول ﷺ بمعنى تدوينه وكتابته - مع كونه محفوظاً - كمال العناية بالقرآن واتخاذ كل وسيلة ممكنة لحفظه وصيانته من أن يضيع منه شيء أو يغير منه لفظ، والداعي إلى جمعه في عهد أبي بكر جمع الأشياء المتفرقة التي كتب عليها القرآن في مصحف واحد، أما الداعي إلى جمعه في عهد عثمان فالقضاء على الفتنة التي اشتعلت بين المسلمين بسبب قراءة القرآن الكريم على أوجه مختلفة وصيانة القرآن من المراء فيه والكفر به.

* * *

الفصل التاسع
أسباب النزول

تعريف سبب النزول:

سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات أيام وقوعه متضمنة له أو مبينة لحكمه.

ما يؤخذ به التعريف:

ويحسن أن نقف معاً عند هذا التعريف: فقولنا: ما نزلت الآية أو الآيات أيام وقوعه، نفهم منه أن أحداث أسباب النزول هي ما كانت في عهد سيدنا رسول الله ﷺ، أما الأحداث التي كانت قبل بعثة النبي ﷺ، أو تلك التي ستكون بعد عهد النبوة فلا تعد من أسباب النزول، فلقد حدثنا القرآن الكريم عن أصحاب الفيل، وأصحاب الكهف، وعن أصحاب مدين، وعن أصحاب القرية التي جاءها المرسلون ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ... ﴾ [يس:١٣] فهذه الأحداث وغيرها التي نزلت فيها آي القرآن الكريم، لا نستطيع أن نسميها أسباب نزول لأنها كانت قبل عهد النبوة، وعلى هذا لا يمكن أن يقال: إن سبب نزول قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ [الفيل:١]، كان غزو أبرهة للكعبة، كما لا يمكن أن يقال إن قوله: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ﴾ [البقرة:١٠٢]. سببه ما افتراه اليهود واختلقوه على سليمان عليه السلام

في شأن ملكه. كما لا يقال بأن سبب نزول قوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ ﴾ [الكهف:٩] هو ما كان من هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى، وأن سبب نزول ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ ... ﴾ [ص:٢١] ما كان من الملكين اللذين دخلا على سيدنا داود ففزع منهم.

سبب النزل – إذن – ما كان الحدث فيه نابعاً من البيئة والزمان اللذين وقع فيهما الحدث.

بيان ذلك: اختلف المسلمون في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، في موقفهم من المنافقين فنزل قوله تبارك وتعالى: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ... ﴾ [النساء:٨٨] [(١)].

وأساء بعض المسلمين في صلاته قبل أن يحرم الخمر، فنزل قوله الله سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ [النساء:٤٣] [(٢)]. وسأل بعض الصحابة رسول الله ﷺ عن الهلال، ما باله يبدو صغيراً ثم يكبر ثم يصغر كما بدأ، فنزل قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩] [(٣)]. وكان بعض المؤمنين يستغفرون لموتاهم من المشركين فنزل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ

---

(١) الحديث أخرجه البخاري (٤٥٨٩) كتاب التفسير، سورة النساء.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي (٥/ ٢٣٨) كتاب تفسير القرآن، سورة النساء. وأبو داود (٣/ ٣٢٥) كتاب الأشربة، وإسناده صحيح.

(٣) الحديث أخرجه ابن جرير (٢/ ١٠٨٩) عن قتادة مرسلاً، وسنده صحيح، محقق أسباب النزول للواحدي (٤٢٥٣).

﴿ أُولِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة:١١٣] [1]. ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ [التوبة:١١٤]. ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة:١١٤].

وحدث أن بعض المسلمين وقد كانوا في سرية قتلوا بعض المشركين في أول شهر رجب، وهو من الأشهر الحرم، ولم يكونوا يعرفون دخول هذا الشهر فعاب المشركون هذا العمل لأنه كان في الشهر الحرام فنزل قول الله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢١٧] [2]. وتحرج المسلمون عن مخالطة اليتامى فنزل قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢٠] [3].

هذه الأحداث التي نزلت الآيات من أجلها هي التي تسمى أسباب النزول، وتلحظ من الآيات الكريمة السابقة، أن سبب النزول ليس بالضرورة أن يكون سؤالاً مذكوراً في الآية الكريمة فقد يكون، ويمكن أن لا يكون، قد يكون في مثل قوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ﴾ [البقرة:١٨٩]، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة:٢١٧]، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ [البقرة:٢٢٠]، ويمكن أن لا يكون كالآيات المتقدمة.

هذا معنى قولهم: ما نزلت الآية أو الآيات أيام وقوعه، أما قولهم: متضمنة له أو مبينة لحكمه، فمعناه أن سبب النزول قد تكون الآية الكريمة متضمنة له،

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي (٧/ ٢٨١)، كتاب تفسير القرآن، وقال: حديث حسن والنسائي (٤/ ٩١).

(٢) الحديث أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ١٦٢). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٩٨): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٣) الحديث أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره.

كالسؤال عن الأهلة وذي القرنين، أو عن أهل الكهف، أو مبينة لحكمه كالسؤال عن الشهر الحرام، والخمر والميسر، أو المحيض، فإن الآيات الكريمة متضمنة لهذه الأمور. ومعنى هذا أن سبب النزول قد يكون حكماً معيناً، وقد يكون حادثة ما، أي: قد يكون حكماً شرعياً، وقد يكون سؤالاً عن شخص معين، أو بياناً لحدث معين.

وندرك من تعريف سبب النزول، أن القرآن الكريم منه ما نزل ابتداءً يبين للناس ما فيه خيرهم وسعادتهم، إما بالحث على عمل خير كالجهاد والإصلاح بين الناس، وإما لبيان حكم كالصيام والحج والزكاة، وإما للحث على فضيلة خلقية أو تقرير قاعدة عقدية، أو ترغيباً بخير يؤدي إلى الجنة، أو ترهيباً من شر يؤدي إلى النار، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه القرآن من أنواع الخير، وهذا هو الأكثر أي الذي نزل ابتداء.

ومنه ما نزل لسبب معين، وإجابة عن سؤال سواء أكان هذا السؤال مذكوراً في الآية الكريمة أم لم يكن.

فوائد معرفة أسباب النزول:

إذا أردنا أن نعرف خطر هذا المبحث، وما له من قيمة، وما يرتبط به من أمور وفوائد، فإليكم هذه الحادثة التي نرجو أن تكون لنا مدخلاً. قال الإمام الشاطبي: «روى أبو عبيد عن إبراهيم التيمي، قال: خلا عمر ذات يوم فجعل يحدث نفسه: كيف تختلف هذه الأمة؛ ونبيها واحد، وقبلتها واحدة؟ فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، إنا أُنزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيما نزل؟ وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيما نزل؟ فيكون لهم فيه رأي، فإن كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا. قال: فزجره عمر وانتهره،

فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال فعرفه، فأرسل إليه، فقال: أعد عليّ ما قلت: فأعاده عليه فعرف عمر قوله وأعجبه»[1].

تلكم هي نظرة الأجلة من علماء الصحابة لأسباب النزول، لا عجب - إذن - أن يفصل العلماء القول فيها، باحثين عن فوائدها، وسأحاول نقل الفوائد كما ذكرها الأئمة بإيجاز ميسر:

الفائدة الأولى: تجلية حكمة التشريع وتوضيحها، فهي تتعمق في أنفس الناس، ذلكم أن حكمة التشريع وإن كانت تعرف من العمل بما في الآيات الكريمة من أحكام، لكن معرفة السبب تجلي هذه الحكمة مما يزيد النفوس طمأنينة والقلوب تثبيتاً وهذا كثير في كتاب الله تبارك وتعالى، ألم تر إلى نزول قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ ﴾ [النساء:١١]. حيث كانت أول آية في كتاب الله تقرع قلوب المؤمنين لتبين لهم أن أحكامهم في الميراث جائرة ظالمة، وقد آن لهم أن يقلعوا عن هذا الجور، ويورثوا النساء والصغار. ولقد كان سبب نزول الآية أن امرأة الشهيد المؤمن سعد بن الربيع جاءت رسول الله ﷺ ، بابنتين لها، فقالت: يا رسول الله هاتان بنتا سعد بن الربيع، قتل معك يوم أحد، وقد استفاء عمهما مالهما وميراثهما، فلم يدع لهما مالاً إلا أخذه، فما ترى يا رسول الله؟ فوالله ما ينكحان أبداً إلا ولهما مال، فقال: يقضي الله في ذلك، فنزلت سورة النساء ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾ [النساء:١١] فقال لي رسول الله ﷺ : ادعُ لي المرأة وصاحبها فقال لعمهما: أعطهما الثلثين وأعطِ أمهما الثمن وما بقي فلك[2].

---

(١) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن، ص٤٥. قال محققه الشيخ وهبي غاوجي الألباني ورواه البيهقي والخطيب، انظر الجامع الكبير للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩١.

(٢) أخرجه الإمام أحمد [الفتح الرباني (١٥/ ١٩٥)]، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٣٤) وصححه =

كذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ ﴾ [الطلاق:١]. فإن نزولها كان سببه ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه طلق امرأته وهي حائض، فذكر عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ فيه رسول الله ﷺ ثم قال: «ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها طاهراً قبل أن يمسها فتلك العدة كما أمره الله»(١).

الفائدة الثانية: فهم الآية وإزالة ما يبدو من إشكالات ظاهراً عند بعض الناس، لذلك نص كثير من الأئمة الأعلام - رحمهم الله - على أن سبب النزول يعين كثيراً على فهم الآية فهماً صحيحاً، وعلى أن بعض الآيات لا يمكن فهمها إلا إذا علم السبب الذي نزلت من أجله، ولذا قال الواحدي «لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها»(٢).

وقال ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن، وقال ابن تيمية(٣): معرفة سبب النزول معين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب. من ذلك:

١- قوله سبحانه ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:١٥٨].

= وأخرجه الترمذي (٢٠٩٣) وأبو داود في سننه (٣/ ٣١٤)، رقم الحديث: (٢٧٢٠). وإسناده قوي وحسنه الترمذي.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة الطلاق، حديث رقم ٤٦٢٥، (٤/ ١٨٦٤).

(٢) أسباب النزول، الواحدي، ص٨.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣/ ٣٣٩).

لقد خفي معنى هذه الآية الكريمة على عالِم من علماء التابعين، هو عروة ابن الزبير رضي الله عنهما، حيث روت كتب السنّة عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قلت لعائشة زوج النبي ﷺ وأنا يومئذ حديث السن: أرأيت قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ فما أرى على أحد شيئاً أن لا يطوّف بهما؟ فقالت عائشة: كلا، لو كانت كما تقول، كانت: فلا جناح عليه أن لا يطوّف بهما، إنما أنزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا يهلون لمناة، وكانت مناة حذو قُديد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [(١)].

فأنتم ترون أن معرفة السبب الذي ذكرته السيدة عائشة، فأبانت فيه عن فقهٍ وفهم في لغة القرآن الكريم، أزال هذا الإشكال الذي وجده عروة ﷺ في نفسه، حيث بينت له أن الآية الكريمة إنما جاءت لتطييب نفوس المسلمين الذين خشوا أن يكون في السعي بين الصفا والمروة مأثم فأرادوا أن يتورعوا عنه، لذا نجد الفقهاء اختلفوا في حكم السعي بين الصفا والمروة فذهب بعضهم إلى أنه ركن ومنهم الشافعية والحنابلة، وذهب آخرون إلى أنه واجب... الخ.

والآية الكريمة ليست دليلاً لهؤلاء أو أولئك، لأنها جاءت على سبب خاص.

٢- ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١١٥] حيث بينت الآية الكريمة أن الجهات كلها سواء، فقد يشكل

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة البقرة، باب قوله «إن الصفا والمروة... فإن الله شاكر عليم»، رقم الباب ٢٣، رقم الحديث ٤٢٢٥ (٤/ ١٦٣٥).

على بعض الناس فهم هذه الآية الكريمة، فيظن أن التوجه للقبلة غير واجب، ولابد هنا من كلمة، وهي أن التوجه إلى القبلة قد نزلت فيه آيات بعد هذه الآية الكريمة، لذا اختلف العلماء في معنى الآية وذلك لاختلافهم في سبب النزول.

فذهب بعضهم إلى أن الآية تتحدث عن صلاة النافلة في السفر، حيث يجوز للمتنفل على راحلته أن يصلي إلى أي جهة، حتى لا يشق عليه التوجه إلى جهة معينة. ورأى بعضهم أن الآية تتحدث عن الدعاء. والروايات التي وردت في هذه ضعيفة.

وقد ورد كلام عن الإمام الشافعي جدير بالتأمل، حري بالقبول، قال رحمه الله: أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ فرض القبلة بمكة، فكان يصلي في ناحية تستقبل منها البيت الحرام وبيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة، استقبل بيت المقدس، مولياً عن البيت الحرام ستة عشر شهراً، وهو يحب لو قضى الله إليه باستقبال البيت الحرام، لأن فيه مقام أبيه إبراهيم وإسماعيل وهو المثابة للناس والأمن، وإليه الحج؛ وهو المأمور به أن يطهر للطائفين والعاكفين والركع السجود. مع كراهية رسول الله ﷺ لما وافق اليهود، فقال لجبريل عليه السلام «لوددت أن ربي صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها» فأنزل الله ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١١٥].

يعني – والله أعلم – فثمّ الوجه الذي وجهكم الله إليه، فقال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ : يا محمد أنا عبد مامور مثلك، لا أملك شيئاً، فسل الله، فسأل النبي ﷺ ربّه أن يوجّهه إلى البيت الحرام[1].

---

(١) أحكام القرآن، الشافعي، (١/ ٦٤).

الفائدة الثالثة: وهي وما بعدها متصلتان بمبحث هو في حقيقته من مباحث أصول الفقه، وقد عرض له بعض الكاتبين في علوم القرآن بإيجاز، وكان من الممكن أن يستغنى عنه، وهذا المبحث هو: العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟ وعموم اللفظ ما دلّ عليه النص، وخصوص السبب الحدث الذي نزل من أجله النص. ومثال ذلك:

آيات الظهار التي جاءت في أول سورة المجادلة، فلقد ذكرت الروايات أن هذه الآيات نزلت في خولة زوج أوس بن الصامت رضي الله عنهما أنأخذ بعموم اللفظ في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم ﴾ [المجادلة:٢]، فتشمل الآية الكريمة المظاهرين في كل زمان ومكان، وفي كل عصر ومصر، أم نقول: الآية محصورة فيمن جاءت الآية من أجله! .

ذهب جمهور العلماء إلى الأول، بأن العبرة بعموم اللفظ، وهذا اللفظ يشمل من ظاهر ومن لم يظاهر، وقال بعضهم: إن العبرة بخصوص السبب، فالحكم مقصور على من نزلت الآية في شأنه، أما غيره فإنما يدخل بالقياس، فهو يدخل تبعاً لا أصالة.

إن من فوائد معرفة أسباب النزول عند من يرى أن العبرة بعموم اللفظ امتناع خروج صورة السبب من النص العام اجتهاداً، فقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة:٣٨]، نزل في شخص معين، فإذا عرفنا هذا؛ فإنه يمتنع أن نخرج هذا السبب من الآية الكريمة بحجة أن اللفظ عام، وأن العام يدخله التخصيص، وهذا التخصيص قد يكون بالنقل وقد يكون بالعقل، وإذا ثبت هذا وهو أن العام يمكن أن يخصص، وإن المخصص قد يكون عقلياً أو غيره إذا ثبت هذا أمكن أن يقال: إن قوله: «والسارق والسارقة» لفظ

عام يمكن أن يخصص، فلا يشمل هذا الحكم فلاناً من الناس، لكن إذا عرفنا أن فلاناً هذا هو الذي نزلت من أجله الآية امتنع إخراجه من هذا اللفظ العام.

كذلك قوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم ﴾ [المجادلة:٢]. هذا لفظ عام يمكن أن يدخله التخصيص، وعلى هذا يمكن أن يقال: إن هذه الآية لا تشمل خولة وزوجها[1] لكننا نقول: هذا غير ممكن لأن سبب نزول الآية خولة وزوجها.

وفي آيات تخيير سيدنا رسول الله ﷺ أزواجه أمهات المؤمنين رضي الله عنهن التي تبدأ بقول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٢٨-٢٩] ثم يقول الله تبارك وتعالى في السياق نفسه مخاطباً أمهات المؤمنين ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب:٣٣-٣٤].

جمهور أهل السنّة مجمعون على أن نساء النبي عليه وآله الصلاة والسلام يدخلن في مفهوم آل البيت. وذهب بعض الشيعة إلى أن آل البيت محصورون بأصحاب الكساء: علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

ولكن سبب النزول كان في حقهن، وإذا كان الأمر كذلك فلا يجوز إخراجهن من آل البيت، فقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نازلة في نساء النبي خاصة.

إن الآيات جاءت في سياق واحد، المقصود منه أزواج النبي ﷺ فقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ ﴾ [الأحزاب:٢٨] وقوله: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ ﴾ [الأحزاب:٣٠] وقوله: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [الأحزاب:٣٢] وقوله: ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ ﴾ [الأحزاب:٣٤] كلها تدل على ذلك، فالسياق بين الطريق التي أمر بها أزواج نبيّه ﷺ باتباعها لبلوغ الدرجة العليا؛ وذلك لأنهن لسن كباقي النساء، فإذا ما التزمن هذا الطريق أذهب الله عنهن الرجس وطهرهن تطهيراً ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٣٣] .

خلاصة هذه الفائدة أنه إذا كانت العبرة بعموم اللفظ، والعام يخصص، يمكن أن يكون التخصيص بأي حادثة ما، فإذا عرفنا سبب النزول امتنع أن نخرجه من هذا النص العام.

الفائدة الرابعة: وهي عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب، وخلاصة هذه الفائدة، أننا إذا عرفنا السبب الخاص الذي جاء من أجله اللفظ العام، فإننا نخصص هذا العام، كي يقتصر على هذا السبب الخاص، فقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم ﴾ [المجادلة:٢] لفظ عام، لكن السبب الذي ورد من أجله وهو خولة وزوجها، سبب خاص. وإذا علم هذا فإن قوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ

يُظَٰهِرُونَ ﴾ لا ينبغي أن يبقى على عمومه، بل ينبغي أن يخصص، فيصير هذا القول الكريم خاصاً بخولة وزوجها ولا يتعدى غيرهما إلا بالقياس.

معنى هذه الفائدة – إذن – إننا إذا عرفنا السبب، جعلناه مخصصاً باللفظ العام.

وهاتان الفائدتان ذكرهما علماء الأصول، وبسطوا القول فيهما، وتوسعوا في الشرح، ونقلهما عنهم الكاتبون في علوم القرآن الكريم، من غير أن يمثلوا لهما بشيء. أما علماء الأصول، فإنك تجد في كتبهم مباحث ناقشوا فيها هذه القضية، وكان نقاشهم لا يستند إلى القرآن الكريم بقدر ما يستند إلى السنّة الشريفة، وإنك لتجد كتباً خاصة في هذا المبحث لعلماء أصول الفقه يستندون إلى السنّة المطهرة ومواقف الأئمة المجتهدين في فهمها ومن هنا نرى أن هاتين الفائدتين في كتب علوم القرآن الكريم غير واضحتين، وكان حقهما أن تبينا أو أن لا تنقلا، ولعلي أستطيع أن أبين لك أيها القارئ الكريم ما يُسهّل عليك بعض الفهم إن شاء الله. ولآتيك بمثالين كريمين أحدهما من الكتاب الكريم والآخر من السنّة المطهرة.

أولاً: من القرآن الكريم: جاء في سورة النور آيتان كريمتان في شأن رمي المحصنات، إحداهما قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النور:٤-٥]، والآية الثانية قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [النور:٢٣].

فالآية الأولى بينت قبول توبة القاذف في قوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾ أما الآية الثانية فليس فيها شيء من هذا، فهل سبب نزول الآيتين شيء واحد، وهو قذف المحصنات، سواء أكُنّ من أمهات المؤمنين أم من غيرهن، وعلى هذا تقبل توبة القاذف أياً كانت المقذوفة وإن كانت من أمهات المؤمنين؟ أم أن الآية الأولى التي ذكر فيها قبول التوبة كانت لغير أمهات المؤمنين؟ وأن الآية الثانية خاصة بهن؟ الذين فسروا الآية هذا التفسير، قالوا إن الآية الثانية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ... ﴾ نزلت في شأن السيدة عائشة رضي الله عنها، أو غيرها من أمهات المؤمنين.. ذهبوا إلى أن هذا السبب لا يجوز إخراجه بحيث تقبل توبة من قذف إحدى أمهات المؤمنين رضي الله عنهن؛ لأن دخول السبب قطعي، وإخراجه لا يجوز بالاجتهاد.

قبول التوبة – إذن – الذي جاء في الآية الأولى، لا يشمل الذين نزلت في شأنهم الآية الثانية، وهذا المثال يتم لو أن هناك إجماعاً على أن الآية الثانية كانت فيمن قذف أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، لكن كثيراً من المفسرين لا يرى هذا الرأي.

ثانياً: من السنّة: سئل سيدنا رسول الله ﷺ عن الوضوء من بئر بضاعة، وهي بئر كانت تلقى فيها القاذورات فأجازه[1].

فلو أن حديثاً آخر جاء يتحدث عن نجاسة الماء، فإن هذا الحديث الآخر لا يشمل بئر بضاعة، لأن الحديث عن بئر بضاعة كان لسبب قطعي، فلا يجوز إخراجه لورود حديث آخر يبين نجاسة الماء إذا ألقي فيه خبث، ولعلك من هذين المثالين تتضح لك الصورة، والله ولي التوفيق.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي، كتاب الطهارة، باب ما جاء أن الماء لا ينجسه شيء رقم ٤٩، (١/ ٧٠)، وقال: حديث حسن.

أيتعدد السبب ويتعدد النازل؟

هذه قضية جديرة أن تتنبه لها لما يتصل بها من قضايا ذات شأن وخطر، وقد ذكروا صوراً:

الصورة الأولى: أن يتعدد السبب والنازل واحد.

الصورة الثانية: أن يتعدد النازل والسبب واحد.

أما الصورة الأولى، فمن أمثلتها:

ما جاء في قوله تعالى ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ﴾ [النساء:١١].

أ- فعن جابر قال: عادني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل، فدعا بماء فتوضأ منه ثم رشّ عليّ، فأفقت فقلت: كيف أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ﴾ [النساء:١١][1].

ب- وعن جابر بن عبدالله قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ بابنتين لها، فقالت: يا رسول الله هاتان بنتا ثابت بن قيس، أو قالت: سعد بن الربيع، قتل معك يوم أحد، وقد استفاء عمهما مالهما وميراثهما، فلم يدع لهما مالاً إلا أخذه، فما ترى يا رسول الله؟ فوالله ما ينكحان أبداً إلا ولهما مال، فقال: يقضي الله في ذلك فنزلت سورة النساء وفيها ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء:١١] إلى آخر الآية، فقال لي رسول الله ﷺ : ادع لي المرأة وصاحبها، فقال لعمهما: أعطهما الثلثين وأعط أمهما الثمن وما بقي فلك؟[2].

---

(١) اخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة النساء، وأخرجه مسلم (٣/ ١٢٣٤)، حديث (١٦١٦).

(٢) اخرجه الإمام أحمد، الفتح الرباني، (١٩/ ١٩٥)، ج١٦، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٣٤)، وصححه، أسباب النزول للواحدي، ص١٤٥.

٢- ومن ذلك ما جاء في السنّة المطهرة في سبب نزول آيات اللعان:

أ- عن سهل بن سعد أن عويمراً أتى عاصماً بن عدي، وكان سيد بني عجلان، فقال: كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ سل لي رسول الله ﷺ عن ذلك، فأتى عاصم النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، فكره رسول الله ﷺ المسائل، فسأله عويمر، فقال: إن رسول الله ﷺ كره المسائل وعابها، قال عويمر: والله لا أنتهي حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك، فجاء عويمر فقال: يا رسول الله: رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله ﷺ : «قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبتك» ، فأمرهما رسول الله ﷺ بالملاعنة بما سمى الله في كتابه فلاعنها، ثم قال: يا رسول الله إن حبستها فقد ظلمتها، فطلقها فكانت سنّة لمن كان بعدهما في المتلاعنين»[١].

ب- عن ابن عباس: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك ابن سحماء، فقال النبي ﷺ «البينة أو حد في ظهرك» فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً، ينطلق يلتمس البينة، فجعل النبي ﷺ يقول: «البينة وإلا حد في ظهرك» فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، فلينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل وأنزل عليه ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ ﴾ [النور:٦] فقرأ حتى بلغ ﴿ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [النور:٩] فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليها فجاء هلال فشهد، والنبي ﷺ يقول: «إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب» ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقفوها

(١) أخرجه الإمام البخاري، كتاب التفسير، سورة النور، باب «الذين يرمون أزواجهم... لمن الصادقين» رقم ٢٣٩، حديث ٤٤٦٨ (٤/ ١٧٧١).

وقالوا: إنها موجبة، قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت[1].

وهذه الصورة نرى أنها صورة طبيعية لا اعتراض عليها ولا إشكال فيها؛ ذلك لأن من الطبيعي في أي مجتمع أن تكون هناك أحداث معينة متشابهة، ولا مانع من أن تكون هذه الأحداث قد وقعت في وقت واحد، أو أوقات متقاربة، وهذه الأحداث المتشابهة سيكون علاجها واحداً، حتى تكون قواعد الأحكام منضبطة ثابتة.

أما الصورة الثانية أن يتعدد النازل والسبب واحد، ولقد ذكر المفسرون والمؤلفون في علوم القرآن - رحمهم الله - هذه الصورة ينقلها المتأخر عن المتقدم. ابتداء من الزركشي والسيوطي - رحمهم الله - إلى عصرنا، ومثلوا لهذه الصورة بما جاء عن أم سلمة رضي الله عنها. وهذا المثال نقلوه عن السيوطي، ولكن السيوطي - رحمه الله - ذكر أكثر من مثال واحد، واقتصار شيوخنا - رحمهم الله - مثل الشيخ محمد سلامة في كتابه منهج الفرقان في علوم القرآن والشيخ غزلان على هذا المثال قد يكون للاختصار، وقد يكون لعدم اقتناعهم بما جاء في هذه الأمثلة، لكنهم وافقوا السيوطي - رحمهم الله - .

الذي أراه وأؤمن به عن قناعة أن مثل هذه الصورة لا وجود لها، بل هي تتنافى مع طبيعة القرآن الكريم وواقع الأحداث، ونحن نعلم أن القرآن الكريم يمتاز بالإيجاز والإحكام، فإذا وقع حدث معين، ونزلت فيه آية كريمة، فإن هذه الآية لابد أن تكون كافية تامة مبينة بياناً شافياً لهذا الأمر الحادث، وليس هناك حاجة تدعو إلى نزول آيات ثانية، نعم إن كان السبب متشعب الجهات، فنزلت

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، سورة النور، باب «ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين»، رقم الباب ٢٤١، حديث ٤٤٧٠ (٤/ ١٧٧٢).

آيات تبين كل منها جهة من هذه الجهات، فهذا أمر مقبول، ولكن ليس مما ذكروه شيء من هذا، فالسبب الواحد لا يحتاج إلى أكثر من نازل واحد، لأن هذه الآية ذات بيان لا تترك في النفوس ما يدعو إلى التساؤل عن هذا السبب الذي حدث.

وقد نتساءل نحن: إذا حدث في أيامنا شيء يدعو إلى التساؤل وسئل أحدنا وأجاب، أيرضى هو أم يرضي غيره أن يجيب بعد شهرين إجابة ثانية، وبعد سنة إجابة ثالثة عن هذا التساؤل، والإجابة الأولى كافية، فلماذا تكون الثانية والثالثة، ذلك أمر ينبغي أن نجلّ القرآن الكريم عنه.

ثم إننا إذا درسنا الأمثلة التي ذكروها، فسنجد أن ما ذكروه غير مقنع، ولنأخذ ما ذكروه من سؤال أم سلمة رضي الله عنها النبي ﷺ ؛ إذ تقول: قلت للنبي ﷺ ، ما لنا لا نُذكر في القرآن كما يُذكر الرجال؟[1]، فالآيات التي قيل إنها كانت إجابة على هذا التساؤل إحداها في سورة الأحزاب وهي قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [الأحزاب:٣٥] وهذه الآية الكريمة جاءت في أثناء ذكر خبر النبي ﷺ مع أزواجه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ.. ﴾ [الأحزاب:٢٨].

وقد ذكر بعد الآية ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب:٣٦]. إذن ذكر النساء منسجم مع سياق الآيات والموضوع انسجاماً تاماً. والآية الثانية آية آل عمران ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [آل

(١) أخرجه الطبري (٢٢/ ٨) والنسائي في تفسيره (٢/ ١٦٩) وفي إسناده مقال.

عمران:١٩٥] وقد جاءت آيات كثيرة في مثل هذا السياق، مثل ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ [النحل:٩٧] في سورة النحل وفي سورة غافر، وهي آية مكية، فكيف تقول أم سلمة: إن الله لم يذكر النساء وقد ذكرن قبل الهجرة؟! .

وأما قوله: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [النساء:٣٢] فهي منسجمة مع سياق السورة كذلك، حيث ذكرت السورة أحكاماً كثيرة تتعلق بالنساء. ثم إن هذه الآيات التي ذكروها متباعدة في النزول.

كذلك ما ذكره السيوطي – رحمه الله – من أن قول الله سبحانه: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ [التوبة:٧٤] وإن قوله: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ [المجادلة:١٨] ذواتا سبب واحد، قول لا نستطيع قبوله والاقتناع به، فحلف المنافقين للمؤمنين ورد في آيات كثيرة وسور متعددة، فلا يمكننا أن نقول إن هذه الآيات كلها ذات سبب واحد، مع ما بينها من تباعد زمني، وخبر المنافقين مع المؤمنين غير خفي، ثم هو بقي مدة الهجرة تقريباً، وكانت أخبارهم وأنباؤهم متجددة، وقوله سبحانه: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ ... ﴾ كانت في غزوة تبوك.

وأما قوله: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ... ﴾ فقد جاءت في سورة المجادلة.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ [المجادلة:١٤] وقد ذكر في هذه السورة الكريمة قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ [المجادلة:١٦] أكثر من مرة، فالحادثتان مختلفتان وفي زمانين مختلفين.

إن تعدد النازل والسبب واحد من القضايا التي تستدعي انتباهنا ونحن نكتب في هذا العلم العظيم وتتطلب منا الحيطة والحذر، والقرآن الكريم كتاب

الفصل والإحكام والبيان. إذا أجاب فإجابته القاطعة الجامعة المانعة، والله أعلم بما ينزّل.

طريق معرفة سبب النزول:

إن ما ذكرته لك مما كان بين عمر وابن عباس رضي الله عنهما[1]، يدل بوجه قاطع على أن معرفة سبب النزول طريقها النقل وحده، وأن الصحابة رضوان الله عليهم يبينون لنا هذه القضية، ولكن ما ورد عن الصحابة جاءنا بصور متعددة، لذلك تحدث الكاتبون في علوم القرآن الكريم عن كيفية معرفة أسباب النزول، فقد يقول الصحابي: حدث كذا، أو حصل كذا، أو كان كذا، فنزلت الآية، ومثله أن يقول الصحابي: فيّ نزلت هذه الآية.

أما إذا قال الصحابي؛ معنى هذه الآية كذا، أو مراد الله من هذه الآية كذا، فإن مثل هذه العبارات وما يشبهها لا تدل يقيناً على سبب النزول.

لكن العبارة التي تحتمل سبب النزول وغيره، قول الصحابي: نزلت هذه الآية في كذا، فقد يكون هذا دالاً على سبب النزول، وقد يكون تفسيراً وتوضيحاً للآية الكريمة، وسنذكر لك بعض الأمثلة من ذلك آخر هذا الموضوع، من هنا حصل اللبس في كثير من هذه الأقوال، حيث عدّها بعض العلماء من أسباب النزول، وقد يكون اللبس ناتجاً عن شيء آخر، وهو أن يكون هناك حدث تحدث عنه بعض الصحابة رضوان الله عليهم قائلاً:

شهدت كذا مع رسول الله ﷺ، أو سئل رسول الله ﷺ عن كذا فنزلت هذه الآية، فيظن كثيرون أن هذه الآية نزلت بسبب ذلك الحدث، أو إجابة عن هذا السؤال، وقد يكون معنى قولهم: نزلت هذه الآية في فلان، أنها تتناول

(١) ص١٣٤-١٣٥.

فعلته كما نقله الشيخ رشيد في المنار عن ابن تيمية[1] من هنا كان هناك كثير من الإشكالات في تعيين سبب النزول وسأفصل لك القول في هذا عند حديثنا عن روايات سبب النزول.

ولكن الذي أود أن أنبهك عليه هنا أنه إذا قال الصحابي: حدث كذا فنزلت كذا، فإن ذلك يعد من قبيل المرفوع إلى الرسول ﷺ أما إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا كقولهم: إن آية الظهار نزلت في امرأة أوس بن الصامت، وإن آية اللعان نزلت في عويمر العجلاني أو هلال بن أمية، وإن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبدالله، وإن قوله: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ ﴾ [الأنفال:١٦] نزلت في بدر، وإن قوله: ﴿ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ [المائدة:١٠٦] نزلت في قضية تميم الداري وعدي بن بداء، وقول أبي أيوب إن قوله: ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة:١٩٥] «نزلت فينا معشر الأنصار» الحديث، ونظائر هذا كثير مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين أو في قوم من أهل الكتاب اليهود والنصارى أو قوم من المؤمنين[2]، فقد اختلفوا فيه، فالبخاري رحمه الله يعدّه من قبيل المرفوع، وغيره لا يعده كذلك.

وهذا الاختلاف ناشئ – كما قلت لك – من أنهم لشدة حيطتهم لم يعدوا هذا القول سبب نزول؛ ويشترطون لسبب النزول أن يذكر صراحة[3].

وقد تنازع العلماء في قول الصحابي: نزلت هذه الآية في كذا، هل يجري مجرى المسند كما يذكر السبب الذي أنزلت لأجله، أو مجرى التفسير منه الذي

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٥٩٢).

(٢) مجموعة فتاوى ابن تيمية (١٣/ ٣٣٨).

(٣) مجموعة فتاوى ابن تيمية (١٣/ ٣٤٠).

ليس بمسند، فالبخاري يدخله في المسند، وغيره لا يدخله في المسند، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره، بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه، فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند[١].

وعلى هذا فلا بد من الحيطة والتثبت، والروية والتأني للحكم على قول ما بأنه سبب نزول، فإن كثيراً مما عدوه من أسباب النزول لا يصلح أن يكون كذلك.

روايات أسباب النزول :

هذه القضية هي لب موضوع أسباب النزول، وأعظمها شأناً، وأكثرها خطراً، وأجلّها فائدة، ولن نعرض بالطبع في هذه القضية إلى الروايات كلها أو جلّها، فذلك أمر غير ممكن في مثل هذا الكتاب، لأنه يحتاج إلى مؤلف خاص به، وأرجو من الله العون.. لكننا سنتقصر على ما ييسره الله لنا من ذكر بعض الروايات، لننبه بما ذكر على ما لم يُذكر.

أولاً: ذكر السيوطي - رحمه الله تعالى - قاعدة في تعدد الروايات لأسباب النزول. قال رحمه الله ما ملخصه. إذا ذكر سببان لنزول الآية، فإن كان إسناد إحداهما أصح من الآخر، قُدِّم الأصح[٢]، فإن استويا في الصحة، وكان أحدهما تصريحاً بذكر السبب، ولم يكن ذلك في الثاني قُدِّم الأول لما فيه من التصريح[٣] أما إذ استويا في الصحة والتقديم بالسبب في كليهما ولم يكن الترجيح بينهما فإننا نلجأ في هذه الحالة إلى القول بتعدد النزول[٤] وتكرره وذكر أمثلة لهذه الحالات جميعها.

---

(١) مجموعة فتاوى ابن تيمية (١٣/ ٣٤٠).

(٢) الإتقان (١/ ١١٧).

(٣) (١/ ١٢٠).

(٤) (١/ ١٢٢).

ونحن – أرشدك الله – نستشعر خطورة هذه القضية، لذا نضرع إلى الله تبارك وتعالى أن يجنبنا الخطل، ويلهمنا السداد، ولن أقف بك عندما ذكره الحافظ السيوطي – رحمه الله – فحسب، بل نحاول أن نقف مع بعض الروايات التي ذكرها الأئمة أصحاب هذا الشأن – رحمهم الله – فنقول وبالله التوفيق:

١- كون الآية ذكر لها سببان أحدهما أصح من الآخر أمر مسلم به، والمتدبر لكتب التفسير يجد كثيراً من الأمثلة لهذه القضية وقد مثل له السيوطي بسبب نزول السورة الكريمة الطيبة، التي تبين ما أكرم الله به نبيه ﷺ، أعني ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [الضحى:١-٢]. حيث جاء في صحيح البخاري: عن جندب بن سفيان ﷺ قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عز وجل ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى:١-٣][(1)].

وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة عن حفص بن سعيد عن أمه عن أمها – وكانت خادم رسول الله ﷺ : أن جرواً دخل بيت النبي ﷺ ، فدخل تحت السرير فمات، فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة، ما حدث في بيتي؟ جبريل عليه السلام لا يأتيني. قالت خولة: فقلت: لو هيأت البيت وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير فإذا شيء ثقيل فلم أزل حتى أخرجته، فإذا جرو ميت، فأخذته فألقيته خف الجدار، فجاء نبي الله ترعد لحيته فأنزل الله ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [(2)]، إذا كان اعتماد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة الضحى، باب تفسير سورة الضحى، رقم ٤٤٠، حديث رقم ٤٦٦٧، (٤/ ١٨٩٢).

(٢) أخرجه الطبراني وابن أبي شيبة، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: في إسناده من لا يعرف (٧/ ١٣٨)، وتبعه في ذلك الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٣٣٩).

ما في الصحيح أمراً لا مناص منه، وإذا كانت الرواية الثانية مردودة لعدم صحتها، فإن مما يجب أن ترد هذه الرواية دراية كذلك، ذلك أنه أمر لا يتفق مع واقع النبي ﷺ وسامح الله الحافظ ابن حجر وجزاه خيراً، حيث قال إن القصة مشهورة، وقد ردها من حيث السند.

لكن الرواية ينبغي أن ترد من حيث الدراية كذلك، فأصل وجود الجرو في بيت النبي ﷺ أمر لا يتفق مع فطرة النبي ثم كونه يظل ميتاً أربعة أيام في البيت إخالك يأباه عقلك، ثم هل كان مجيء الوحي إلى النبي يقتصر على بيته، والمعلوم – أنه كان يجيء في أمكنة متعددة – ؟! .

٢- ذكروا عند قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [التوبة:١١٣] أكثر من سبب، منها ما رواه البخاري – رحمه الله – أنها نزلت في شأن أبي طالب، ومنها ما أخرجه الحاكم عن ابن مسعود، وذكره الواحدي أنها نزلت في استغفار النبي ﷺ لأمه، وذكر حديثاً طويلاً عن ابن مسعود قال: خرج رسول الله ﷺ ينظر في المقابر وخرجنا معه، فأمرنا فجلسنا، ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها، فناجاه طويلاً، ثم ارتفع نحيب رسول الله ﷺ باكياً، فبكينا لبكاء الرسول ﷺ ، ثم إنه أقبل إلينا وتلقاه عمر بن الخطاب: فقال: يا رسول الله ما الذي أبكاك؟ فقد أبكانا وأفزعنا! فجاء فجلس إلينا فقال: «أفزعكم بكائي؟!» فقلنا: نعم يا رسول الله فقال: «إن القبر الذي رأيتموني أناجي فيه قبر آمنة بنت وهب، وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي فيه..» الحديث ، وهذه رواية ضعيفة، ضعفها الإمام الذهبي[(١)].

---

(١) المستدرك (٢/ ٣٣٦)، قال: عصام الحميدان محقق أسباب النزول قلت: وفيه أيضاً عنعنة.

وقد ذكروا هذه الرواية كذلك عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [البقرة:١١٩]، وفضلاً على ضعفها، فإنها ليست منسجمة مع سياق الآية الكريمة كما سيأتيك نبأه عند حديثنا عن أسباب النزول والسياق، فهذه رواية يجب أن ترد لضعفها في آية براءة، ولمخالفتها السياق كذلك في آية البقرة.

ثانياً: أن تكون الروايتان صحيحتان، لكن إحداهما فيها تصريح بسبب النزول، والأخرى ليست كذلك، ومثلوا لذلك بما سبق من حديث جابر - رضي الله عنهما - بسبب نزول قوله تعالى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢٣] وقد ذكرنا من قبل رواية ابن عمر رضي الله عنهما، وقلنا: إن المعتمد قول جابر لأنه تصريح بالسبب.

وقد عدّ السيوطي[1] من هذا القبيل، ما جاء في سبب نزول قوله سبحانه ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥] حيث ورد في سبب نزولها:

١- ما رواه البخاري عن ابن مسعود، قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ بالمدينة، وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم: لو سألتموه؟ فقالوا: حدّثنا عن الروح، فقام ساعة ورفع رأسه، فعرفت أنه يوحى إليه، حتى صعد الوحي ثم قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥][2].

---

(١) الإتقان (١/ ١٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة الإسراء، باب ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ رقم الباب ٢١١، حديث ٤٤٤٤.

٢- ما أخرجه الترمذي عن ابن عباس، قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل، فقالوا: اسألوه عن الروح، فسألوه، فأنزل الله ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾[١].

ورجح السيوطي رواية البخاري، لأنها أصح، ولأن ابن مسعود كان حاضراً القصة، وسنناقش هذا فيما بعد إن شاء الله.

ثالثاً: أن تكون الروايتان متساويتين من حيث الصحة، ومن حيث التصريح بسبب النزول، فلا يمكن الجمع بينهما وترجيح إحداهما على الأخرى، وهنا يُلجأ إلى القول بتعدد النزول، كما يقول السيوطي في «الإتقان» ومثل لذلك قوله سبحانه: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة:١١٣] فقد ذكر روايات في سبب نزولها:

الأولى: وأخرجها البخاري أنها نزلت في شأن أبي طالب واستغفار النبي ﷺ له.

والثانية: ما أخرجه الترمذي وحسنه عن عليّ، قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: تستغفر لأبويك وهما مشركان! فقال: استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت.

والرواية الثالثة: وهي ما نزل في شأن طلبه ﷺ من ربّه أن يستغفر لأمه، فنزلت، وقد ذكرنا لك الرواية[٢].

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٥٥)، والترمذي (٥/ ٣٠٤).
(٢) الإتقان، ١/ ١٢٢.

ورحم الله السيوطي فكلامه لا بد من مناقشته، فعند حديثه عن آية الروح رجح رواية البخاري على رواية الترمذي، لكنه هنا سوّى بين الروايات الثلاث، مع أننا عرفنا من قبل أن الرواية الأخيرة مردودة لا تصح، فكيف سوّى بينها وبين غيرها، ليبنى على هذه التسوية أمراً خطيراً وهو القول بتعدد النزول، لذلك لا بد أن نفرد لهذا القول عنواناً خاصاً نناقش فيه هذه القضية.

القول بتعدد النزول:

الذي يترجح لديّ أن القول بتعدد النزول لم يكن معلوماً في القرون الأولى، بل قاله المتأخرون، وهذا شيخ المفسرين ابن جرير في تفسيره «جامع البيان» لم نجد فيه أثراً لهذه القضية، والذين ذكروا هذه القضية في كتبهم، ونقلها من بعدهم عنهم، لم تتفق كلمتهم على الآيات التي قيل بأنها نزلت أكثر من مرة، بل اختلفت كلمتهم، كما سأبينه لك إن شاء الله.

فهذا الزركشي – رحمه الله – يذكر بعض آيات يرى أنها مكرر نزولها، منها سورة الفاتحة، قيل: إنها نزلت مرتين: مرة في مكة، ومرة في المدينة حين حولت القبلة، ومنها قوله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ [الإسراء:٨٥]، مع أن السيوطي كما عرفنا، يرى أنها نزلت في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم، لأنه رجح رواية ابن مسعود، التي وردت في البخاري – كما عرفت – . ومنها قوله تعالى ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود:١١٤]، وسورة هود مكية باتفاق: لكنها – كما يقولون – نزلت في أبي اليسر، وقد كان في المدينة المنورة ومنها ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:١] فإنها نزلت رداً على المشركين في مكة المكرمة، ورداً على أهل الكتاب في المدينة المنورة، ومنها آية براءة المتقدمة ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة:١١٣].

والعلة التي ذكرها الزركشي لتكرر النزول هي قوله: وقد ينزل الشيء مرتين تعظيماً لشأنه، وتذكيراً به عند حدوث سببه خوف نسيانه[1]. فعلة التكرار عند الزركشي أحد أمرين:

١- تنظيم شأن النازل.

٢- خوف نسيانه.

وممن ذكر هذه القضية كذلك السيوطي[2] وشيخ الإسلام ابن تيمية[3] والإمام ابن حجر حيث قال: إن الجمع أولى من دعوى النزول مرتين، على أن قول هذين الإمامين يفهم منه أننا نقول بالتعدد إذا لم يمكن الجمع بين الروايات، بل إن ابن حجر يصرح بأن الأصل عدم التعدد[4].

وإذن ينبغي للباحث أن يدرس ما قيل من أنه نزل أكثر من مرة دراسة تمحيص وتحقيق كي يصل إلى قول حاسم. وقيل هذه الدراسة لابد أن نعرض لتعليلات المثبتين وهي: تعظيم شأن النازل، وخوف النسيان - كما ذكره الزركشي - وكون الآية نزلت على حرفين - كما نقله السيوطي عن السخاوي- .

أما تعظيم النازل فأمر لا نستطيع قبوله والتسليم به، فالقرآن كله عظيم، ثم إن كان الأمر كذلك كان حرياً بآية الكرسي أن تنزل مرات كثيرة، لأنها أعظم آية كما نعلم، وكذلك الآيات التي تحدثت عن أسماء الله وصفاته.

---

(١) البرهان (١/ ٢٩).

(٢) الإتقان (١/ ١٣٠).

(٣) مجموعة الفتاوى (١٣/ ٣٤٠).

(٤) رسالة العجاب في بيان الأسباب، الدكتور عبدالحكيم الأنيس، ص٥٤٢.

وأما خوف النسيان، فأمر غير وارد بعد قول الله تبارك وتعالى في سورة الحجر المكية: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، وقوله ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأعلى:٦-٧]. وقد قال إن معنى المشيئة هنا تأكيد لعدم النسيان، وأما كون الآية نزلت على حرفين مختلفين فالإجماع على غير هذا إذ المعلوم عند المحققين أن كتابة القرآن الكريم كانت كلها على حرف واحد، ثم إن هذه الآيات التي قيل إنها نزلت مرتين لا نجد في كثير منها قراءات مختلفة، اللهم إلا في أمور قليلة، ولماذا خصّت تلك الآيات التي ذكروا بالنزول مرتين؟ مع أن أكثر آي القرآن تقرأ بقراءات متعددة؟! .

الحق أن الحجج العقلية التي ذكرها أولئك المثبتون لا يمكن التسليم بها ومما ذكروا أنه نزل مرتين فاتحة الكتاب، حيث يجمع العلماء على أن فاتحة الكتاب نزلت في مكة، بل هي من أول ما نزل، ونكاد نجزم بأنها أول سورة تامة نزلت[1]، حتى إن الحسين بن الفضل الأصفهاني علق على قول مجاهد رضي الله عنه بمدنيتها، بأنها هفوة من مجاهد[2]، لكننا وجدنا قولاً آخر عند بعض المفسرين خلاصته أنها نزلت مرتين: مرة في مكة المكرمة، ومرة في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم، وتعليل ذلك عندهم: لشرفها أولاً، ولأنها لما حوّلت القبلة خشي المسلمون أن تكون الصلاة قد غيرت كذلك، فنزلت الفاتحة دليلاً على أن الصلاة لم يغير من جوهرها شيء، وهذا تعليل فيه أكثر من علة تحول بينه وبين أن يكون حقيقة من الحقائق. هذا من حيث الدراية.

أما من حيث الرواية فلا يملك أصحاب هذا القول أي رواية صحيحة، أو قريبة من الصحة.

---

(١) راجع: أول ما نزل.

(٢) الإتقان (١/ ١٢).

الفصل العاشر

المكي والمدني

تعريف المكي والمدني:

اختلف العلماء في تعريف المكي والمدني تبعاً للجهة التي نظر كل منهم إليها عند التقسيم، وخلاصة ذلك أن بعضهم نظر في تقسيم المكي والمدني إلى المخاطبين وبعضهم نظر إلى المكان، وآخرون نظروا إلى الزمان.

فالذين نظروا إلى المخاطب قالوا: إن المكي ما كان خطاباً لأهل مكة، وإن المدني ما كان خطاباً لأهل المدينة، والذين نظروا إلى المكان قالوا: إن المكي ما نزل في مكة، وإن المدني ما نزل في المدينة، أما الفريق الثالث وهم الذين نظروا إلى الزمان وهم الأكثرون من العلماء فقالوا: إن المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعد الهجرة.

موازنة بين هذه الأقوال:

وإذا نحن وازنا بين هذه الأقوال الثلاثة، فإننا سنعتمد منها قولاً واحداً وهو الذي ارتآه وارتضاه جمهور العلماء، وإليكم بيان ذلك:

أما القول الأول: فغير مطرد ولا منضبط، ذلك أن كثيراً من آيات القرآن بل بعض سوره أيضاً ليس فيها خطاب لأهل مكة ولا لأهل المدينة، وهناك سور جاءت خطاباً لرسول الله ﷺ . سورة الشمس مثلاً ليس فيها خطاب لأحد وكل من الضحى، الشرح، والكوثر خطاب لرسول الله ﷺ .

ثم إن هناك سوراً من سور القرآن الكريم اشتملت على خطاب المؤمنين مثل ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ وعلى خطاب الناس جميعاً مثل ﴿ يا أيها الناس ﴾ مع أنها مدنية باتفاق، وذلك كسورتي البقرة والنساء، لذا فهذا القول ليس حرياً بالقبول.

أما القول الثاني: فهو ليس منضبطاً ولا منحصراً، فإن كثيراً من آي القرآن الكريم، لم يكن نزولها في مكة أو المدينة، ألا ترى أن سورة براءة نزل كثير منها في تبوك، وسورة الفتح نزلت في منصرفه ﷺ من الحديبية، وهناك آيات نزلت في بعض أماكن الغزوات، وسيمر طرف من هذا في بعض الموضوعات.

والخلاصة: أن كلا القولين غير جامع ولا مانع، ويلزم عليهما أن تكون القسمة غير ثنائية.

والقول الثالث: خالٍ عن كل هذه الاعتراضات، فالقسمة عليه ثنائية، فالمكي ما نزل قبل الهجرة، أياً كان المكان الذي نزل فيه، والمدني ما نزل بعد الهجرة حتى إن كان المكان الذي نزل فيه مكة، فإنه لا يخرجه عن كونه مدنياً؛ لذا عد العلماء قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة:٣] مع اتفاقهم أنها نزلت في عرفة، من القسم المدني، ذلك أن هذا القول لوحظ فيه إقامة النبي ﷺ ، فطيلة إقامته في مكة سمي القرآن مكياً، حتى لو نزل في الطائف أو بيت المقدس، وطيلة إقامته ﷺ في المدينة، سمي القرآن مدنياً ولو نزل في مكة المكرمة أو تبوك.

المكي – إذن – ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها، وذلك تقسيم منضبط حاصر؛ لذلك كان هو المختار عند العلماء – رحمهم الله – .

فائدة معرفة المكي والمدني:

إن عناية المسلمين بالبحث عن المكي والمدني تعكس لنا الصورة المشرقة لعنايتهم بالقرآن الكريم، واهتمامهم به، وفي تلك العناية وذلك الاهتمام لأعظم دليل على سلامة النص القرآني من كل شائبة نقص أو زيادة أو تحريف.

ومن فوائد معرفة المكي والمدني كذلك الوقوف على السياسة الحكيمة التي سلكها القرآن الكريم في تربية هذا الإنسان، هذه السياسة التي تقوم على التدرج في الأحكام والتكاليف، وعلى البداية بالأولويات التي تتلاءم مع ما تقتضيه تلكم التربية الحكيمة، وقد تقدم لنا ما جاء عن السيدة عائشة في مبحث أول ما نزل وآخر ما نزل .

وعلى سبيل المثال: اشتمل القرآن المكي على تثبيت العقيدة في النفوس، والنهي عن الرذائل والأخلاق السيئة، وعمل على تثبيت هذه كلها بما ذكره من أنباء الأولين وقصصهم، كذلك كانت هناك إشارات ولمحات لبعض القضايا الكبرى التي فُصّل فيها القول التام في القرآن المدني، من ذلك الإشارة إلى ذم الربا والخمر، أما الربا ففي قوله سبحانه: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الروم:٣٩]، وسورة الروم مكية، وأما الخمر ففي قوله سبحانه: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [النحل:٦٧]، حيث وصف الرزق بالحسن، ونفي هذا الوصف عن الخمر، وهي لمحة ذكية يدركها العرب بفطنهم وسلائقهم.

وقد ذكروا من فوائد المكي والمدني كذلك معرفة الناسخ من المنسوخ، وأقول: إن المتتبع بدقة للآيات المنسوخة في القرآن الكريم لا يجد في الحقيقة آيات مكية منسوخة، اللهم إلا ما قيل عن آية المزمل وهي قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ

﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [المزمل:١-٢] وسيأتي لهذا بسط في موضع النسخ إن شاء الله.

ومن فوائد معرفة المكي والمدني تيسير فهم الموضوعات القرآنية بحيث تدرس القضايا القرآنية دراسة موضوعية مبنية على الترتيب الزمني بحيث تجمع النجوم المتفرقة في الموضوع الواحد الأول فالأول، وهذه الطريقة المثلى لدراسة ما يعرف اليوم بالتفسير الموضوعي.

كيفية معرفة المكي والمدني:

كيف نعرف المكي والمدني؟ وما هي الطرق التي بوساطتها نستطيع أن نحكم على كلٍّ منها؟ .

ذكر العلماء لمعرفة المكي والمدني طريقين اثنين: أحدهما: سماعي عمدته النقل، كأن يقول بعض الصحابة أو التابعين رضي الله عنهم: نزلت سورة كذا في المدينة، أو نزلت سورة كذا قبل الهجرة، كما روي عن السيدة عائشة أن قوله: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر:٤٦]، نزلت وهي طفلة في مكة، وأن سورة النساء نزلت في المدينة وهي في بيت الرسول ﷺ ، وكما روي عن بعض الصحابة أن قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ ﴾ [البقرة:١٩٥] نزلت في شأن الأنصار.. ومن تتبع هذا فسيجد كثيراً من هذا القبيل.

ويلحق بهذا أن تتحدث السورة الكريمة عن أمر عرف زمانه ومكانه، وذلك كسورة الأنفال التي تتحدث عن غزوة بدر، وسورة الإسراء التي تحدثت عن حدث الإسراء، ومن البدهي أن الأولى مدنية والثانية مكية.

والثاني: قياسي وهو ضوابط وخصائص لكل منهما.

ضوابط المكي:

على أننا يجب أن ننبه هنا قبل التحدث عن هذه الضوابط، على أنها ليست عامة، بمعنى أنها ليست في جميع السور المكية أو المدنية، كما ستعلمونه إن شاء الله.

١- وعلى سبيل المثال ذكروا من ضوابط المكي وجود كلمة (كلا)، التي ذكرت ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها مكية، فـ (كلا) لم تذكر في جميع السور المكية، لأن السور المكية أكثر من هذا العدد.

٢- كل سورة فيها سجدة فهي مكية، وهذان ضابطان مطردان، على معنى أن السور المدنية ليس فيها كلا، وليس فيها سجدة.

٣- كل سورة ذكر فيها قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، من حيث دعوتهم لأقوامهم لعبادة الله وحده، والابتعاد عن الرذائل الاجتماعية، واستثنى بعضهم سورة البقرة، ولا أرى ضرورة لهذا الاستثناء؛ لأن ما ذكر في سورة البقرة من ذكر إبراهيم وموسى عليهما السلام ليس من هذه الحيثية؛ أعني حيثية الدعوة إلى توحيد الله ونبذ عبادة غيره، فالحديث عن موسى عليه السلام كان عما جرى بينه وبين بني إسرائيل في قضايا خاصة، والحديث عن أبينا إبراهيم أبي الأنبياء وشيخ الحنفاء عن بناء الكعبة وما يتصل به.

ثم إذا استثنينا سورة البقرة، فلابد أن نستثني غيرها من السور المدنية، ففي سورة آل عمران قصة امرأة عمران وزكريا، وفي سورة المائدة نبأ من قصة موسى عليه السلام .

٤- كل سورة ابتدئت بالحروف المقطعة فهي مكية إلا الزهراوين البقرة وآل عمران.

٥- كل سورة ذكرت فيها قصة آدم عليه السلام فهي مكية إلا سورة البقرة، حيث ذكروا فيها ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً... ﴾ [البقرة:٣٠].

٦- كل سورة انفردت بـ (يا أيها الناس) دون نداء المؤمنين، وذلك مثل سورة يونس، وسورة الأعراف، أما إذا اجتمع النداءان، فالسورة مدنية، وذلك مثل سورة البقرة، وسورة النساء، فقد ذكر فيهما ﴿ يا أيها الناس ﴾ و ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ .

على أن هذين النداءين ذكرا في سورة الحج كذلك، وقد اختلف فيها، وسيأتيك نبؤها بعد حين إن شاء الله.

وإذا عرفنا هذا ندرك عدم دقة، بل خطأ المقولة التي شاعت عند كثير من الناس وهي أن كل ما في القرآن من ﴿ يا أيها الناس ﴾ مكي، فقد رأينا أن هناك آيات كثيرة مدينة. أما ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فكلها مدنية باتفاق «وإذا سألت عن سب ذلك فإن الإجابة ميسرة إن شاء الله، فـ ﴿ يا أيها الناس ﴾ تصلح أن تكون في المجتمع المكي والمدني، لأن هذا النداء للناس، أياً كان المكان الذي هم فيه، فهم في مكة المكرمة، وهم في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، أما ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فإنها ليست إلا في المدينة المنورة؛ ذلك أن المسلمين لم يكن لهم في مكة المكرمة مجتمع خاص بهم.

ضوابط المدني:

١- كل سورة ذكرت فيها الحدود والفرائض، فسورة النساء التي ذكرت فيها الفرائض، وسورة المائدة وسورة النور، اللتان ذكر فيهما بعض الحدود هي سور مدنية باتفاق.

٢- كل آية أمرت المسلمين بالجهاد والقتال، ولم أقل كل سورة ذكر فيها الجهاد؛ ذلك أن هناك فرقاً بين ذكر كلمة الجهاد في سورة، وبين أمر المسلمين بهذا الجهاد أو ترغيبهم فيه، فقوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا ﴾ [العنكبوت:٦٩] وهي آخر آية في سورة العنكبوت، آية مكية عند أكثر العلماء.

٣- كل سورة ذكر فيها المنافقون إلا سورة العنكبوت، وهذا ما يراه أكثر العلماء كذلك. والذي أرجحه أن الآيات التي ذكر فيها المنافقون مدنية، حتى في سورة العنكبوت؛ لأن هذا المصطلح – المنافقون – لم يظهر إلا في المدينة المنورة.

خصائص ومميزات كل من المكي والمدني:

ولعلك تتساءل – حفظك الله – عن الفرق بين الضوابط وبين الخصائص والمميزات؟ فاعلم أن الضوابط هي علامات ظاهرة قد تكون لفظية أو معنوية، إذا وجدت في سورة ما قيل: إنها مكية أو مدنية، وما عليك إلا أن ترجع إلى الضوابط التي ذكرناها.

أما الخصائص والمميزات فهي الأصول والمقاصد والأغراض والأساليب التي امتاز بها كل قسم[1].

خصائص القسم المكي:

نزل القرآن الكريم في مكة، وأهلها آنذاك مشركون يعبدون الأصنام وينكرون البعث، ومهما كان لهم من عادات طيبة فطروا عليها كالكرم والشجاعة، فقد كانت هناك عادات سيئة، ورذائل اجتماعية: كانوا يئدون البنات، ويقتلون الأولاد خشية إملاق، يقربون القرابة، ويرفعون شأن القبيلة فوق كل شأن؛ لذلك كانت عناية القرآن الكريم تتركز على تغيير عقائدهم،

---

(١) البيان في مباحث من علوم القرآن، عبدالوهاب عبدالجيد غزلان، ص١٣١.

وذلك كتثبيت عقيدة التوحيد في القلوب، وعلى تحويل العادات والأعراف إلى ما يتلاءم مع حقية الدين الجديد وإنسانيته وعالميته.

لذا كان من أصول القسم المكي الدعوة إلى التوحيد، ومناقشة المنكرين له، وإقامة الأدلة عليه. نقرأ ذلك في سورة الأنبياء ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:٢٣] وفي سورة المؤمنون ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ﴾ [المؤمنون:٩١] وفي سورة النمل ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ.. ﴾ [النمل:٦٠].

وضرب الأمثال لذلك كما نقرأ في سورة النحل ﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ... ﴾ [النحل:٧٤] وفي سورة الروم ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [الروم:٢٨] وفي سورة الزمر ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ [الزمر:٢٩].

كما بثت قواعد إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام، ورد شبهات الذين يزعمون أن الرسل لا يكونون من البشر، وأن الرسالة تخضع لمقاييس الناس، ومكانتهم ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٢٤].

كما ثبت عقيدة البعث وناقش ما يحيك في صدور القوم، وفنّد شبهاتهم، ودعا إلى مبادئ الأخلاق الفاضلة.

ولما كانت أخبار الأولين من أعظم الرسائل المؤثرة في النفوس، كثرت فيه القصص، قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبخاصة تلك التي تتصل بدعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أقوامهم إلى توحيد الله، ونبذ العادات السيئة.

تصحيح عقيدة الألوهية، والإيمان بالرسالات، وعقيدة البعث، والدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، وطرح الأخلاق الذميمة، هي أصول القسم المكي، ولقد سلك القرآن الكريم لتثبيت هذه المبادئ ذكر قصص الأولين وضرب الأمثال.

أما من حيث الأسلوب، فقد يمتاز كثير من السور المكية بالقصر، وقصر الآيات، والجزالة في تقرير القواعد، وعرض الأحداث والمشاهد، وذلك لسليقة القوم وسلامة فطرتهم اللغوية، ونبذهم لكل ما هو جديد، فكانت آياته قوارع مزمجرة كأنما هي الرعد القاصف، هذا إن كانت وعيداً، أما إذا كانت وعداً فلا تسل عن عذوبتها وسلاستها.

لنتدبر سورة الحاقة، سورة الغاشية، وسورة المرسلات والإنسان، وسنجد ما تقشعر له الجلود، ويثلج الصدور.

على أن من القسم المكي سوراً طويلة كسورتي الأنعام والأعراف، وذلك لما فيهما من كثرة الحجج كما في الأولى، والقصص كما في الثانية.

خصائص القسم المدني:

ما أعظم شأن القرآن الكريم في تربية النوع الإنسان، أما وقد ثبتت العقيدة في القلوب، وصقلت النفوس، وطرح السيئ من العادات، فما أحوج الناس إلى ما ينظم شؤون حياتهم، وعلاقاتهم في مناحي الحياة المتعددة، وهذا ما تكفل به القسم المدني، حيث ذكر فيه كثير من الأحكام التفصيلية التي تنظم شؤون الحياة، وتعرف كل واحد بما له وما عليه، لذا كانت الأحكام جُلّها في هذا القسم المدني.

ومما امتاز به هذا القسم كثرة الحديث عن أهل الكتاب، ودعوتهم إلى الحق ومناقشتهم في بعض ما حرفوه وبدلوه.

كما اشتمل هذا القسم على فضخ المنافقين، والتحذير من ألاعيبهم ومكرهم وكيدهم ذلكم أن النفاق لم يكن مشتهراً في مكة.

ومن خصائص القسم المدني بيان أحكام الجهاد والقتال، تمشياً مع طبيعة هذا الدين الذي جاء يحرر الناس من العبودية؛ والحديث عن اليهود وتحذير

المسلمين منهم، وبيان صفاتهم، وشدة عداوتهم للمؤمنين، وحقدهم على الإسلام ونبيه ﷺ .

هذه أصول القسم المدني. أما من حيث الأسلوب فيمتاز بطول آياته وكثير من سوره، ذلك لأن الحديث عن الأحكام يحتاج إلى شرح وتفصيل.

السور المكية والمدنية، وما يتصل بذلك:

لعل هذا المبحث هو أخطر ما في المكي والمدني، لكثرة ما فيه من الأقاويل والدعاوى التي تحتاج إلى تمحيص وتحقيق. وقد ذكروا أن سور القرآن الكريم منها ما هو مكي خالص، ومنها ما هو مدني خالص، وقالوا: إن هناك سوراً مكية فيها آيات مدنية، وسوراً مدنية فيها آيات مكية، وهذه لابد لها من مناقشة فيما بعد.

وهناك روايات كثيرة في بيان السور المكية والمدنية، ونرى أن أقربها إلى القبول ما نقله السيوطي عن ابن الحصار وهي: «أن المدني باتفاق عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشر سورة، وما عدا ذلك مكي باتفاق» . وقد نظمها في أبيات، فالمتفق عليه: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، النور، الأحزاب، محمد ﷺ ، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الجمعة، المنافقون، الطلاق، التحريم، النصر.

والمختلف فيه: الرعد، الرحمن، الصف، التغابن، الجن، المطففين، القدر، البينة، الزلزلة، الإخلاص، الفلق، الناس[1].

ومع كون هذه الرواية هي أقرب إلى القبول - كما قلت - إلا أننا نرى أنه لابد من إجراء بعض التعديل عليها، والذي نرجحه أن سورتي الصف والتغابن مدنيتان، وكذلك المعوذتان.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي (١/ ٤٤).

شبهات حول المكي والمدني

وردت كثير من الشبهات حول قضية المكي والمدني، نحصرها فيما يلي:

الشبهة الأولى:

ذكر المستشرقون أن القسم المكي تتصف آياته بقوتها الشعرية، وبتعبيرها الحيوي، وأن الآيات جاءت على شكل نثر مقفى، أي: مسجوع، أما القسم الثاني فكانت آياته مفصلة ومعقدة نثرية في مظهرها ولغتها، وقد احتوى على التشريعات والأحكام، بينما خلت الآيات المكية من ذلك، وقد كثر القسم في الآيات المكية بالأشياء المحسوسة، وذلك لأن القرآن كان متأثراً بالبيئة التي نزل فيها، فالعرب لا يدركون إلا المحسوسات ونقول أولاً:

إن التفرقة بين القرآن المكي والمدني أمر كانت له أبعاده ونتائجه، وهي قضية طالما عرض لها رجال التبشير والاستشراق على السواء، وردّدها بعدهم المتأثرون بهم، وكنا نود أن تتخذ دائرة المعارف منهجاً أقرب إلى الموضوعية والعلم، والنزاهة والإنصاف.

إن الغاية من تقسيم القرآن إلى أسلوبين هدفها إثبات أن هذا القرآن كان خاضعاً للبيئات المختلفة، فهو في مكة كان ذا أسلوب شعري يتفق مع لغة القوم وثقافتهم العربية المحدودة، ولكنه في البيئة المدنية كان متأثراً بأهل الكتاب الذين كانوا هناك من اليهود، والذين كان لهم من الثقافة ما لم يكن للعرب في مكة، كما أن لأهل مكة من السليقة اللغوية ما لم يكن لهؤلاء، وعلى هذا فالقرآن كان يخضع لأمزجة مختلفة، وثقافات متغيرة، فليس نسقاً واحداً، فآياته في مكة قصيرة ذات أسلوب وإيحاء قوي، ولكنها في المدينة كانت طويلة ذات أسلوب معقد، وهذه والحق يقال فرية لا تقوم على أساس من منطق، بيان ذلك:

إن القرآن المكي كان يعالج موضوعات معينة هدفها تثبيت عقيدة الألوهية، وما يتبعها من شؤون الرسالة والنبوة، وأنباء اليوم الآخر، وما يمكن أن ينمّي ذلك من أخلاق فاضلة، ولكي يتم التأثير جاءت القصص تُحدِّث عن الأولين، وما كان من شأنهم، لا من حيث الإيمان فحسب، ولكن من حيث الأمور المسلكية كذلك، كتطفيف المكيال والميزان، وتعظيم الناس من حيث أنسابهم وأموالهم، وفعل بعض الفواحش. وكل هذه من مقتضيات التربية، التي يهدف لها القرآن المكي، ولكن طبيعة الأحداث، تحتم أن يكون للقرآن المدني هدف آخر، فالجماعة المسلمة لابد لها من نظام شامل كي تحفظ نفسها من المنزلقات، وهذا النظام الشامل لابد أن يشمل مناحي الحياة جميعها، فعلاقة الأفراد بعضهم مع بعض، وعلاقة الجماعة بغيرها من الناس، كل أولئك كان الهدف الذي يوجه إليه القرآن، ويبين أسسه ويرسي قواعده.

ولكن اختلاف الموضوع قد ينتج عنه اختلاف الأسلوب من حيثية معينة، اللهم إلا حيثية الجودة وحسن الصياغة، ولنتصور أستاذاً يحاضر في أدب المسرح أو في أهداف الشعر، أو في أسلوب القصة، وآخر يتحدث في قضية من قضايا العلم كالطب والكيمياء، أو قوانين فيزيائية، وقد أعطي كل منهما القدرة على الشرح، وروعة الأسلوب، وحسن المحاضرة. إن عاقلاً لا يمكن أن يفرق بين هذين الأستاذين، بأن الأول كان سهل الأسلوب ميسره وبأن الثاني كان معقداً ركيكاً، بل إن كليهما رائع في شرحه، موفق في عرضه، ولكن طبيعة الموضوع المتحدث عنه هي التي تختلف من واحد لآخر، وهكذا أسلوب القرآن مكية ومدنية.

إن أي باحث منصف يتدبر آيات القرآن على اختلاف تنزلاتها، سيجد أن الأسلوبين سواء، لا يختلف أحدهما من حيث الجودة عن صاحبه، إن آية الدين في سورة البقرة (آية ٢٨٢)، وآيات المواريث في سورة النساء (الآيات ١١، ١٢)، وقضايا العقود في سورة المائدة وأحكام الآداب في سورة الحجرات وآيات

الجهاد في براءة (الآيات ١-٢٩)، كلها مدنية لا تختلف من حيث أسلوبها وجودتها عن آي القصص في سورة الشعراء، أو عن قواعد الوحدانية في سورة النمل، أو عن قضايا الأخلاق في سورة الإسراء، اللهم إلا أن طبيعة الموضوع نفسه تقتضي شيئاً من التغير في العرض، ولكن هذا التغير كما قلت، بعيد كل البعد عن صلب الأساسيات الأولى، من جودة النظم، وروعة الأسلوب وعلو شأنه، وبديع الصنعة، والتناهي في البلاغة، وتلك قضية يدركها كل من كان له أدنى اطلاع وأدنى معرفة بالأساليب مقبولها ومردودها على السواء.

ثانياً: أما القسم، فإن العرب كانوا يعرفون غير المحسوسات، فقد طولبوا بالإيمان بالله وبصفاته، ومما غاب عنهم من اليوم الآخر، وما فيه، وأقيمت عليهم الأدلة العقلية الكونية، وهذا الخطاب لا يمكن أن يكون لمن لا يدرك إلا المحسوسات.

«إن القسم بهذه الأشياء قد كثر في القسم المكي لأن دعوة أهل مكة كانت إلى أصول الإيمان من الإلهيات وغيرهما من بيان الحجج وغيرها، وبيان الحجج الدالة على ذلك، وفي القسم بهذه الأشياء العظيمة التنبيه على أنها آيات ودلائل على قدرة الله تعالى، والإشارة إلى ما في هذه الأشياء من المنافع العظيمة وبذلك تنتقل عقولهم من الاهتداء بها إلى الاعتراف بالخالق جل وعلا، والله تعالى أقسم لهم بما فيه النفع لهم من المحسوسات كالشمس والكواكب وغيرهما، أو المعنويات كالقرآن فقد أقسم به غير مرة، بل أقسم بنفس الإنسان، وبالرسول ﷺ لأن نفعه عام وهدايته شاملة، أرسله رحمة للعالمين.

أبعد هذا يقال: إن اشتمال القسم المكي على القسم بهذه المحسوسات دليل على تأثره بالبيئة»[1].

---

(١) منهج الفرقان في علوم القرآن، ص٩٤.

الشبهة الثانية:

يمتاز القسم المكي أيضاً بالهروب من المناقشة، وبالخلو من المنطق، فيقول: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [الكافرون:١-٦].

وأما القسم المدني، فهو يناقش الخصوم بالحجة الهادئة، والبرهان الساكن الرزين، فيقول: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:٢٢] .

وفي الرد على هذا الكلام نقول: صحيح أن في القرآن المدني حجة وبرهان، ولكن القسم المكي مفعم بهما كذلك، ولم يكن يهرب من المناقشة، بل كان يقرع بالحجة ويؤكد بالدليل، والآية التي استشهد بها القائل ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:٢٢] هي مكية، لا مدنية كما ادعى[١].

وفي القرآن المكي براهين رائعة ناصعة ظاهرة، تقمع الجاحد المعاند، وتدفع شبهته، وتقيم الدليل على أصول هذا الدين، والأمثلة في هذا كثيرة جداً[٢].

فمن الحجج على البعث، انظر إلى قوله تعالى في سورة (ق) المكية ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩

وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ [ق:٦-١١].

وفي سورة يس المكية ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس:٧٧-٧٩].

ومن البراهين على وجود الإله والخالق لهذا الكون، استمع إلى قوله تعالى في سورة النبأ المكية: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ [النبأ:٦-١٦].

وفي سورة الفرقان المكية ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان:٦١-٦٢].

ومن الأدلة على وحدانية الله تعالى، قوله في سورة المؤمنون المكية: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ

﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٤-٩١].

ومن المناظرات بين النبي ﷺ وبين كفار مكة، وفي الرد على افتراءاتهم، قوله تعالى في سورة الأحقاف المكية: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأحقاف:٨-٩].

وأما سورة الكافرون، التي استدل بها المدعي على الهروب من المناقشة، فإن لنزلوها قصة، حيث طلب كفار قريش من النبي ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة يجاريهم ويسكت عن معبوداتهم، وهذا مثل قوله سبحانه: ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم:٩] وهو ما يعبر عنه اليوم بالحرب الإعلامية، ويعبدوا إلهه سنة، فنزلت السورة سداً لطعنهم، وإيئاساً لهم أن يلين ﷺ ، أو يعترف بعبادة ما كانوا يشركون مع الله تعالى. وهذا ليس هروباً من المناقشة، إذ أقامت الآيات الحجج والدلائل عليهم في مواضع أخرى، وتأتي هنا تبكيتاً لهم، وإشعاراً بأنه لا سبيل لما يدّعونه أبداً.

الشبهة الثالثة:

يمتاز القسم المكي كذلك بتقطع الفكرة، واقتضاب المعاني، وقصر الآيات والخلو التام من التشريع.

أما القسم المدني، فهو ينفرد بالتشريعات الإسلامية، كالمواريث والوصايا والزواج والطلاق والبيع وسائر المعاملات، ولا شك أن هذا أثر واضح من آثار التوراة والبيئة اليهودية، التي ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة، يشهد بها هذا التغير الفجائي، الذي ظهر على أسلوب القرآن.

تفنيد هذه الشبهة:

إن المتدبر لآيات القرآن الكريم، يدرك بجلاء أن القرآن الكريم كله، مترابط متماسك، قصرت آياته أم طالت، وكأنها حبات لؤلؤ في عقد منتظم منسجم متناسق[1].

وإن قصر الآيات وطولها لا يقطع الصلة بين قسمي القرآن: المكي والمدني، بل إن الصلة - كما يحسها كل صاحب ذوق في البلاغة - محكمة بين كافة أجزاء التنزيل.

وكذلك فإن قصر الآيات وطولها أمر تابع للموضوع الذي تطرحه، فلكل موضوع حليته اللفظية التي تناسبه، وقد دارت أكثر الآيات المكية - كما أشرنا - حول العقيدة والإيمان، وخاطبت قوماً طغاة عتاة، فلابد أن الأسلوب الأوجز أوقع في القلب.

أضف إلى أن قصر الآيات مظهر إيجاز، وهو مظهر رقي المخاطب وآية فهمه وذكائه، بحيث يكفيه من الكلام موجزه، ومن الخطاب أقصره، وأهل مكة كانوا في الذؤابة من قبائل قريش ذكاءً وألمعية.

أما حين تنزل آيات التشريع والأحكام على قوم مؤمنين، فيجب أن تكون هادئة طويلة، حتى تبين وتوضح.

---

(١) لمزيد من الأمثلة والبيان، انظر: نقض مطاعن القرآن، ص٦٠. والمدخل لأبي شهبة: ٢٣٤. وما بعدها، ومناهل العرفان، ٢١٦. وما بعدها، وعلوم القرآن د. زرزور: ص١٤٤.

والإعجاز في النظم كان في القرآن الكريم كله، الذي تحدى العرب قاطبة على أن يأتوا بمثله، ولو بأقصر سورة منه فباؤوا بالعجز، على الرغم من أن قريشاً كانت أوسط العرب داراً، وأبرعهم في الخطاب والتفنن في الأساليب، واستمر التحدي لأهل المدينة كذلك، ولكنهم سكتوا، بل كان عجزهم أشد من عجز أهل مكة.

والقول بأن القرآن المدني تكثر فيه التشريعات، هذا أمر صحيح – ولكن ليس كما زعموا، بأنه تأثر بالبيئة – إنه أمر لابد منه في سياسة التربية، أن يبدأ بإصلاح القلوب، وتقويم العقيدة، حتى إذا استضاءت بنور الحق، كلفوا بالتشريعات والأحكام العملية.

وهذا أمر، قد ذكرناه عندما تحدثنا عن خصائص المكي والمدني، ومن غير المعقول أن يكلف بالفروع والأحكام من لم يتمكن الإيمان في قلبه، ويفرض مثلاً على كفار مكة أحكام المواريث والزواج والطلاق، وهم ينازعون في أصل العقيدة وفي نبوته ﷺ .

على أن القرآن المكي قد حوى جملة من الأحكام العامة التي عرض لها بطريقة إجمالية، كوصايا سورة الأنعام، وآيات سورة الإسراء، وغيرها.

بقي أن نوضح أن العديد من الشبهات التي تشير للفروق بين المكي والمدني، تهدف إلى الطعن في مصدر القرآن الكريم، فتقول بأنه كان بسيطاً ساذجاً في مكة، كما هو حال أهلها، وظهر عليه أمارات الثقافة والاستنارة في المدينة، وهذا من تأثير اليهود وثقافتهم عليه.

سبحان الله! كيف يأخذ القرآن الكريم من اليهود، أو يتعلم منهم، وقد عابهم في كثير من المواضع، وبيّن سفاهتهم، وظُلْمَهُم، وبغيهم، وخبث طباعهم، وتحريفهم للتوراة وتضييعهم للأمانة!! .

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة:٦٤].

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة:٧٨-٧٩].

وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة:٥].

وآيات كثيرة غيرها.. تذكر عيوبهم ورذائلهم.. فكيف يأخذ القرآن منهم، ويعجب بثقافتهم؟! كيف يأخذ المصيب من المخطئ، وكيف يستمد الحي حياته من ميت؟ .

لو كان ما ادعوه صحيحاً، وأن النبي ﷺ قد أخذ عن أهل الكتاب، وتعلم منهم، وتأثر بثقافتهم، لأظهروا ذلك دفاعاً عن أنفسهم، ولقالوا: كيف نعلمك، وتسفهنا وترمينا بالكفر والفسق والكذب؟! .

ولكنه لم يفعل، بل باؤوا بالخزي والمذلة، وكان موقف القرآن الكريم من اليهود، موقف المعلم الناقد والمتحدي، لا موقف المتعلم والآخذ المستفيد.

ويتبين لكل دارس يطلع على التشريع الإسلامي، الفرق بينه – بشموليته وعظمته وسعته – وبين التشريع اليهودي المخصص المحدود، الذي لا يصلح أن يكون أساساً لتشريع عام خالد وهو تشريع الإسلام الذي انتشل الإنسانية من

وهدتها، وأضاء النفوس بعد ظلمتها، وحرر العقول، وملأ الأرض هداية ورحمة وعلماً وعدلاً.

الشبهة الرابعة:

هناك موضوع آخر، يجب أن أنبهكم عليه وهو مسألة هذه الحروف العربية غير المفهومة التي تبتدئ بها بعض السور مثل: الـم، الـر، طس، كهيعص، حم عسق، إلخ..

فهذه الكلمات، ربما قصد منها التعميه أو التهويل، أو إظهار القرآن في مظهر عميق مخيف، أو هي رموز، وضعت لتميز المصاحف المختلفة التي كانت موضوعة عند العرب، فمثلاً (كهيعص) رمزاً لمصحف ابن مسعود، (حم عسق) رمزاً لمصحف ابن عباس (طس) رمزاً لمصحف ابن عمر، وهلم جرا، ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآناً.

في هذه الشبهة تناقض، فهي تقول تارة كانت منذ عهد النبي ﷺ وتقول أخرى بأنها رموز قد وضعت، وألحقت بمرور الزمن بالقرآن. أي أنها لم تكن منه أولاً، وهذا الاضطراب في الكلام يدل على أنه زور وبهتان.

لقد بالغ الصحابة والتابعون رضي الله عنهم في العناية بالقرآن الكريم والمحافظة عليه من أي دخيل، حتى لو كان حرفاً، وشددوا في تجريد المصحف من كل ما ليس قرآناً، فلا يعقل القول بأن شيئاً قد ألحق بالمصحف بمرور الزمن.

والقول بأن هذه الألفاظ ليس لها مدلول، أمر غير صحيح، فقد ذكر العلماء في معناها: أنها أسماء للسور، أو تنبيه للسامع إلى ما يتلى بعدها، وقيل: إنها من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه، والذي يرجحه أكثر العلماء، أنها للإعجاز والتحدي لهؤلاء العرب الذين تتألف لغتهم من مثل تلك الحروف ومع ذلك فقد عجزوا عن أن يأتوا بمثله[1].

---

(١) لمزيد من البيان انظر: مناهل العرفان: ١/ ٢٢٧، وما بعدها.

وهكذا نلاحظ من خلال ما سبق من الشبهات أنه تركز على بيان الفروق بين القرآن المكي والمدني، لتخلص إلى فكرة تأثر القرآن بالوسط الذي نزل فيه، أي أنه من كلام محمد ﷺ وإن صح هذا، فكيف لا يختلف أسلوبه عن أسلوب الحديث النبوي؟! .

لكل منهما أسلوب ونظم واضح بيّن، ولو لاحظنا التدرج في السور القرآنية، لوجدنا أن ما نزل في آخر العهد المكي كسورة النحل والعنكبوت وغيرها، قريبة في أسلوبها وبعض معانيها مما نزل في أول الهجرة، فالفروق بينها لم تكن جذرية، وإنما هو أسلوب التدرج في التعليم، وفوارق نابعة من طبيعة الموضوعات.

فهذه الشبهه لا تعدو أن تكون هراءً من القول، وزوراً من متعصب جاهل بالقرآن الكريم ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [الصف:٨].

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤١-٤٢].



الفصل الحادي عشر

رسم المصحف

يختلف كثير من المصطلحات باختلاف أجيال الناس، ومن ذلك كلمة الرسم، فإن مجرد النطق بها في أيامنا يوحي بمدلول خاص، لهذه الكلمة.

إنه (محاكاة صور الأشياء جماداً كانت أم غيره) فهذا يرسم شجرة وذلك يرسم كوكباً، وثالث يرسم منزلاً. ولكن كلمة الرسم التي يتحدث عنها العلماء إنما تعني (الطريقة التي تكتب بها الحروف والكلمات).

فرسم الحرف هو الكيفية التي تكتبه بها، وإنما تحدث العلماء عن رسم المصحف وأفردوا له موضوعاً خاصاً به؛ لأنه الطريقة التي كُتب بها تختلف عما ألفناه من طرق الخط والكتابة.

فمن المعلوم أن الكلمات العربية تكتب كما تنطق؛ فليس هناك حروف نكتبها جون أن ننطق بها، كما نجد في بعض اللغات، ولكن الطريقة التي كتب عليها القرآن الكريم، تختلف من جهات متعددة عن الخط المألوف - القياسي - وهذه الجهات التي خالف بها الرسم - الخط القياسي - سماها بعضهم قواعد وفي هذه التسمية نوع من التجوز لأن القاعدة ينبغي أن تكون منضبطة تشمل أشياء متشابهة كقولهم (الفاعل مرفوع)، (المعدن يتمدد بالحرارة).

لكن كثيراً مما خالف فيه الرسم العثماني - الخط القياسي - لا يندرج تحت قاعدة منضبطة، بل هي كلمات إذا أردنا معرفتها، فلابد أن نعدها عداً،

صحيح أن هناك بعضاً مما يندرج تحت قاعدة لكنه قليل كما ستعرفه – إن شاء الله – .

الجهات التي خالف فيها الرسم العثماني الخط القياسي :

وهناك أمور ستة خالف فيها الرسم الخط القياسي هي[1]:

١- الحذف: وتحذف الألف من ياء النداء نحو ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ ومن هاء التنبيه نحو ﴿ هَٰٓأَنتُمْ ﴾، ومن نا مع ضمير نحو ﴿ أَنجَيْنَٰكُم ﴾.

ومن ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ و ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ واسم الجلالة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ و ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ و﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ إلا في قوله سبحانه: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى ﴾ [الإسراء:٩٣]. ومن كل علم زائد على ثلاثة حروف نحو ﴿ إِبْرَٰهِيمَ ﴾، ﴿ صَٰلِح ﴾ ...

ومن كل جمع سالم لمذكر أو لمؤنث نحو ﴿ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾، و﴿ مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ إلا في قوله: ﴿ طَاغُون ﴾ في الذاريات والطور ﴿ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾ وبعض الاستثناءات.

وتحذف الياء من كل منقوص منون رفعاً وجراً نحو ﴿ بَاغٍ ، عَادٍ ﴾. وحيث وقع ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾، ﴿ وَٱتَّقُونِ ﴾، ﴿ وَخَافُونِ ﴾.. ونحوها إلا بعض الاستثناءات مثل ﴿ وَٱخْشَوْنِى ﴾ في البقرة.

وتحذف الواو مع أخرى نحو ﴿ فَآءُو ﴾ و ﴿ فَبَآءُو ﴾، ﴿ ٱلْمَوْءُۥدَةُ ﴾، ﴿ يَـُٔوسًا ﴾ وتحذف اللام مدغمة في مثلها نحو ﴿ ٱلَّيْل ﴾، ﴿ ٱلَّذِى ﴾ إلا بعض الاستثناءات مثل ﴿ ٱللَّهْوِ ﴾، ﴿ ٱللَّغْوِ ﴾ .

---

(١) راجع الإتقان، ٢/ ١١٦٤ وما بعدها، طبعة الدكتور البغا.

٢- الزيادة: زيدت ألف بعد واو الجمع نحو ﴿ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾، ﴿ مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾، ﴿ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾. بخلاف الفعل منفرداً كان أو جمعاً، منصوباً أو مرفوعاً نحو ﴿ فَبَآءُو ﴾، ﴿ جَآءُو ﴾، ﴿ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ وزيدت بعد الهمزة المرسومة واواً نحو ﴿ تَفْتَؤُاْ ﴾، وفي ﴿ مِاْئَةَ ﴾ و﴿ مِاْئَتَيْنِ ﴾ و﴿ ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ و﴿ ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾، وزيدت واو في أولوا وفروعه.

٣- الهمز: يكتب الساكن بحرف حركة ما قبله أولاً أو وسيطاً أو آخراً إلا في قوله: ﴿ فَٱدَّٰرَْٰٔتُم ﴾، ﴿ وَرِءْيًا ﴾، ﴿ شَطْـَٔهُۥ ﴾.

والمتحرك إن كان أولاً أو اتصل به حرف زائد كتب بالألف مطلقاً إلا ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ ﴾، ﴿ أَئِذَا مِتْنَا ﴾، ﴿ لَئِنْ ﴾، ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم ﴾ وغيرها وإن كان متوسطاً فبحرف حركته إلا، ﴿ لَأَمْلَـَٔنَّ ﴾، ﴿ امْتَلَـَٔت ﴾، ﴿ اشْمَـَٔزَّت ﴾ وغيرها.

وإن كان آخراً فبحرف حركة ما قبله إلا في مواضع ﴿ تَفْتَؤُاْ ﴾، ﴿ يَتَفَيَّؤُاْ ﴾، وهكذا..

٤- في البدل: تكتب الألف واواً في، الصلوة، الزكوة..

وتكتب ياءاً في ﴿ يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾، ﴿ يَٰحَسْرَتَىٰ ﴾، ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ ﴾... في كل ما أصلها ياء وكانت الألف منقلبة عنها.

وتكتب نون التوكيد الخفيفة ألفاً ﴿ لَنَسْفَعًا ﴾، ﴿ وَلَيَكُونًا ﴾.

وتكتب تاء التأنيث هاءً، وخالف رسم المصحف في ﴿ رَحْمَتَ ﴾ في عدة مواضع، و﴿ نِعْمَتَ ﴾، و﴿ سُنَّتُ ﴾ كذلك وغيرها.

٥- في الفصل والوصل: هناك مواضع وصلت فيها بعض الألفاظ ومواضع فصلت فيها نفس الألفاظ من ذلك «أن لا» فقد وصلت هكذا «ألاّ» في كل المواضع إلا عشرة منها ﴿ أَن لَّآ أَقُولَ ﴾ و ﴿ أَن لَّا يَقُولُواْ ﴾ الأعراف، ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُواْ... ﴾ يس.

ومن ذلك (عما) وصلت في كل القرآن إلا ﴿ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ ﴾.

ومن ذلك (كلما) وصلت في القرآن إلا ﴿ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ ﴾، ﴿ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾.

ومن ذلك (أمّن) وصلت إلا ﴿ أَم مَّن يَكُونُ ﴾ النساء ﴿ أَم مَّنْ أَسَّسَ ﴾، ﴿ أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ الصافات ﴿ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا ﴾.

ومن ذلك (إنما) توصل في القرآن كله إلا ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ ﴾، وغير ذلك كثير.

٦- فيما فيه قراءتان، فكتب على إحداهما: ومن ذلك ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، ﴿ يُخَٰدِعُونَ ﴾، ﴿ غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾، ﴿ ٱلرِّيَٰحِ ﴾، ﴿ تُفَٰدُوهُمْ ﴾، ﴿ تَظَٰهَرُونَ ﴾.

ومن ذلك ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ﴾، ﴿ بَصْۜطَةً ﴾ في الأعراف ﴿ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴾، ﴿ بِمُصَيْطِرٍ ﴾ كلها كتب بالصاد لا غير.

ومن ذلك ما يكتب موافقاً لقراءة شاذة نحو ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾، ومنه ﴿ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ ومنه ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ ﴾.

هذه بعض أمثلة ذكرناها لك باختصار يناسب المقام وإن أردت المزيد والاستقصاء فارجع إلى البرهان أو الإتقان تجد لك فيه متسعاً وتفصيلاً والله ولي التوفيق.

آراء العلماء في التزام الرسم العثماني:

إن مخالفة الرسم العثماني - الخط القياسي، كانت الأساس لمذاهب العلماء فمنهم من رأى أن مجيء الرسم على هذا الشكل لم يكن إلا لأمر من الشارع - لذا فهو توقيفي تحرم مخالفته، ومنهم من رأى أن مجيئه على ما هو عليه لا يعدو أن يكون أمراً يخضع لاختلاف الكاتبين، لذا هو اصطلاحي ليس بواجب الاتباع، ولكل من هذين القولين أدلة وحجج.

أما الفريق الأول - القائلين بأن الرسم توقيفي - ومنهم الإمام مالك ﷺ وقد قيل له: «هل تكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء؟ قال: لا، إلا على الكتبة الأولى» .

وسئل أيضاً عن الألف والواو المزيدتين، هل يغيرا من المصحف إذا وجدا فيه كذلك؟ فقال: لا، ومنهم الإمام أحمد - رحمه الله - قال: تحرم مخالفة خط مصف عثمان في ياءٍ أو واو أو ألف أو غير ذلك.

ومنهم البيهقي قال: «من كتب مصحفاً فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف ولا يخالف فيه، ولا يغير مما كتبوه شيئاً، فإنهم كانوا أكثر علماً، وأصدق قلباً ولساناً، وأعظم أمانة منا، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم» .

ومنهم أبو عبيد قال: «اتباع حروف المصاحف عندهم كالسنن القائمة التي لا يجوز لأحد أن يتعداها»[١].

---

(١) هذه الأقوال ذكرها الزركشي في البرهان، ج١، ص٣٧٦-٣٨٠.

أدلتهم: استدل هؤلاء على مدعاهم بـ:

١- أن الرسول ﷺ كان كلما نزل شيء من القرآن دعا من يكتبه، وكان له كتبة للوحي، وكان النبي ﷺ يقرهم على هذه الكتابة، وما دام الأمر كذلك، فإن كتابة المصحف مما لا تجوز مخالفته لأنه ثابت بتقرير النبي ﷺ .

٢- إجماع الصحابة على ما فعله عثمان ورضاهم به، إذ لم ينقل عن أحد مخالفته.

٣- ما روي عن النبي ﷺ أنه قال لمعاوية «ألق الدواة، وحسّن الخط ودوِّر الميم، ومد السين...» الحديث[1].

٤- اختلاف كتابة الكلمات المماثلة فكلمة (واخشوني) في البقرة كتبت بالياء أما في المائدة فبدون ياء في موضعين منها، ولولا أمر التوقيف ما وجد هذا الاختلاف.

أما الفريق الثاني الذين ذهبوا إلى أن الرسم اصطلاحي ومنهم أبو بكر ابن الباقلاني وابن خلدون - رحمهما الله - فقد استدلوا بـ:

١- أن المصحف - رسمه - لم يرد في وجوب التزامه نص من كتاب أو سنة ولم يرد فيه كذلك إجماع.

وناقشوا أدلة الفريق الأول:

١- أما تقرير النبي ﷺ ، فإنه يفيد الجواز، ثم إن تقريره ﷺ كل الذي يفيده صحة الكتابة بقطع النظر عن كيفيتها.

---

(١) الحديث ضعيف، رواه الديلمي في «الفردوس بمأثور الخطاب» ، ٥/ ٣٩٤، الحديث (٨٥٣٣).

٢- كذلك ما رووه عن النبي ﷺ - إن صح وما إخاله كذلك - فلا ينهض لهم دليلاً؛ لأنه يتحدث عن قضايا عامة ليس فيها تفصيل لجزئيات الخط.

٣- أما رضا الصحابة - رضوان الله عليهم - فلا ينهض دليلاً كذلك؛ إذ كل ما فيه موافقتهم على ما ذهب إليه عثمان من جمع الناس على حرف واحد، دون النظر إلى الصورة التي رسم بها كل حرف من حروف القرآن وكلماته.

٢- أما اختلاف رسم الكلمات، فلقد استدل له الفريق الثاني على مذهبهم كذلك. قالوا: إن اختلاف الكلمات في الرسم، دليل بين على أن الكتابة اصطلاحية تختلف باختلاف الكاتبين.

ومن الذين دافعوا عن الرأي الأول صاحب الإبريز - ابن المبارك - وشيخه عبدالعزيز الدباغ.

فهذان قولان يصعب الجمع بينهما لما بينهما من تضاد.

فوائد الرسم العثماني :

ومما تجدر الإشارة إليه أن اتباع هذا الرسم له فوائد متعددة حرية بالعناية نذكر منها:

١- حمل الناس على أخذ القرآن عمن عرف رسم المصحف، وألا يكتفى بأخذه من المصحف، لما يترتب عليه من اللبس، وعدم القراءة بالقراءة الصحيحة، وبهذا لا يوجد قارئ للقرآن إلا له شيخ أخذ عنه، زيادة في التثبت من ألفاظ القرآن وكيفيات النطق بها. فوق ما فيها من اتصال سند قراءة القارئ إلى رسول الله ﷺ ، وتلك من خصائص هذه الأمة، امتازت بها عن سائر الأمم.

٢- الدلالة على أصل الحركة، ككتابة الكسرة ياءً والضمة واواً في نحو (إيتاءو ذي القربى)، (سأوريكم آياتي)، أو للدلالة على أصل الحرف ككتابة (الصلوة)، (الحيوة)، (الزكوة).

٣- إفادة المعاني المختلف بالرسم مثل وَصْلِ، (أمّن) في قوله: ﴿ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا ... ﴾ [الملك:٢٢] وفصلها في قوله: ﴿ أم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلاً ﴾ [النساء:١٠٩] فإن المفصولة تفيد معنى بل دون الموصولة.

٤- الدلالة على بعض اللغات الفصيحة ككتابة هاء التأنيث تاء في لغة طيّئ ومثل حذف آخر المضارع المعتل لغير جازم كقوله: «يوم يأت» في لغة هذيل.

٥- المحافظة على ما كان في عهد النبي ﷺ وأجمع عليه الصحابة.

* * *

الفصل الثاني عشر

المحكم والمتشابه

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران:٧].

شغلت قضي المحكم والمتشابه، الفكر الإسلامي في القديم والحديث، وتعددت فيه كلمات العلماء، واختلفت أقوالهم وتباينت آراؤهم، ولكل وجهة هو موليها.

وسنحاول إن شاء الله أن نجمع الموضوع، ونلم لكم بأشهر الأقوال مختارين ما نراه الأرجح، والأقرب إلى روح الشرع بأسلوب سهل، نجنبك فيه وعورة المسلك، والله من وراء القصد.

المعنى اللغوي:

المحكم: أصله حكم، ومعناه منع، ومنه سميت اللجام: حكمة الدابة، فقيل: حَكَمْتُهُ وحَكَمْتُ الدابة: منعتها، وأحكمت الشيء فاستحكم صار محكماً، واحتكم الأمر واستحكم وثق[1]. وبهذا المعنى فإن القرآن الكريم محكم

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني، ص١٢٦، لسان العرب مادة حكم (١٢/ ١٤٣).

كله؛ لأنه يمنع من تدبره وعمل به من السوء والشر، والانحراف في العقيدة، والفساد في المسلك، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١].

أما المتشابه فهو من شبه، ومعناه المماثلة، والمماثلة بين أمرين تعني أن لا يتميز أحدهما عن الآخر لما بينهما من التشابه، وقيل: متماثلات في الكمال والجودة، والمتشابهات من الأمور المشكلات(١).

والقرآن الكريم متشابه كله من حيث مجيئه بأفصح الألفاظ، وأبلغ التراكيب، وأصح المعاني، وأحسن النظم، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ [الزمر:٢٣].

فآي القرآن الكريم كلها صدق، وكلها حق، وكلها فيها الهداية، والسعادة والخير لا فرق في ذلك بين قصصه وأمثاله وأحكامه العملية والاعتقادية.

أقسام المتشابه:

ينقسم المتشابه في اصطلاح العلماء قسمين اثنين:

الأول: المتشابه اللفظي؛ وهو ما نجده بين بعض آيات القرآن الكريم، كأن تقدم جملة في آية، وتؤخر في آية أخرى، أو أن نجد كلمة في آية ولا نجدها في أخرى، وذلك مثل قوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ

(١) المفردات للراغب الأصفهاني، ص٢٥٤، لسان العرب، مادة شبه (١٣/ ٥٠٤).

وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا ﴾ [البقرة:٣٥] وقوله في سورة الأعراف: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [الأعراف:١٩] وفي سورة البقرة: ﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ ﴾ [البقرة:٥٨] وفي سورة الأعراف: ﴿ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ [الأعراف:١٦١] ، وفي سورة هود: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا ﴾ [هود:٧٧] وفي سورة العنكبوت: ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا ﴾ [العنكبوت:٣٣]. وفي سورة النساء: ﴿ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ [النساء:١٣٥] ، وفي سورة المائدة: ﴿ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [المائدة:٨] .

وهذا القسم هو من أعظم روافد الإعجاز، وقد ألفت فيه كتب كثيرة، منها «متشابه القرآن» للكرماني، و«ملاك التأويل» لأبي جعفر بن الزبير، و«درة التنزيل» المنسوب للإسكافي، وهذا القسم ليس هو محل الخلاف بين العلماء.

الثاني: وهو الذي يقابل المحكم، وهو الذي يعنيه العلماء في هذا المبحث، وهو الذي نقصر حديثنا عليه.

آراء العلماء في معنى الإحكام والتشابه:

ولما كان المحكم والمتشابه ليس من الأمور التوقيفية التي ورد الشرع ببيان تفسيرها ومعناها، بل كان من الأمور التوفيقية والاجتهادية كثرت فيهما الأقوال، وإليكم جملة من هذه الأقوال نذكرها، ثم نعلّق عليها؛ تعليقاً موجزاً مجملاً، من غير إطناب ولا تفصيل.

١- قالوا المحكمات الناسخات، والمتشابهات: المنسوخات، يروى عن ابن عباس وقتادة والضحاك.

٢- إحكامها بيانها وإيضاحها، وهو قول ابن كيسان.

٣- المحكمات ما فيه من الحلال والحرام وما سوى ذلك متشابه يصدق بعضه بعضاً، روي هذا القول عن مجاهد وعكرمة.

٤- المحكم ما لم تشتبه معانيه، والمتشابه: ما اشتبهت معانيه، روي كذلك عن مجاهد.

٥- المحكم ما لم يتكرر لفظه، والمتشابه المكرر لفظه، روي عن أبي زيد.

٦- المحكم: ما يعرف بتعيين تأويله، والمتشابه: ما لا يعرف بتعيين تأويله نحو ذكر الساعة روي عن جابر بن عبدالله.

٧- المحكم: ما لا يحتمل إلا وجهاً، والمتشابه: ما احتمل أكثر من وجه، روي عن محمد بن جعفر بن الزبير.

٨- المحكم: ما كان خبراً لا يلحقه نسخ، والمتشابه: الناسخ والمنسوخ، اشتبه عليهم، لا يعلمون منتهى ما يصير إليه أمره وأمر العمل به.

٩- المحكمات الآيات الثلاث في آخر الأنعام ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام:١٥١] إلى ثلاث آيات، والمتشابه ما تشابه عليهم نحو الـم، الـر، يس، روي عن ابن عباس[١].

١٠- المحكم: ما كان معقول المعنى، والمتشابه بخلافه كأعداد الصلاة واختصاص الصيام برمضان.

١١- المحكم: الذي يعمل به، والمتشابه: الذي يؤمن به ولا يعمل به[٢].

---

(١) ذكر الأقوال التسعة الأولى الإمام أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي، في تفسيره التحصيل في التفصيل.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي.

ونظرة عجلى في هذه الأقوال، تجعلنا نحكم على كثير منها بالرد وعدم القبول، فهناك أكثر من قول، روي عن إمام واحد، فابن عباس رضي الله عنهما روي عنه القول الأول والقول التاسع، ونكاد نجزم بعدم ثبوت ذلك عنه، من حيث الرواية ومن حيث المعنى معاً، فالقول بأن المحكم غير منسوخ، غير معقول ولا مقبول، وذلك لورود كل من هذين في كتاب الله على حدة، فلقد تحدث القرآن عن النسخ في قوله: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ [البقرة:١٠٦]، وفي قوله ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ [النحل:١٠١]، وتحدث عن الإحكام في قوله ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ ﴾ [آل عمران:٧].

كذلك القول بأن المحكم آيات ثلاث من سورة الأنعام قول لا يقبل؛ لأنه لا يعقل أن تكون هذه الآيات وحدها هي المحكمة في كتاب الله، اللهم إلا أن يكون ذلك من باب التمثيل للمحكم.

كذلك روي أكثر من قول عن مجاهد، «وقد ذكر هذه الأقوال وغيرها الإمام الزركشي – رحمه الله – في كتابه الفذ في أصول الفقه «البحر المحيط» فراجعه إن شئت»[(١)].

ثم إن هذه الأقوال بعضها يتداخل في بعضها الآخر، ويمكن أن نرجع المقبول منها إلى رأيين اثنين:

الأول: أن المحكم ما وضح معناه، والمتشابه ما لم يتضح معناه إلا بعد إجالة نظر وإعمال فكر.

الثاني: أن المحكم ما علم معناه وكان في دائرة الإمكان، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه. وهناك قول ثالث اختاره السهيلي نذكره فيما بعد إن شاء الله.

---

(١) (١/ ٤٥).

وعلى هذين المذهبين تدور أقوال العلماء، وإلى القول الأول ذهب أكثر المفسرين، منهم ابن قتيبة، وأبو إسحاق الشيرازي، والإمام الغزالي والرازي والنووي والراغب والأصفهاني.

وذهب إلى هذا القول من المحدثين الشيخ محمد رشيد رضا، وابن عاشور، والشيخ محمد بن يوسف اطفيش، والأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين.

أما المذهب الثاني، وهو أن المتشابه ما استأثر الله بعلمه، فقد ذهب إليه الحنفية، وروي عن الإمام مالك، ومال إليه الشاطبي. يقول: «فالتشابه حقيقي وإضافي، فالحقيقي: ما لا سبيل إلى فهم معناه وهو المراد من الآية، والإضافي ما اشتبه معناه لاحتياجه إلى مراعاة دليل آخر، فإذا تقصى المجتهد أدلة الشريعة وجد فيها ما يبين معناه، والتشابه بالمعنى الحقيقي قليل جداً في الشريعة، وبالمعنى الإضافي كثير»[1].

فالشاطبي – رحمه الله – يرى أن المتشابه الحقيقي هو ما استأثر الله بعلمه، إذ لا سبيل إلى معرفته وهو قليل في الشريعة كما يقول، أما المتشابه الإضافي فهو كثير في الشريعة، وبهذا يوافق المذهب الأول في معنى المتشابه.

مناقشة هذين القولين:

إن أصحاب المذهب الأول بنوا ما ذهبوا إليه على أساسين اثنين: النقل والعقل. أما النقل، ففي آيات كثيرة من كتاب الله مثل قوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل:٨٩] وقوله: ﴿ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود:١] وقوله: ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [ص:٢٩].

---

(١) الموافقات (٣/ ٩١).

وقوله: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر:٢٨]، وقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [محمد:٢٤]، وقوله: ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [الزخرف:٢]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ [القمر:٣٢]. ومثل هذه الآيات كثيرة.

ومن الأحاديث النبوية، قول النبي ﷺ : «وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظاناً»[1]، ودعاؤه ﷺ لابن عباس أن يعلمه الله التأويل.

أما العقل فبأن الله تبارك وتعالى، وهو الحكيم، لا يكلف الناس ما لا يطيقون، ومن حكمته أن لا يتعبدهم بما يعجزون عن فهمه ولا يستطيعون إدراكه؛ لأن ذلك يتنافى مع التفسير.

أما أصحاب المذهب الثاني، فيستدلون على ما ذهبوا إليه من وجود المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، بأن ذلك للابتلاء، حتى يتبين المؤمنون الصادقون، فذكر ما لا يستطيع الناس فهمه، وقبولهم له، وتسليمهم به من غير مراء من أقوى الأدلة على صدق الإيمان، وهو الذي يتفق مع معنى العبودية.

ويحسن قبل أن نوازن بين القولين، أن نذكر بعض ما ذكروه من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، فمن ذلك: علم الساعة، والروح، والدجال، والدابة، وعدد الركعات، وتخصيص بعض الشعائر بأوقات معينة، والحروف المقطعة في فواتح السور، وآيات الصفات.

والمتدبر لهذه جميعها يجد أنها لا تصلح ليستدل بها على ما ذهبوا إليه، فجلها ليس محلاً للنزاع بين المسلمين، ذلك أن النزاع والخلاف في أن نقرأ آية من كتاب الله لا يعقل معناها، أو لا يستطيع أحد معرفتها.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنة ونعيمها (١٧/ ١٩٨ شرح النووي).

إن تحرير محل النزاع، ضرورة لابد منها في أي قضية من قضايا الخلاف، فالخلاف ليس في تحديد وقت الساعة، أو توقيت خروج الدابة والدجال، يقول الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٧].

فهذه الآية الكريمة ومثيلاتها لا يجد أي قارئ إشكالاً في فهمها، وهي ناطقة بأن الله وحده عنده علم الساعة، فزمن الساعة ليس له صلة من قريب أو بعيد في فهم الآيات الكريمة، ونزاعنا نحن ليس في هذا، بل هو في كون آية من كتاب الله يمكن أن يفهمها الناس أو لا يمكنهم ذلك.

كذلك القول في توقيت خروج الدجال والدابة، ثم إن أمر الدجال غير مذكور في كتاب الله، فلا أدري لم يقحم في أمر المحكم والمتشابه! ، أما الدابة فقد جاء فيها قول الله: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل:٨٢]، فهذه الآية الكريمة بينة الفهم ميسرة المعنى، أما متى ذلك؟ وما صفات هذه الدابة؟ ذلك من معنى الآية بمعزل.

وما قيل في هذه يقال في تخصيص بعض الشعائر بعدد معين، وبأوقات معينة، مثلاً عدد الركعات لم يذكر في القرآن الكريم، أما تخصيص شهر رمضان بالصوم، فمع أنه ليس من محل نزاع كذلك، لأن النزاع – كما قلنا – في كون آية غير مفهومة المعنى، أقول: أما تخصيصه بالصوم فيمكن أن تتلمس له الحكمة وهو أنه نزل فيه القرآن.

وكذلك يقال في أمر الروح، فالآية ظاهرة المعنى، ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء:٨٥] أما ماهية الروح فليس مما يتعلق به لفظ الآية الكريمة.

بقي أمران اثنان يمكن أن يكون لأصحاب هذا القول فيهما متمسك، وهما الحروف المقطعة، وآيات الصفات.

أما الحروف المقطعة فقد ذهب المحققون من العلماء بأن لها معنى معقولاً، فعلى حين ذهب بعضهم إلى أنها أسماء للسور، ذهب الأكثرون إلى أنها حروف افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم للتحدي والتنبيه وقرع الأسماع، أما التحدي ففي أن هذا القرآن الذي كان معجزة سيدنا رسول الله ﷺ ليس إلا من لغتكم فكلماته هي كلماتكم التي تنطقون، وحروفه هي حروفكم كذلك، هذه هي: الـم، الـر، طسم، ومع ذلك فقد عجزتم أن تأتوا بسورة من مثله، وأما التنبيه وقرع الأسماع، فليحثهم على أن يتنبهوا لما سيتلى عليهم بعد هذه الحروف التي لم يألفوا سماعها ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَ ﴾ [البقرة:١-٢]، ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ [هود:١]، ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴾ [الحجر:١]، ﴿ طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴾ [النمل:١].

أما آيات الصفات فإن اختلاف العلماء فيها ليس ناشئاً عن عدم الفهم، بل هو ناشئ عن أمر آخر، وهو أن الله تبارك وتعالى ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ [الشورى:١١]، فلا يشبه الحوادث، لذا اختلف العلماء في فهمها، فبعضهم أبقاها على ظاهرها، وفوّض العلم فيها إلى الله دون تشبيه أو تعطيل، وآخرون – وهم الأكثرون – ذهبوا مذهباً آخر فأوّلوها بما يتفق مع تنزيه الله عز وجل وتقديسه ومع ما يتفق كذلك مع أسلوب القرآن العربي المبين. وقصد كلا الفريقين حسن نبيل، نسأل الله أن يثيب الجمع من فضله.

وبعد هذا البيان، نحسب – والله أعلم – أن القول بأن في القرآن الكريم ما لا تستطيع العقول إدراكه، ليس منسجماً، مع تيسير القرآن للذكر، ومع الحكمة الإلهية، يقول العلاّمة الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق – رحمه الله –: «ونختار بعد هذا أن في القرآن آيات متشابهات أي غير واضحة الدلالة، فإما أن تصل إليها أفهام الراسخين في العلم بعد النظر، وإما أن تصل إليها أفهام بعض منهم دون بعض، وفهمها إما أن يكون على وجه مفصل، وإما أن يكون على وجه مجمل تحصل به فائدة للمخاطب، وإن لم يصل إلى كنه المراد منه، كالآيات والأحاديث الواردة في بعض أحوال يوم القيامة، أما أن يخاطب الله عباده بكلام يستأثر بعلمه، ولا يفهم منه أحد ماذا أريد منه، ولو بطريق الإجمال فذلك ما نراه بعيداً، ولم تقم أدلة تلجئنا إلى اعتقاد وجوده»[١].

وهناك قول ثالث نقله الزركشي في البحر المحيط عن السهيلي – رحمهما الله تعالى – يقول السهيلي: اختلف الناس في الوقف عند قوله: ﴿ إلا الله ﴾ والمختار عندي مذهب ثالث، وهو قول ابن إسحاق: إن الكلام تم عند قوله: (إلا الله) وقوله: (والراسخون) مبتدأ، ولكن لا نقول: لا يعلمون تأويله، بل يعلمونه برد المتشابه إلى المحكم، وبالاستدلال على الخفي بالجلي، وعلى المختلف فيه بالمتفق عليه، فيتفق بذلك الحجة. والله تعالى يعلم تأويله بالعلم القديم لا بتذكر ولا تفكر ولا دليل، والراسخون يعلمونه بالتذكر والتدبر»[٢].

وأظنك تجد تشابهاً بين قول السهيلي وبين قول الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين – رحمه الله – وكلاهما يرجع إلى أنه ليس في القرآن الكريم ما ليس بمعلوم – نعم – الناس يتفاوتون ويفتح الله تعالى أبواب الفهم في كتابه لمن أراد من عباده، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

---

(١) بلاغة القرآن، ص٤٣.

(٢) ص٤٥٧.

حكمة ورود المتشابه:

إن الحكمة من المتشابه تختلف باختلاف الآراء فيه، فأما الذين يرون أن المتشابه ما استأثر الله بعلمه، فتتخلص حكمة المتشابه عندهم في أنه مما ابتلى الله به عباده، وتعبدهم به فهم يؤمنون به دون أن يعلموا المراد منه.

أما عند الفريق الآخر وهم الذين يرون أن المتشابه ما خفيت دلالته، فيذكرون له فوائد كثيرة، قال الإمام البيضاوي: عن حكمة المتشابه في القرآن الكريم «... ليظهر فيها فضل العلماء ويزداد حرصهم على أن يجتهدوا في تدبرها، وتحصيل العلوم المتوقف عليها استنباط المراد بها، فينالوا بها وبإتعاب القرائح في استخراج معانيها، والتوفيق بينها وبين المحكمات معالي الدرجات..»[1].

وقول الإمام الرازي: «واعلم أن العلماء ذكروا في فوائد المتشابهات وجوهاً:

الوجه الأول: أنه متى كانت المتشابهات موجودة، كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب، قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٢] .

الوجه الثاني: لو كان القرآن محكماً بالكلية لما كان مطابقاً إلا لمذهب واحد، وكان تصريحه مبطلاً لكل ما سوى ذلك المذهب، وذلك مما ينفر أرباب المذاهب عن قبوله وعن النظر فيه، فالانتفاع به إنما يحصل لما كان مشتملاً على المحكم وعلى المتشابه، فحينئذ يطمع صاحب كل مذهب أن يجد فيه ما يقوي

---

(١) أنوار التنزيل (٢/ ٤).

مذهبه، ويؤثر مقالته، فحينئذ ينظر فيه جميع أرباب المذاهب، ويجتهد في التأمل فيه كل صاحب مذهب، فإذا بالغوا في ذلك صارت المحكمات مفسرة للمتشابهات، فبهذا الطريق يتخلص المبطل عن باطله ويصل إلى الحق.

الوجه الثالث: أن القرآن إذا كان مشتملاً على المحكم والمتشابه، افتقر الناظر فيه إلى الاستعانة بدليل العقل، وحيئنذ يتخلص عن ظلمة التقليد، وصل إلى ضياء الاستدلال والبينة، أما لو كان كله محكماً لم يفتقر إلى التمسك بالدلائل العقلية فحينئذ كان يبقى في الجهل والتقليد.

الوجه الرابع: لما كان القرآن مشتملاً على المحكم والمتشابه، افتقروا إلى تعلم طرق التأويلات وترجيح بعضها على بعض، وافتقر تعلم ذلك إلى تحصيل علوم كثيرة من علم اللغة والنحو، وعلم أصول الفقه، ولو لم يكن ذلك كذلك لما كان يحتاج الإنسان إلى تحصيل هذه العلوم الكثيرة، فكان إيراد هذه المتشابهات لأجل هذه الفوائد الكثيرة.

الوجه الخامس: وهو السبب القوي في هذا الباب، أن القرآن كتاب مشتمل على دعوة الخواص والعوام بالكلية، وطبائع العوام تنبو في أكثر الأمر عن إدراك الحقائق، فمن سمع من العوام في أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا بمتحيز ولا مشارٍ إليه، ظن أن هذا عدم ونفي فوقع في التعطيل، فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما يتوهمونه ويتخيلونه، ويكون ذلك مخلوطاً بما يدل على الحق الصريح، فالقسم الأول وهو الذي يخاطبون به في أول الأمر يكون من باب المتشابهات، والقسم الثاني وهو الذي يكشف لهم في آخر الأمر وهو المحكمات، فهذا ما حضرنا في هذا الكتاب، والله أعلم بمراده[1].

---

(١) تفسير الفخر الرازي (٧/ ١٨٥).

الفصل الثالث عشر

الناسخ والمنسوخ

اعلموا – أرشدكم الله وإياي – أن النسخ من الموضوعات التي أولاها العلماء عنايتهم، وبينوا خطره وشأنه وأهميته في فهم الدين، ولا نجد علماً من العلوم الشرعية إلا وللنسخ فيه مدخل، لذا وجدنا علماء التفسير وعلماء الحديث وعلماء الفقه وأصوله، وجدنا أولئك جميعاً يتحدثون عن النسخ فيما عرضوا له من بحوث، ولكن الذين كانوا أكثر عناية بالحديث عن النسخ هم علماء أصول الفقه، حيث فصَّلوا فيه القول، وذكروا مسائله ودقائقه، وعرضوا لجزئياته وقضاياه.

أما الكاتبون في علوم القرآن فإن ما يعرضون له قضايا كلية وأمور عامة ودون التفصيل الدقيقة للجزئيات والمسائل، وسنجري على سننهم نسير على منوالهم فنذكر ما يتصل به من أمور عامة وبعض قضاياه الكلية.

تعريف النسخ :

يطلق النسخ في اللغة إطلاقين اثنين:

أحدهما: الإزالة يقال: نسخ الريحُ الأثرَ، ونسخت الشمسُ الظلَّ.

ثانيهما: النقل: ومنهم قولهم: نسخت الكتاب، ولعل هذا المعنى هو المقصودُ في موضوع الاستنساخ الذي أثير هذه الأيام، وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية:٢٩].

النسخ في الاصطلاح:

اعلموا أن هناك صلة لا تنقطع بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي فالنسخ في الاصطلاح: رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متراخٍ عنه.

ويحسن بنا أن نقف عند هذا التعريف لنرى ما يؤخذ منه وما يترتب عليه.

أولاً: يؤخذ من هذا التعريف أن المنسوخ لابد أن يكون حكماً ثبت بالشرع، ومن هنا نعلم أن إبطال عادات الجاهلية وما أشبهها لا يسمى نسخاً. مثال ذلك: كان الظهار في الجاهلية لا كفارة له، تنقطع به عُرى الزوجية، وجاء القرآن الكريم يبين أحكام الظهار وكفارته، فهذا البيان لا يعدّ نسخاً؛ لأن النسخ رفع حكم شرعي، وعادات الجاهلية ليست كذلك، كذلك الأحكام المستأنفة لا تُعدُّ نسخاً كإباحة التجارة في موسم الحج، وتحريم بعض النساء بسبب الرضاعة.

ثانياً: يؤخذ من التعريف أن النسخ لا يكون إلا للأحكام، أما الأخبار سواء أكانت قصصاً أم أخلاقاً أم عقائد فلا يدخلها النسخ؛ لأن النسخ رفع حكم شرعي.

ثالثاً: ويؤخذ من التعريف أيضاً أنه لابد من تعارض بين الحكم الناسخ والحكم المنسوخ بحيث يعذر الجمع بينهما، أما إذا أمكن الجمع فلا نسخ، وهذا هو المسلك الذي يتبعه العلماء، لا يذهبون إلى القول بالنسخ إلا بعد مراحل من البحث.

رابعاً: ومما يرشد إليه التعريف: أن المنسوخ ينبغي أن يكون حكماً دائماً غير مغياً بغاية فقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء:١٥]، فهذا الحكم في الآية الكريمة لم يأت حكماً

دائماً بل كان مُغيّاً، أي: ينتهي إلى غاية بدليل قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴾ [النساء:١٥] فهو يحمل نهايته في أثنائه.

ولذلك قال رسول الله ﷺ فيما بعد من حديث عبادة بن الصامت: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»(١).

قال الإمام القرطبي رحمه الله: وهذا نحو قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ [البقرة:١٨٧] فإذا جاء الليل ارتفع حكم الصيام لانتهاء غايته لا لنسخه. هذا قول المحققين المتأخرين من الأصوليين، فإن النسخ إنما يكون في القولين المتعارضين من كل وجه اللذين لا يمكن الجمع بينهما(٢).

خامساً: يدل التعريف على أن رفع الحكم إذا لم يكن بحكم شرعي فليس ذلك نسخاً، وذلك كرفع الحكم الذي يكون بسبب الموت أو لسقوط التكليف لجنون، فذلك كله لا يسمى نسخاً.

النسخ إذن: يكون في الأحكام الشرعية ولا يدخل الأخبارَ، ولابد فيه من تراخي الناسخ عن المنسوخ، ولابد أن يكون الحكم الناسخ معارضاً للحكم المنسوخ بحيث لا يمكن الجمع بينهما.

مما تقدم ندرك:

أولاً: أنه إذا أمكن الجمع بين نصين ظاهرهما التعارض فلا بد أن يُصار إليه ولا يُعدُّ ذلك من قبيل النسخ، مثاله قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ

---

(١) أخرجه الإمام مسلم: باب حد الزنى، رقم ١٦٩٠.

(٢) تفسير القرطبي ٥/ ٨٥.

حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ [البقرة:٢٢١] ثم قال سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة:٥] فالآية الأولى قدمت الزواج من المشركات، والعلماء مجمعون على أن أهل الكتاب يَصدقُ عليهم هذا الوصف، وفي الآية الثانية إباحة الزواج من الكتابيات والمحققون من العلماء لم يروا نسخاً في هذه القضية، بل رأوا أن الآية الثانية مخصصة للأولى، فالآية الأولى حرمت نكاح المشركات، وهذا الوصف يشمل الكتابيات وغيرهن من الوثنيات والملحدات، ثم جاءت الآية الثانية فخصصت الحكم وأخرجت منه الكتابيات.

ثانياً: إن ما كان من باب التدرج في الأحكام لا يسمى نسخاً وذلك كالآيات التي تحدثت عن تحريم الخمر والربا وكذلك آيات الجهاد، ومن هنا ندرك: أن كثيراً مما أدخلوه في باب النسخ ليس منه.

الطريقة إلى معرفة النسخ :

عرفنا أن النسخ رفع حكم شرعي بدليل شرعي متراخٍ عنه. ولكن ما هي الطريق لمعرفة النسخ؟ .

إن أهمية النسخ وما يترتب عليه من نتائج أمر لا بد فيه من الحيطة لذا فإن الحكم على أحد النصين بأنه ناسخ أو منسوخ لا يخضع لاجتهاد المجتهدين كما لا يؤخذ فيه بقول لا يستند إلى حجة، كما أن طريق النسخ لا يكون بالاجتهاد فإنه لا يُقبل فيه قول مُفسّر حتى قول الصحابي ما لم يثبت بطريق صحيح ويكون هذا القول مؤيداً بقرائن.

كما أنه ليس من طرق معرفة النسخ تقدم الآية أو تأخرها في كتاب الله، بحيث يقال: إن الآية المتقدمة منسوخة والمتأخرة ناسخة، لأننا نعلم أن ترتيب القرآن في المصحف يختلف عن ترتيب النزول، الا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة:٢٣٤] جاءت قبل قوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ... ﴾ [البقرة:٢٤٠] والآية الأولى ناسخة والثانية منسوخة.

لا بدّ إذن من أن يكون طريق معرفة الناسخ طريقاً يؤمن فيه الزلل ومن طرق معرفة النسخ:

أولاً: أن يكون أحد النصين فيه دلالة على تأخره عن النص الآخر وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ﴾ [الأنفال:٦٦] فإن في هذا النص دلالة على أنه متأخر عن قوله تعالى: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ﴾ [الأنفال:٦٥]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [المجادلة:١٣] فإن هذا النص يحمل معه برهان تأخره عن الآية الكريمة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ [المجادلة:١٢].

كذلك قول النبي ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها»[١] فغنه دال على تأخر الإباحة عن النهي.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه في زيارة أمه، حديث رقم ١٠٦، باب ٣٦، انظر ٧/٤٦ شرح النووي.

ثانياً: من طرق معرفة النسخ الإجماع على أن أحد النصين هو الناسخ.

ثالثاً: أن يثبت ذلك من قول الصحابة رضوان الله عليهم، أما تفرد أحد الصحابة بالقول، فلا يكون طريقاً لمعرفة النسخ لأنه يمكن أن يقوله اجتهاداً[(1)].

الفرق بين النسخ والتخصيص:

أولاً: التخصيص قصر العام على بعض أفراده وليس كذلك النسخ بل هو عام لجميع الأفراد، فالآيات المنسوخة التي تحدثنا عنها من قبل لا يستثنى منها شيء، فحكم المتوفى عنها زوجها أن تعتد أربعة أشهر وعشراً حكم عام لكل من كانت كذلك، أما التخصيص فليس كذلك، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة:٥]، إن هذا الحكم لا يشمل المعاهدين والمستأمنين بل هو مقصور على غيرهم.

وإلى قوله سبحانه: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ [البقرة:٢٢٨]، فإن لفظ الآية الكريمة يدل على أن عدة المطلقة هذه القروء الثلاثة سواء أقلنا: القرء: الحيض أو الطُهر، ولكننا نعلم أن هناك مطلقات لا يشملهن هذا الحكم فقد تكون المطلقة حاملاً.

كذلك قوله سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة:٢٣٤]، فالآية الأولى بينت عدة المطلقة ثلاثة قروء سواء أكان القرء الحيض أم الطهر. والآية الثانية: بينت عدّة المتوفى عنها زوجها.

والحكم الأول: يصدق على كل مطلقة، والثاني يصدق على كل من توفي عنها زوجها، ولكننا نقرأ آية ثالثة في كتاب الله وهي قوله تعالى: ﴿ وَأُولَاتُ

(١) مناهل العرفان، الزرقاني، ج٢/ ١٠٥.

ﭐلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ ﴾ [الطلاق:٤] والآية تتحدث عن العدة فهي متصلة بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ ﴾ [الطلاق:٤]، فالآية الكريمة بينت أن عدةَ الحامل وضعُ حملها أياً كانت المدة شهراً أم يوماً أم ساعة، وهذه تشمل المعتدة من طلاق أو وفاة فهي مخصصة لغيرها، فأنت ترى أن التخصيص لا يبطل الحكم العام، بل قصره على بعض أفراده، فعدة المطلقة ثلاثة قروء، وعدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً إذا لم يكن حمل، أما إذا كان حمل فالعدة وضعه، وهكذا نجد أن لكل آية ميداناً خاصاً بها وهذا يختلف اختلافاً تاماً عن النسخ.

ثانياً: الفرق بين النسخ والتخصيص: أن الناسخ والمنسوخ كلاهما حقيقة فقول الله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم ﴾ [البقرة:٢٤٠] والآية الناسخة لها ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗا ﴾ [البقرة:٢٣٤] كلتاهما حقيقة لا يدخلها مجاز.

أما في التخصيص فقد ذهب جمهور العلماء إلى أن النص الذي دخله التخصيص يصير مجازاً، ويعنون به المخصَّص، ذلك لأنه خرج منه بعض أفراده فقوله سبحانه: ﴿ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [التوبة:٥] خُصِّص بالمعاهدين ومن في حكمهم فكلمة المشركين في الآية الكريمة لا تشمل جميع الأفراد كذلك المطلقات في قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ ﴾ [البقرة:٢٢٨] لا تشمل جميع الأفراد فقد خرج منهن ذوات الحمل، وعلى هذا يقال في هاتين الآيتين: أطلق الكل وأراد الجزء، فالمشركون والمطلقات لفظان عامان خرج بعض أفرادهما في نص آخر وهذا هو المجاز.

فأنت تعلم: أن إطلاق الكل وإرادة البعض مجاز مرسل علاقته الكلية، ومنه قوله سبحانه: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم ﴾ [البقرة:١٩].

ثالثاً: الناسخ لابد أن يكون متراخياً كما مرّ من قبل، أما التخصيص فقد يكون مقارناً أو متراخياً.

رابعاً: الناسخ لا يكون إلا حكماً شرعياً، أما المخصّص فقد يكون الشرع أو العقل أو الحس، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف:٢٥] والشيء يشمل فيما يشمل الأرض والسموات، والعقل والحس يشهدان بأن الأرض والسموات غير داخلين في ما دمرته هذه الريح التي أرسلت على عاد.

كذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٠] فإن شيئاً في الآية الكريمة لا تشمل إلا الممكنات، فلا تشمل واجب الوجود – وهو الله سبحانه ولا ما هو واجب في حكم العقل – كما لا تشمل المستحيلات التي يحيلها العقل فالقدرة لا تتعلق إلا بالممكنات، فوظيفة القدرة – كما يقول المتكلمون – إيجاد الممكن أو إعدامه، أما الواجب والمستحيل فلا معنى لتعلق القدرة بهما كما هو مبسوط في علم التوحيد، لذا فقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يخصص الشيء هنا بالممكن وحده، والمخصص هو العقل.

خامساً: النسخ لا يكون إلا في الأحكام، أما التخصيص فيكون فيها وفي غيرها كما مر في الآيات السابقة، فقد يكون في الأحكام كما مرة في قوله سبحانه: ﴿ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة:٥] وقد يكون في الأخبار كما في قوله: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ ﴾ .

سادساً: والناسخ كما علمتم من قبل يجب أن يكون منفصلاً عن المنسوخ على معنى أن الآية الناسخة غير متصلة بالآية المنسوخة بل هي متراخية عنها، أما التخصيص فقد يكون المخصِّص متصلاً بالمخصَّص وقد يكون منفصلاً عنه.

النسخ بين المقرين والمنكرين

جواز النسخ ووقوعه:

نازع بعض الناس في جواز النسخ، وقالوا: إن النسخ لا يجوز عقلاً، ونرد على هؤلاء، بأن النسخ لا يلزم عليه محظور عقلي من جهة، وبأن نسخ الشرائع بعضها ببعض من الأمور التي لا مجال لإنكارها، ومن الذين ينكرون جواز النسخ عقلاً اليهود، والمحدثون من علماء النصارى. وقد ساوى بعضهم بين البداء وبين النسخ.

والبداء: ظهور الشيء بعد خفاء قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْأَيَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [يوسف:٣٥] والحق أن هناك فرقاً كبيراً بين النسخ والبداء، فالنسخ ليس ظهوراً بعد خفاء فالله تبارك وتعالى يعلم الأمور كلها ما كان منها وما سيكون وعلى هذا فإن للنسخ حِكَماً عظيمة تظهر فيها حكمة الله ورحمته بعباده، أما وقوع النسخ في كتاب الله تعالى وهذا الذي يعنينا فقد كاد العلماء يجمعون عليه – اللهم – إلا ما قيل عن أبي مسلم من أنه ينكره ثم رأينا من المحدثين من تمحّل وتكلف القول في إنكار النسخ، وأبو مسلم إمام من أئمة المسلمين كان معتزلياً وقد تبرّز في كثير من العلوم فهو مفسر نحوي.

وقد استدل القائلون بوقوع النسخ – وهو الراجح – في كتاب الله تعالى:

١- قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:١٠٦].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل:١٠١-١٠٢].

ولكن الآية الأولى لا تدل على ثبوت النسخ في القرآن الكريم ، وذلك لأن هذه الآية جاءت في سياق إقامة الحجة على اليهود الذين أنكروا رسالة الإسلام وبعثة سيدنا محمد ﷺ ، مدّعين أنهم لا يؤمنون إلا بما أنزل عليهم، وبأنه ليس هناك دين بعد دينهم، فالآية جاءت رداً عليهم في إنكارهم رسالات الأنبياء، والمعنى أن حكمة الله تعالى اقتضت أن ينسخ بعض الرسالات، ويأتي بغيرها، فالآية إذن حديث عن الرسالات ونسخ بعضها ببعض، وليست حديثاً عن آيات القرآن الكريم وأحكام التشريعية.

إن قضية النسخ في كتاب الله تعالى قضية ثابتة قد عرفها الصحابة رضوان الله عليهم، وروي عنهم.

الآيات المنسوخة:

بالغ كثيرون في عدّ الآيات المنسوخة، فقد روي عن الإمام محمد بن حزم أن عددها (٢١٤)، وأوصلها الإمام أبو القاسم هبة الله بن سلامة إلى (٢٣٥) آية والإمام عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، أوصلها إلى (٢٧٤) آية، وعدَّها أبو جعفر النحاس (١٣٨) آية، والإمام عبدالقادر البغدادي جعل الآيات المنسوخة ستاً وستين (٦٦) آية، وكان أكثرهم اقتصاداً وأقلهم عدداً الإمام السيوطي حيث جعل الآيات المنسوخة عشرين آية.

والذي نرتضيه بعد البحث والاستقصاء أن الآيات المنسوخة في كتاب الله تعالى هي بضع آيات.

١- قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة:١٨٠] قيل: إنها منسوخة بقول النبي ﷺ : «ألا لا وصية لوارث» (١) وقيل بل بالآية الكريمة: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ [النساء:١١] .

٢- قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ [البقرة:١٨٤] نسخها قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة:١٨٥].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ [البقرة:٢٤٠]، منسوخ بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة:٢٣٤].

٤- قوله تعالى: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [الأنفال:٦٥] منسوخ بقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ ﴾ [الأنفال:٦٦].

٥- قوله تعالى: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ [الأحزاب:٥٢] منسوخ بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ﴾ [الأحزاب:٥٠].

٦- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ [المجادلة:١٢] منسوخ بقوله تعالى: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ﴾ [المجادلة:١٣].

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الوصايا باب لا وصية لوارث، رقم ٣٨٢٦.

٧- قيل إن قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [المزمل:١-٢] منسوخ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ ﴾ [المزمل:٢٠].

نسخ القرآن بالسنة:

اختلف العلماء في جواز نسخ آيات القرآن الكريم بالسنّة النبوية الشريفة، فقد روي عن الشافعي: أن القرآن لا ينسخ إلا بقرآن، وروي هذا القول عن أحمد بن حنبل، وروي عن المالكية والحنفية جواز نسخ القرآن بالسنّة. واستدل كل فريق منهم بأدلة، والذي أراه أن كل ما ذكروه من نسخ بعض الآيات بالسنّة جدير بالمناقشة حري بالتأمل، خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [البقرة:١٨٠] فقد قالوا إنها نسخت بقوله ﷺ : «ألا لا وصية لوارث» ولكن بعد التأمل تجد أن هذه الآية نسخت بآية الموارث: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾ [النساء:١١] وعليه فإن الآية القرآنية لا تنسخ إلا بآية قرآنية.

أقسام النسخ:

قسم العلماء النسخ إلى ثلاثة أقسام:

١- نسخ الحكم مع بقاء التلاوة.
٢- نسخ التلاوة مع بقاء الحكم.
٣- نسخهما معاً، أي: التلاوة والحكم.

أما القسم الأول، فقد مثلوا له بأمثلة كثيرة، وقد ذكرت لك الراجح في الآيات المنسوخة وعددتها لك.

أما القسم الثاني فقد مثلوا له بما جاء في بعض الأخبار عن السيدة عائشة: كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نُسِخن بخمس

معلومات، فتوفي النبي ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن[1]. ومما روي، كنا نقرأ الشيخ والشيخة فارجموهما البتة .

أما القسم الثالث فقد مثلوا له بالأثر السابق (عشر رضعات معلومات يحرمن» .

والحق الذي عليه كثير من العلماء أنه ليس في كتاب الله إلا القسم الأول وهو نسخ الحكم مع بقاء التلاوة، فقد أنكروا الضربين الآخرين، لأن الأخبار فيها أخبار آحاد، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها. وقد فصلت القول في هذه الأخبار في كتابي إتقان البرهان في علوم القرآن فارجع إليه وفقك الله.

* * *

---

(١) صحيح مسلم كتاب الرضاع باب التحريم بخمس رضعات (١٤٥٢).

الفصل الرابع عشر
الأحرف السبعة

إن من أعظم موضوعات علوم القرآن، وأكثرها أهمية وأعظمها شأناً وخطراً، الحديث عن الأحرف السبعة، وعن القراءات القرآنية، وهما وإن كان أحدهما وثيق الصلة بالآخر؛ فلقد درج العلماء على جعلهما في مبحثين اثنين ولن نخرج نحن عن هذا المسلك إن شاء الله.

وبادئ بدء تجدر الإشارة إلى أن الروايات في الأحرف السبعة، روايات كثيرة مبسوطة في كتب السنّة منها الصحيح، وقد يكون فيها غير الصحيح كذلك. وسنقفك على هذه الروايات إن شاء الله.

كذلك الأقوال في معنى هذه الأحرف كثيرة، منها المقبول ومنها غير المقبول، وسنقتصر على ذكر بعض الروايات في الأحرف السبعة، كما سنقتصر على أصح الأقوال التي قيلت في معانيها.

الروايات في الأحرف السبعة:

١- روى الإمام البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: أقرأني جبريل على حرف، فراجعته، فلم أزل أستزيد ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»[1].

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، فضائل القرآن. باب أنزل القرآن على سبعة أحرف (٤/ ١٩٠٩) حديث رقم ٤٧٠٥، وفي كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة (٣/ ١١٧٧) حديث =

وزاد مسلم: قال ابن شهاب[1]، بلغني أن تلك السبعة أحرف إنما هي في الأمر الذي يكون واحداً، لا يختلف في حلال ولا حرام.

٢- وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عمر بن الخطاب ﷺ قال...

سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان، في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة، لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فانتظرته حتى سلّم، ثم لببته بردائه أو بردائي، فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، قلت له: كذبت، فوالله إن رسول الله ﷺ أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها، فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروفٍ لم تقرئنيها، وأنت أقرأتني سورة الفرقان فقال رسول الله ﷺ: أرسله يا عمر. اقرأ يا هشام، فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤها.

قال رسول الله ﷺ: هكذا أنزلت، ثم قال رسول الله ﷺ إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه[2].

= ٣٠٤٧، ومسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف (١/ ٥٦١)، حديث ٢٧٢، ورواه أحمد في مسنده (١/ ٢٦٣).

(١) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب، أبو بكر الزهري، أول من دوّن الحديث تدويناً موسوعياً وأحد الفقهاء الأعلام التابعين بالمدينة، توفي عام ١٢٤هـ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: فضائل القرآن، أنزل القرآن على سبعة أحرف ٤/ ١٩٠٩ ح٤٧٠٦ وباب من لم ير بأساً أن يقول سورة البقرة، وسورة كذا وكذا، ٤/ ١٩٢٣، ح٤٧٥٤، والخصومات، كلام الخصوم بعضهم في بعض، ٢/ ٨٥١، ح٢٢٨٧، استتابة المرتدين والمعاندين، ما جاء في التأويل ٦/ ٢٥٤١، ح٦٥٣٧، التوحيد، قول الله تعالى: ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ ﴾ [المزمل:٢٠] ٦/ ٦٧٤٤، ح٧١١١. =

٣- روى مسلم وأبو داود والنسائي واللفظ لمسلم عن أبيّ بن كعب ﷺ قال:إن النبي ﷺ كان عند أضاة بني غفار[1]، فأتاه جبريل ﷺ فقال: إن الله يأمرك أن تُقرِئ أمتك القرآن على حرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك، ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تُقرِئ أمتك على حرفين، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك، ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تُقرِئ أمتك على ثلاثة أحرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك، ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تُقرِئ أمتك القرآن على سبعة أحرف، فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا[2].

هذه بعض الأحاديث الواردة في هذا الموضوع، وقد روي حديث نزول القرآن على سبعة أحرف من طرق عدة في الصحاح وفي كتب السنن، ومصنف ابن أبي شيبة، ومسند أحمد، ومستدرك الحاكم، وعند الطبري والطبراني وغيرهم.

= ومسلم في صحيحه: صلاة المسافرين، بيان أن القرآن على سبعة أحرف ١/ ٥٦٠، ح(٨١٨).
وأبو داود في سننه: الصلاة، أنزل القرآن على سبعة أحرف ٢/ ١٥٨، ح١٤٧٥.
والترمذي في سننه: القراءات، ما جاء أنزل القرآن على سبعة أحرف ٥/ ١٩٣، ح٢٩٤٣.
وأحمد في مسنده: ١/ ٢٤، ٤٠، ٤٢، ٢٦٣. والطبري في تفسيره: ١/ ١٣، وبتحقيق أحمد شاكر ١/ ٢٤، ح١٠.

(١) أضاة بني غفار: هي بفتح الهمزة وبضاد معجمة مقصورة، وهي الماء المستنقع كالغدير وجمعها أضا. كحصاة وحصا. انظر صحيح مسلم بشرح النووي ٦/ ١٠٤ وفي رواية عند أحمد (٥/ ١٣٢) عند أحجار المراي.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ١/ ٥٦٢، ح(٨٢١) (٢٧٤)، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف، ٢/ ١٦٠، ح(١٤٧٨)، والنسائي في سننه: الافتتاح، باب جامع ما جاء في القرآن، ٢/ ١٥٢، ح(٩٣٩)، وأبو داود الطيالسي في مسنده ٧٦، ح(٥٥٨)، والطبري في تفسيره ١/ ١٧، وبتحقيق أحمد شاكر ١/ ٤٠، ح(٣٥).

قال السيوطي رحمه الله: «ورد حديث نزول القرآن على سبعة أحرف من رواية جمع من الصحابة: أبيّ بن كعب، وأنس، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن أرقم، وسمرة بن جندب، وسليمان بن صُرَد، وابن عباس، وابن مسعود، وعبدالرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وعمر بن الخطاب، وعمر بن أبي سلمة، وعمرو بن العاص، ومعاذ بن جبل، وهشام بن حكيم، وأبي بكرة، وأبي جهيم، وأبي سعيد الخدري، وأبي طلحة الأنصاري، وأبي هريرة، وأم أيوب، فهؤلاء واحد وعشرون صحابياً»[1]. وقد أغفل السيوطي: عبادة بن الصامت، وعبدالله بن عمر، فصار الإحصاء ثلاثة وعشرين.

وقال ابن الجزري: «وقد نص الإمام الكبير أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله على أن هذا الحديث تواتر عن النبي ﷺ . قلت: «وقد تتبعت طرق هذا الحديث في جزء مفرد جمعته في ذلك» ثم عد من روى هذا الحديث من الصحابة رضي الله عنهم. وقال: وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده الكبير أن عثمان ﷺ قال يوماً وهو على المنبر: «أذكِّر الله رجلاً سمع النبي ﷺ قال: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ، لما قام، فقاموا حتى لم يُحصوا، فشهدوا أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ» فقال عثمان ﷺ : «وأنا أشهد معهم»[2].

فهذه الرواية تدل على تواتر هذا الحديث، إذ شهد ذلك الجمع الكثير الذي يؤمن تواطؤهم على الكذب على أنهم سمعوا هذا الحديث من رسول الله ﷺ ، وقد كان من بين الجالسين في المسجد عدد من التابعين، لكون ذلك حدث في عهد سيدنا عثمان ﷺ ، وهذا يؤكد تواتر الحديث، فإن عدد التواتر لم يقتصر

---

(١) الإتقان ١/ ٢٠٨-٢١٠، طبعة مؤسسة النداء.

(٢) النشر (١/ ٢١).

على طبقة الصحابة فحسب[1] وقد نقل السيوطي أيضاً عن أبي عبيد القول بتواتر هذا الحديث[2].

فوائد تؤخذ من الأحاديث السابقة:

١- تدل الأحاديث السابقة على أن الأحرف السبعة ليست إلا خلافاً في الألفاظ وهيئات النطق في كلمات القرآن؛ بدليل أن الخلاف الذي وقع بين الصحابة رضي الله عنهم كعمر بن الخطاب وهشام بن حكيم إنما كان حول كيفية تلاوة ألفاظ القرآن الكريم.

٢- إن قراءة الصحابة رضي الله عنهم للقرآن الكريم لم تكن باجتهاداتهم، إنما كان ذلك بالتلقي عن النبي ﷺ ، والأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن توقيفية لا مجال للرأي والاجتهاد والقياس فيها، فقد نزل بها الروح الأمين على قلب الرسول الكريم ﷺ «هكذا أقرأنيها رسول الله» ، «فاقرؤوا كما علمتم» .

٣- إن الحكمة الأولى التي من أجلها أنزل الله القرآن على سبعة أحرف هو التخفف والتيسير على الأمة الأمية، «إني بعثت إلى أمة أميين فيهم الشيخ العاسي والعجوز الكبير والغلام» فإن هؤلاء قد اعتادت ألسنتم على كيفية معينة في النطق وذلك أنهم نشؤوا منذ نعومة أظفارهم على النطق بلهجتهم الخاصة، فمن العسر بمكان أن يطلب منهم التحول مرة واحدة إلى لهجة أخرى تختلف عما اعتادوا النطق به ليقرؤوا القرآن بها، فكان من رحمة الله تعالى بعباده أن أنزل القرآن على سبعة أحرف مراعاة لهم لاختلاف لغاتهم رفعاً للحرج عنهم.

٤- إن الاختلاف بين الأحرف السبعة إنما هو اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تناقض وتضاد، قال ابن قتيبة رحمه الله: «الاختلاف نوعان: اختلاف

---

(١) نزول القرآن على سبعة أحرف، مناع القطان، ص٢١.

(٢) الإتقان (١/ ١٣١).

تغاير، واختلاف تضاد. فاختلاف التضاد لا يجوز، ولست واجده. بحمد الله في شيء من القرآن إلا في الأمر والنهي من الناسخ والمنسوخ.

واختلاف التغاير جائز، وذلك مثل قوله: ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف:٤٥] أي: بعد حين، وبعد أمَهٍ، أي بعد نسيان له، والمعنيان جميعاً وإن اختلفا صحيحان؛ لأنه ذكر أمر يوسف بعد حين وبعد نسيان له، فأنزل الله على لسان نبيه ﷺ بالمعنيين جميعاً في غرضين»[١].

٥- نهى النبي ﷺ عن الجدال والخصام والتنازع بشأن الأحرف السبعة لأن كل حرف منها إنما هو منزل من عند الله تعالى له حرمة القرآن الكريم، وإن إنكار أي شيء منها هو إنكار وجحود لما أوحاه الله إلى نبيه ﷺ ، وإنكار شيء مما أنزله الله على نبيه يوقع صاحبه في الكفر. «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف فلا تماروا في القرآن، فإن المراء فيه كفر» .

٦- إن ما وقع من خلاف بين الصحابة الكرام رضوان الله عليهم في تلاوة القرآن الكريم، وتحاكمهم إلى النبي ﷺ ، إنما كان في المدينة المنورة بعد هجرته ﷺ ؛ لأن وأضاة بني غفار في المدينة المنورة.

٧- لم يقرئ النبي ﷺ المسلمين جميع الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، إنما كان يقرؤهم حسب ما تيسر، فيقرئ هذا حرفاً، ويقرأ الآخر حرفاً غيره.

٨- لم يكن إقراء النبي ﷺ لكل إنسان حسب لهجته وما تنطق به قبيلته فحسب، إنما كان يقرئ الصحابة حسب ما تيسر بقطع النظر عن لهجته، فقد يقرئ أصحاب قبيلة واحدة بأكثر من حرف كما كان من عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم رضي الله عنهما؛ فهما قرشيان.

---

(١) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص٣١.

٩- إن إعجاز القرآن الكريم إنما هو في هذه الأحرف المتواترة جميعها، وذلك لأن جميع هذه الأحرف من عند الله تعالى، فهي كلام الله المنزل على سيدنا رسول الله ﷺ للبيان والإعجاز «كلها كافٍ شافٍ» .

يقول الإمام البغوي: «وقوله ﷺ في الحديث «كلها كافٍ شافٍ» يريد – والله أعلم – أن كل حرف من هذه الأحرف السبعة شاف لصدور المؤمنين، لاتفاقها في المعنى، وكونها من عند الله وتنزيله ووحيه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت:٤٤]. وهو كافٍ في الحجة، على صدق رسول الله ﷺ لإعجاز نظمه، وعجز الخلق عن الإتيان بمثله والله سبحانه وتعالى أعلم»[(١)].

١٠- إن هذه الأحرف السبعة لم تكتب في المصحف في عهد النبي ﷺ ، وكذلك في عهد أبي بكر رضي الله عنه ، بل كان النبي ﷺ يعلمها مشافهة.

١١- إن كون حديث الأحرف السبعة في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، ليس معناه أن هذه الأحرف كانت في القرآن المدني وحده، بل كانت في المكي والمدني على السواء، ذلك أن المسلمين في المدينة المنورة ما كان يقرؤهم النبي ﷺ المدني وحده، بل كان يقرؤهم القرآن الكريم كله؛ لذا فإن النبي ﷺ أوحيت إليه هذه الأحرف في القرآن كله، وهذا ما ترشد إليه الأحاديث الصحيحة.

وإنما نبهت على هذا الأمر مع أنه بدهي؛ لأني قرأت كلاماً يستدعي العجب، ويقتضي الرد كما سنطلعك عليه فيما بعد إن شاء الله.

---

(١) شرح السنّة – أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت٥١٦هـ). تحقيق شعيب الأرنؤوط (٥٠٣/٤)، كتاب فضائل القرآن باب قول النبي ﷺ «أنزل القرآن على سبعة أحرف» .

آراء العلماء في معنى الأحرف السبعة:

اختلفت آراء العلماء وتباينت أقوالهم في بيان المراد من الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن الكريم، والتي ورد ذكرها في كلام النبي ﷺ.

وسبب اختلاف العلماء في ذلك أنه لم يأت في معنى هذه السبعة نص ولا أثر كما أشار إلى ذلك ابن العربي رحمه الله[1]، فالأحاديث الواردة في ذلك على الرغم من كثرتها جاءت مجملة، لا تكشف عن حقيقة المراد بهذه السبعة. فأعمل العلماء عقولهم واجتهدوا في تحديد المراد بها فكان الاختلاف.

وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً[2] وأوصل السيوطي الأقوال إلى أربعين[3]، ذكر منها خمسة وثلاثين قولاً ثم قال: «قال ابن حبان: فهذه خمسة وثلاثون قولاً لأهل العلم واللغة في معنى إنزال القرآن على سبعة أحرف، وهي أقاويل يشبه بعضها بعضاً، وكلها محتملة، ويحتمل غيرها. وقال المُرسيُّ: هذه الوجوه أكثرها متداخلة، ولا أدري مستندها ولا عمن نُقِلَت، ولا أدري لم خص كل واحد منهم هذه الأحرف السبعة بما ذكر، مع أنها كلها موجودة في القرآن، فلا أدري معنى للتخصيص، ومنها أشياء لا أفهم معناها على الحقيقة، وأكثرها معارضة لحديث عمر وهشام بن حكيم الذي في الصحيح، فإنهما لم يختلفا في تفسيره ولا أحكامه، وإنما اختلفا في قراءة حروفه، وقد ظن كثير من العوام أن المراد بها القراءات السبع، وهو جهل قبيح»[4].

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، ١/ ٤٢.
(٢) انظر المرجع نفسه.
(٣) انظر الإتقان في علوم القرآن ١/ ١٣١.
(٤) الإتقان، (١/ ١٤١).

ولكن قبل أن أذكر لكم هذه الأقوال، فإن من المفيد أن نعرض لقضية العدد في هذا الحديث، أله مفهوم؟ فالعدد مقصود وهو سبعة كما جاء في الأحاديث، لا تزيد ولا تنقص، فهي ليست ثمانية، كما نقل الدكتور عبدالصبور عن الخوئي[1] واستحسنه. ولست معهما. وحجة الخوئي أنه ليست كل آية من آيات القرآن اختلف في قراءتها؛ فإن هناك آيات وكلمات لم يختلف المسلمون في قراءتها، فإذا أضفنا هذا إلى ما اختلف فيه وهي سبعة، صارت الأحرف ثمانية، وما إخال هذه الحجة مقبولة؛ لأن معنى الحديث أن ما نزل عليه القرآن سبعة أحرف؛ ولا يلزم من هذا أن الاختلاف ينبغي أن يكون في كلمات القرآن الكريم جميعها، ولا أود أن أقف طويلاً عند هذه القضية، لكني أواصل الحديث عن العدد من حيث المراد، أله مفهوم أم لا؟! .

أكثر العلماء على أن العدد مقصود لذاته فهي سبعة أحرف ليست ثمانية، وحجتهم ما جاء في بعض أحاديث هذا الباب، من أن سيدنا رسول الله ﷺ الحريص على هذه الأمة - كما قال ربنا - ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [التوبة:١٢٨-١٢٩]، **أقرأني جبريل على حرف، فقلت: إن أمتي لا تطيق ذلك، ثم أقرأني على حرفين فقلت: إن أمتي لا تطيق ذلك، فاستزدته فقال: اقرأه على سبعة أحرف كل شافٍ كافٍ.**

---

(١) صاحب «البيان في تفسير القرآن» وهو من علماء الشيعة الإمامية.

قالوا: هذا الحديث وأمثاله يدل على أن السبعة عدد مقصود لذاته.. وذهب القاضي عياض، وجماعة من الأئمة إلى أن العدد غير مقصود[1]، وقد كنت إلى عهد قريب أرتأي أن العدد مقصود لذاته، لكن بدا لي فيما بعد رأي آخر، وتعالى الله وتقدّس، فهو المنزه وحده عن البداء؛ ذلك أنني تتبعت كثيراً من الأحاديث التي ذكر فيها هذا العدد (سبعة) فوجدت منها ما قصد العدد لذاته، وهنا وفي الأحاديث نجد سيدنا رسول الله ﷺ بأبي هو وأمي – قد عيّن هذا المعدود وفصله، ومن هذه الأحاديث:

١- «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» .
٢- «اجتنبوا الموبقات السبع» .
٣- «بادروا بالأعمال سبعاً» .

هذا كله في الحديث، إذا كان الحديث عن أمور من أمور الحياة مما ينبغي أن نفعله أو نتجنبه.. أما ما ورد من المغيبات فأمر لا نسمح لأنفسنا أن نخوض فيه، بقي أن هناك أحاديث ذكرت هذا العدد غير أنها لم يفصل فيها المعدود، وذلك مثل قوله ﷺ : «المؤمن يأكل في مِعىً واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء» فمثل هذا القول والله ورسوله أعلم – ليس العدد فيه مقصوداً لذاته، وإنما المقصود من الحديث العبرة، والفرق بين المؤمن والكافر.

وأرى أن حديث الأحرف السبعة إنما هو من هذا القبيل، المقصود به بيان رحمة الله تبارك وتعالى، وحرص الرحمة المهداة سيدنا رسول الله ﷺ بهذه الأمة، ولو كان المقصود بيان مفهوم العدد لبيّن النبي ﷺ نوع هذه الأحرف.. وما احتج به الذين رأوا أن للعدد مفهوماً ليس فيه الدليل القاطع على ما ذهبوا إليه، بل يمكن أن يفهم من هذه الأحاديث سعة فضل الله تبارك وتعالى، وعظيم رحمة الله

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، ٦/ ٩٩.

لأمته، والأمر بعد ذلك وقبله يسير إن شاء الله، فإذا كنت ترى أن تظل مع القائلين بأن للعدد مفهوماً، فلا حرج عليك، فلقد كنت كذلك، إلى وقت، وإن اقتنعت بما ذكرته لك، فأرجو أن يجنبني الله وإياك الخطل والخطأ.

خلاصة القول: أننا إذا جردنا العدد من أن يكون له مفهوم، فإننا نريح أنفسنا من كثير من الخلافات، التي قد جاوزت الحد والمعقول عند بعض من فسر هذا الحديث، وعلى هذا القول أيضاً يمكننا أن نفهم الأحاديث الشريفة فهماً يتفق مع جوهر هذه القضية وروحها، وقد آن لنا أن نعرض آراء العلماء في فهم الأحاديث الشريفة.

هل الحديث مشكل؟

وقد حمل هذا الاختلاف الكثير، بين العلماء في معنى الأحرف السبعة ابن سعدان النحوي إلى القول بأن هذا الحديث مشكل، حيث قال: «معنى قوله ﷺ «أنزل القرآن على سبعة أحرف» مشكل لا يُدرى معناه، لأن العرب تسمي الكلمة المنظومة حرفاً، وتسمي القصيدة بأسرها كلمة، والحرف يقع على الحرف المقطوع من الحروف المعجمة، والحرف أيضاً: المعنى والجهة، كقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ ﴾ [الحج:١١] أي على جهة من الجهات، ومعنى من المعاني»[١].

ابن سعدان النحوي عد لفظ الحرف من المشترك اللفظي إذ يشترك هذا اللفظ بين عدة معان لا يُدرى أيها المراد.

ولا يسلم لابن سعدان ما ذهب إليه، وذلك أنه لا يلزم الإشكال في المشترك اللفظي إلا إذا لم تقم قرينة على تعيين أحد هذه المعاني وأنه المراد دون

(١) المرشد الوجيز لأبي شامة، ص٩٢.

غيره؛ والأمر في الحديث ليس كذلك، فإن القرينة قد قامت على أن أحدها هو المراد دون سواه، وذلك أن الناظر في هذه المعاني لأول وهلة يستبعد كثيراً منها، فلا يصح إرادة حرف الهجاء؛ لأن القرآن مركب من جميعها، ولا إرادة الكلمة لأن كلمات القرآن تعد بالآلاف، ولا إرادة الجهة، فيتعين أن يكون المراد به هو اختلاف الألفاظ، كما مرّ معك في الأحاديث الصحيحة، وكما ستتبينه فيما بعد إن شاء الله»[1].

وسأكتفي في هذه الدراسة بذكر بعض الأقوال التي هي حرية بالدرس والبحث، والتي ما زالت محط أنظار العلماء وطلاب العلم في عصرنا الحاضر، مبيناً الأدلة التي استدل بها كل صاحب رأي، ومناقشتها بإيجاز وتركيز.

الأقوال في الأحرف السبعة:

القول الأول: إن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب المشهورة في كلمة واحدة، تختلف فيها الألفاظ مع اتفاق المعاني، وعدم تناقضها، وذلك نحو: هلم، وتعال، وأقبل، وإليّ، ونحوي، وقصدي، وقربي، فهذه الألفاظ السبعة مختلفة يعبر بها عن معنى واحد وهو طلب الإقبال.

وهو رأي جمهور أهل الفقه والحديث - كما ذكر الزركشي - منهم: سفيان ابن عيينة، وابن وهب، والطحاوي، والطبري. وقد أطال القول فيه، ودافع عنه في مقدمة تفسيره جامع البيان، وأيده ابن عبدالبر[2] في التمهيد ونسبه لأكثر أهل العلم. ورجح هذا من المحدثين: الشيخ طاهر الجزائري[3] والشيخ محمد علي سلامة[4]، والشيخ

---

(١) منهج الفرقان إلى علوم القرآن، الشيخ محمد سلامة، ص٦٠.

(٢) التمهيد (٨/ ٢٧٢) وما بعدها.

(٣) التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن، ص٧.

(٤) منهج الفرقان، ص٦١.

محمد أبو زهرة[1]، والشيخ محمد أبو شهبة[2]، والشيخ أحمد الكومي والشيخ عبدالوهاب غزلان في كتبهم[3]، في علوم القرآن. وهم من أجلّة العلماء في قضايا علوم القرآن ولم يعارضه من المحدثين إلا الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني في كتابه مناهل العرفان.

يقول الإمام الطبري رحمه الله في تحريره لهذا القول في مقدمة تفسيره: «الأحرف السبعة التي أنزل بها القرآن هن لغات سبع في حرف واحد وكلمة واحدة، باختلاف الألفاظ، واتفاق المعاني، كقول القائل: هلم، وأقبل، وتعال، وإليّ، وقصدي، ونحوي، وقربي، ونحو ذلك مما تختلف فيه الألفاظ بضروب من المنطق وتتفق فيه المعاني»[4].

وعمدة أدلة أصحاب هذا الرأي حديث أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: إن جبريل عليه السلام قال: يا محمد اقرأ القرآن على حرف، قال ميكائيل عليه السلام: استزده، فاستزاده، قال: اقرأ على حرفين، قال ميكائيل: استزده فاستزاده حتى بلغ سبعة أحرف، قال: كلها شافٍ كافٍ، ما لم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب[5]، نحو قولك: تعال، وأقبل، وهلم، واذهب، وأسرع، وعجل» .

قال الطبري رحمه الله: «فقد أوضح نص هذا الخبر أن اختلاف الأحرف السبعة إنما هو اختلاف ألفاظ كقولك: هلم، وتعال، باتفاق المعاني لا باختلاف معانٍ موجبة اختلاف أحكام»[6].

---

(١) انظر المعجزة الكبرى: ٢٩.

(٢) انظر المدخل لدراسة القرآن (١٣٨-١٤٦).

(٣) البيان في مباحث من علوم القرآن (٢١٧).

(٤) جامع البيان (١/ ٢٥).

(٥) أخرجه أحمد في مسنده ٥/ ٤١، ٥١.

(٦) جامع البيان (١/ ٢٢).

وهذا الحديث ظاهره مشكل، إذ قد يتوهم أن القارئ مخير في القراءة من عند نفسه، فيجوز له أن يختم الآية بما يريد ما لم يختم آية عذاب برحمة، أو آية رحمة بعذاب، وليس الأمر كذلك، بل المراد بالحديث ضرب المثل لاختلاف الأحرف السبعة، كما أشار إلى ذلك ابن عبد البر يقول: «إنما أراد بهذا ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن عليها؛ إنها معان متفق مفهومها مختلف مسموعها، لا يكون في شيء منها معنى وضده، ولا وجه يخالف معنى وجه خلافاً ينفيه ويضاده كالرحمة التي هي خلاف العذاب وضده»[1].

واستدل أصحاب هذا الرأي أيضاً. بما روي عن أبيّ بن كعب ﷺ أنه كان يقرأ ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ [الحديد:١٣]، «للذين آمنوا أمهلونا، للذين آمنوا أخرونا، للذين آمنوا ارقبونا» وكان ﷺ يقرأ ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢٠] «مروا فيه، سعوا فيه»[2].

فهذا هو رأي الإمام الطبري رحمه الله في الأحرف السبعة كما بيّنه وقرره في تفسيره.

القول الثاني: القرآن نزل على سبع لغات متفرقة فيه، فبعضه نزل بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن فهو ينتظم في مجموعه اللغات السبع.

وينسب هذا القول لأبي عبيد، وأحمد بن يحيى (ثعلب) وآخرين: وهذا الرأي يختلف عن سابقه، لأن هذا الرأي معناه أن الأحرف السبعة متفرقة في

---

(١) البرهان للزركشي (١/ ٢٢)، الإتقان (١/ ١٣٤)، التمهيد (٨/ ٢٨٣).

(٢) البرهان (١/ ٢٢١)، الإتقان (١/ ١٣٤).

القرآن، أما الرأي السابق فيعني أن الأحرف السبعة لغات مختلفة في كلمة واحدة مع اتفاق المعنى في جميعها.

يقول أبو عبيد في كتاب غريب الحديث: «قوله: سبعة أحرف، يعني سبعة لغات من لغات العرب، وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه، هذا لم نسمع به قط، ولكن نقول: هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن، فبعضه نزل بلغة قريش، وبعضه نزل بلغة هوازن، وبعضه نزل بلغة هذيل، وبعضه نزل بلغة أهل اليمن، وكذلك سائر اللغات ومعانيها في هذا كله واحدة»[1].

ويقول ابن عطية: «فمعنى قول النبي ﷺ : أنزل القرآن على سبعة أحرف» أي فيه عبارات سبع قبائل بلُغِة جملتها نزل القرآن، فيعبر عن المعنى فيه مرة بعبارة قريش، ومرة بعبارة هذيل، ومرة بغير ذلك بحسب الأفصح والأوجز في اللفظ»[2].

واستدل أصحاب هذا الرأي بأدلة منها:

١- ما قاله سيدنا عثمان ﷺ للرهط الأربعة حين أمرهم بنسخ المصحف. قال عثمان: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإن القرآن أنزل بلسانهم، ففعلوا»[3].

فالحديث يدل على أن معظم القرآن نزل بلسان قريش، وأن فيه من بقية لغات العرب.

(١) غريب الحديث (٣/ ١٥٩)، المرشد الوجيز، ص٩١.

(٢) تفسير ابن عطية، المحرر الوجيز (١/ ٤٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: فضائل القرآن، نزل القرآن بلسان قريش والعرب (٤/ ١٩٠٦ ح٤٦٩٩).

وقد اختلف القائلون بهذا الرأي في تحديد اللغات السبع، فيرى بعضهم أن اللغات السبع في العرب كلها، وقيل في قريش، وقيل غير ذلك. وهذا الرأي مردود لما يلي:

أولاً: بعده عن واقع الخلاف الذي حدث بين الصحابة رضي الله عنهم، وذلك أن الأحاديث التي وردت في ذلك كحديث عمر وهشام رضي الله عنهما لا تؤيده بل تنافيه وترده.

ولتوضيح ذلك: أقول: إن الخلاف الذي وقع بين الصحابة رضي الله عنهم إنما كان في تلاوة سورة واحدة، وهي سورة الفرقان في حديث عمر ﷺ، فعمر سمع هشاماً يقرأ سورة الفرقان على حروف كثيرة لم يقرئه إياها رسول الله ﷺ وقد أقرأ رسول الله ﷺ سورة الفرقان، وهذا يدل على أن رسول الله ﷺ أقرأ عمر سورة الفرقان على وجه يختلف عن الوجه الذي أقرأ به هشام. ثم بيّن النبي ﷺ أن سبب هذا الاختلاف في التلاوة يرجع إلى سبب نزول القرآن على سبعة أحرف، والكلام نفسه يقال في حديث أبيّ بن كعب ﷺ واختلافه مع الرجلين في قراءة سورة النحل.

فكيف يتأتى الخلاف إذن إذا كان المنزل لفظاً واحداً، والمقروء به واحد. ولهذا يتبين أن الأحرف السبعة إنما هي تعدد وجوه قراءة القرآن الكريم وتلاوته لا أن أجزاءه تتألف من لغات سبع.

ثانياً: إن الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف إنما هي التخفيف والتيسير على العرب، والقول السابق ليس فيه أي معنى للتخفيف والتيسير، لأن العرب الذين نزل القرآن عليهم، لا يمزج غالبهم لغات بعضهم ببعض.

قال ابن عبدالبر: «وأنكروا على من قال: إنها لغات، لأن العرب لا تركب لغة بعضها بعضاً، ومحال أن يقرئ النبي ﷺ أحداً بغير لغته»[1].

---

(١) البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٣٢.

ثالثاً: لو كان القرآن مؤلفاً من عدة لغات، كل جزء من لغة، لما أمكن لأهل كل لغة أن يقرؤوا منه إلا جزءاً واحداً وهو النازل بلغتهم، ويدعون سائر أقسامه التي هي بغير لغتهم ومضطرين، لتعسر اللغات الأخرى عليهم، وهذا يوقعهم في الحرج ويمنعهم من تلاوة القرآن كله، مع أن كل قبيلة مكلفة بقراءة القرآن كله وفهمه، والعمل به، ويكون نزول القرآن على سبعة أحرف – بذلك – موقعاً في الحرج، غير جالب للتيسير والتخفيف»[1].

ثم إن ما استدلوا به من قول سيدنا عثمان ﷺ ، يجاب عنه: بأنه يحمل على بدء نزول القرآن الكريم، وأنه نزل في أول الأمر بلسان قريش، ثم تتابع نزول باقي الأحرف عندما دعت الحاجة لذلك.

يقول أبو شامة رحمه الله: «أشار عثمان ﷺ إلى أول نزوله، ثم إن الله تعالى سهله على الناس، فجوّز لهم أن يقرؤوه على لغاتهم»[2].

القول الثالث: إن المراد بالأحرف السبعة الأوجه التي يقع بها التغاير، فقد استقرأ العلماء القائلون بهذا القول وجه الاختلاف بين القراءات فاستنتجوا أنها سبعة أوجه، ففسروا بها حديث النبي ﷺ : «أنزل القرآن على سبعة أحرف» .

وقد ذهب إلى هذا الرأي طائفة من العلماء، منهم: ابن قتيبة، والقاضي ابن الطيب الباقلاني، وأبو الفضل الرازي، وابن الجزري، وهذا هو القول الراجح عند جماهير القراء، وسبب هذا كما يظهر لي يرجع إلى تأثرهم بشيخهم ابن الجزري رحمه الله، والفضل يعود في هذا كله لابن قتيبة فقد نهجوا نهجه، ثم غيروا وبدلوا.

---

(١) انظر الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها (١٧٣).

(٢) المرشد الوجيز لأبي شامة، ص١٠٢.

وقد اختلف هؤلاء الخمسة في تحديد هذه الأوجه، فاتفقت أقوالهم في بعضها واختلفت في بعضها الآخر، وسأقتصر على ذكر ما قاله ابن قتيبة وابن الجزري:

أولا: ابن قتيبة:

قال ابن قتيبة – رحمه الله – «وقد تدبرت وجوه الخلاف في القراءات فوجدتها سبعة أوجه:

أولها: الاختلاف في إعراب الكلمة، أو في حركة بنائها مما لا يزيلها عن صورتها في الكتاب، ولا يغير معناها نحو قول الله تعالى: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ ﴾ [هود:٧٨] وأطهرَ لكم، وقوله: ﴿ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴾ [سبأ:١٧] وهل يجازى إلا الكفور، وقوله: ﴿ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ ﴾ [النساء:٣٧، الحديد:٢٤]، وبالبَخَل، وقوله: ﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٍ ﴾ [البقرة:٢٨٠] وميسُرة.

فهذه وإن اختلف بعضها في الإعراب مثل أطهرُ وأطهرَ، أو في الحركات مثل البُخْل والبَخَل، فإنها متحدة في المعنى وفي صورة الخط كذلك.

الوجه الثاني: أن يكون الاختلاف في إعراب الكلمة وحركات بنائها بما يغير معناها، ولا يزيلها عن صورتها في الكتاب نحو قوله: ﴿ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا ﴾ [سبأ:١٩] وربُّنا باعَدَ بين أسفارنا، وقوله: ﴿ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ ﴾ [النور:١٥] وتلْقُونه، وقوله ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف:٤٥] وبعد أمَهٍ.

وهذا الوجه وإن اتفق مع الوجه الأول باتفاق صورة الخط، واختلاف الإعراب والحركات فإنه يختلف عنه من حيث المعنى.

الوجه الثالث: أن يكون الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها بما يغير معناها، ولا يزيل صورتها، نحو قوله ﴿ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ﴾ [البقرة:٢٥٩] ونُنشِرها، ونحو قوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ ﴾ [سبأ:٢٣] وفرِّغ.

ويتفق هذا الوجه مع سابقيه باتحاد صورة الخط، ويختلف عنهما من حيث الإعراب فالإعراب فيه واحد، ننشر، ننشز، وفزّع، وفرّغ وفيهما ليس كذلك، ويتفق مع الثاني بتغير المعنى.

الوجه الرابع: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتاب، ولا يغير معناها نحو قوله: «إن كانت إلا زقية واحدة» . و﴿ صَيْحَة ﴾ [يس:٢٩]، و «كالصوف المنفوش وكالعهن» [القارعة:٥].

ويختلف هذا لوجه عن سابقه باختلاف صورة الخط، مع اتحاد المعنى كما هو في الوجه الأول.

الوجه الخامس: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها ومعناها، نحو قوله «وطلعٍ منضود» في موضع ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ [الواقعة:٢٩] واختلافه عما قبله ظاهر.

الوجه السادس: أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير نحو قوله: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [ق:١٩] وفي موضع آخر «وجاء سكرة الحق بالموت» .

الوجه السابع: أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصات، نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ [يس:٣٥] «وما عملت أيديهم» ونحو قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [لقمان:٢٦] و«إن الله الغني الحميد»(١).

ثانيا: ابن الجزري:

ويقول ابن الجزري رحمه الله: «ولا زلت أستشكل هذا الحديث وأفكر فيه، وأمعن النظر من نيف وثلاثين سنة، حتى فتح الله عليّ بما يمكن أن يكون صواباً

إن شاء الله، وذلك أني تتبعت القراءات صحيحها وشاذها. وضعيفها ومنكرها. فإذا هو يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه من الاختلاف لا يخرج عنها، وذلك:

١- إما في الحركات بلا تغير في المعنى والصورة نحو «البُخُل، البُخْل، البَخْل، البَخَل» بأربعة، أي: أربعة أوجه ويحسب بوجهين «يحسَب، يحسِب».

٢- أو بتغير في المعنى فقط نحو ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ [البقرة:٣٧] برفع آدم ونصب كلمات وعكس ذلك. ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف:٤٥] وأمَهٍ.

٣- وإما في الحروف بتغير المعنى لا الصورة نحو «تبلوا، تتلوا، وننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك، وننحيك ببدنك» [يونس:٩٢].

٤- أو عكس ذلك، أي: بتغير الصورة لا المعنى نحو: بصطة، وبسطة، الصراط والسراط.

٥- أو بتغيرهما نحو: أشد منكم ومنهم، ويأتل ويتأل، وفامضوا إلى ذكر الله، وفاسعوا.

٦- وإما في التقديم والتأخير نحو «فيَقْتُلون ويُقتَلون» [التوبة:١١١]، «وجاءت سكرة الحق بالموت» [ق:١٩].

٧- أو في الزيادة والنقصان نحو «وأوصى ووصى، والذكر والأنثى»[1].

وقد اعتمد بعضهم في تحديد الوجوه على القراءات الشاذة، وهي لا تعد من القرآن باتفاق، ولا يصح الاعتماد عليها في تحديد معنى الأحرف السبعة، وذلك أن الاعتماد عليها يجعلها داخلة ضمن الأحرف السبعة وهذا أمر غير مقبول.

---

(١) النشر في القراءات العشر (١/ ٢٦).

ثم إن الوجوه التي حددها بعضهم لا يدركها ويقف عليها إلا البارعون في القراءة والكتابة، فكيف يكون فيه تيسير على الأميين، على أننا نعتقد أن ابن قتيبة هو الذي فتح الباب لمن جاء بعده لهذه الأوجه ومع ذلك فلقد كان عرضة للنقد.

الرأي المختار:

والرأي الذي نختاره إذا كانت القضية لا تعدو أن تكون اجتهاداً – ونرى أنه أقرب إلى معنى الأحاديث الواردة عن سيدنا رسول الله ﷺ ، وتظهر فيه الحكمة من التيسير على الأمة التي حرص عليها النبي الكريم ﷺ ما ذهب إليه ابن جرير وكثير من المحققين رحمهم الله تعالى؛ وهو أن الأحرف السبعة سبع لغات متفقة من حيث المعنى، مختلفة في اللفظ.

وعلى هذا القول يظهر معنى التيسر، فلا يكلّف أحد أن يقرأ بغير لغته، ولكن لا يظنن ظانّ أن ذلك على إطلاقه، إنما ذلك بتعليم من النبي ﷺ .

وهنا تساؤل لابد من الإجابة عليه، أيدخل في هذه اللغات اختلاف اللهجات من فتح وإمالة وتحقيق الهمز أو تسهيله أو إبداله وغير ذلك مما اختلفت فيه لهجات العرب، كإبدال الحاء عيناً «عتى عين» بدل «حتى» عند الهذليين، وكسر أول الفعل مثل «تِعلمون» عند الأسديين؟

وللإجابة عن هذا التساؤل نقول: إن هذه اللهجات ثبت كثير منها في القراءات القرآنية الصحيحة، ولا يرتاب أحد في أنها تظهر فيها حكمة التيسير، وهي جزء من الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن الكريم، ومعنى هذا أن الأحرف السبعة ليست هذه اللهجات فحسب، بل هي لغات كما مر، وكل قبيلة لها لغة ما من الطبعي أن تكون لها لهجة تميزها عن غيرها.

والإمام الطبري ومن معه من المحققين – رحمهم الله – لا يخفى عليهم هذا، وسيأتي لهذا زيادة تفصيل إن شاء الله فيما بعد.

وإنما اخترنا هذا القول ورجحناه على غيره، لأنه هو الذي تظهر منه الحكمة، حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف، وليس كذلك الرأيان الآخران، أعني الرأي الذي يقول: إنها سبع لغات متفرقة في القرآن الكريم كله، والرأي الذي يقول: إنها سبعة وجوه من الاختلاف، ولقد ناقشناهما من قبل، فلا حاجة لإطالة الكلام فيها هنا.

ويؤيد هذا الرأي ما ذكر من اختلاف المسلمين في قراءة القرآن الكريم في عهد عثمان ﷺ، حتى تشاجروا وكاد بعضهم يكفّر بعضاً، ولا يعقل أن يكون هذا الشجار والتكفير من أجل اختلاف في رفع الكلمة أو نصبها، وهمز وتحقيق همز أو تسهيله، وإمالة كلمة أو فتحها، فهذا لا يعقل أن يكفر المسلمون بعضهم بعضاً فيه، وهذا ما ذكره الإمام الطبري رحمه الله في مقدمة تفسيره، وهو يعرض رأيه في معنى نزول القرآن على سبعة أحرف.

ثم إن هذه الأحرف السبعة ليست كلها مما كان يمليه النبي ﷺ على كُتّاب الوحي، وليست كلها كذلك كتبت في عهد أبي بكر ﷺ، إذ ليس من الممكن أن يكتب كل نص من نصوص القرآن الكريم عدة مرات، ولم يثبت كذلك أن الألواح التي كتب عليها القرآن الكريم كانت مجموعات متعددة، كل مجموعة كتبت على حرف معين، وإنما الأمر المقبول المعقول، أن الرسول ﷺ كان يقرئ الصحابة رضوان الله عليهم على هذه الأحرف، يقرئ بعضهم حرفاً، وبعضهم حرفاً آخر، وكان بعض الصحابة اتخذ مصحفاً خاصاً يكتب ما أقرأه النبي ﷺ، وتفرق الصحابة في الأمصار، وكانوا يعلمون الناس كتاب الله، فتعددت قراءاتهم، واختلفوا فيما بينهم، فجمع الخليفة الثالث ﷺ الناس على مصحف واحد، وكان هذا المصحف الذي جمع الناس عليه لا يختلف في شيء ما عن الصحف التي كتبت في عهد أبي بكر ﷺ، فلو كانت الأحرف السبعة اختلافاً

في تقديم بعض الكلمات أو تأخيرها أو اختلافاً في الإعراب، لبقي الاختلاف، ولم يكن معنى للعمل الذي قام به عثمان.

لذلك كله كان ترجيحنا لما ذهب إليه الطبري في معنى الأحرف السبعة، ويقيني أن ابن جرير - رحمه الله - ومن معه حينا قرروا رأيهم لم يكن اختلاف اللهجات وما يتصل به أمراً غائباً عنهم.

وما دمنا قررنا من قبل أن العدد لا مفهوم له، وبرهنّا على ذلك، فإننا لا نجد ما يصعب علينا حله من بحث عن ماهية هذه الأحرف، ويقيناً أن هذا القول ليس فيه تجنٍ على المصحف، ولا إهدار للأحرف التي نزل عليها القرآن الكريم ولا إضاعة لشيء من كتاب الله تبارك وتعالى، وكيف ذلك وسيدنا رسول الله ﷺ ما كان يقرئ الصحابة جميعاً هذه الأحرف جميعها، وإذن فليست من الواجبات على كل مسلم.

ولذلك فإن فعل عثمان رضي الله عنه منسجم تماماً مع ما كان يعلمه النبي ﷺ ، فالنبي لم يكن يعلّم المسلمين جميعاً الأحرف السبعة، وعثمان رضي الله عنه انسجاماً مع هذا الفهم لم يكتب الأحرف السبعة، وما قرره الطبري وغيره من الأئمة منسجم كل الانسجام ومتسق كل الاتساق ومتفق كل التوافق مع إقراء النبي ﷺ وكتابة عثمان رضي الله عنه .

* * *

الفصل الخامس عشر
القراءات القرآنية

القراءات لغةً: جمع قراءة، وهي مصدر قرأ، يقال: قرأ فلان يقرأ قراءة، وهي بمعنى الجمع والضم.

القراءات اصطلاحاً: قال ابن الجزري: القراءات علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزواً لناقله[1] قال: والمقرئ: العالم بها – أي بالقراءات – رواها مشافهة، فلو حفظ التيسير مثلاً ليس له أن يقرئ بما فيه إن لم يشافهه من شوفه به مسلسلاً، لأن في القراءات أشياء لا تحكم إلا بالسماع والمشافهة[2].

يلاحظ في تعريف ابن الجزري – رحمه الله – للقراءات أنه أكد قضية مهمة حرية بالتنبيه عليها، والتنبه لها، ألا وهي: اعتماد القراءات القرآنية على السماع والمشافهة، والتلقي عمن تلقاها وسمعها وأخذها مشافهة عن شيوخه مسلسلاً إلى النبي ﷺ .

العلاقة بين الأحرف السبعة والقراءات :

ذكرنا في تفسير معنى الأحرف السبعة أن أحد وجوه تفسيرها القول بأن المراد بالأحرف السبعة، القراءات السبع، وقد رَدَدْنا هذا القول.

---

(١) منجد المقرئين ومنجد الطالبين، ص٣.

(٢) المرجع السابق، ص٣.

فما هي الصلة بين الأحرف السبعة والقراءات السبع؟ .

إن هذه الصلة تتوقف على تفسيرنا للأحرف السبعة، فإذا فُسِّرت بأنها وجوه من الاختلاف في القراءة كما ذهب إليه ابن قتيبة وأبو الفضل الرازي والباقلاني وابن الجزري فإن الأحرف السبعة: أصل لهذه القراءات. بيان ذلك: أنهم عدّوا أحد الوجوه السبعة: التقديم والتأخير، وهذا وجه عام يندرج فيه قراءات كثيرة اشتملت على هذا الوجه. فمنها مثلاً:

«وقاتلوا وقُتلوا» «وقُتلوا وقاتلوا» ومنها «فيَقْتلون ويُقتلون» «فيُقتلون ويَقْتلون» .

ومن الأوجه: الحذف والذكر وهذا الوجه تندرج تحته قراءات كثيرة كذلك.

أما إذا فسرنا الأحرف السبعة بما ذهب إليه ابن جرير الطبري فالأمر يختلف اختلافاً تاماً كما بيّناه من قبل، إذ الأحرف السبعة لغات، أما القراءات فكيفيات في اختلاف النطق والأداء.

قال النيسابوري – رحمه الله – في تفسيره: «فإن قيل فما قولكم في القراءات التي تختلف بها المعاني؟ قلنا: إنها صحيحة منزلة من عند الله، ولكنها خارجة من هذه السبعة الأحرف، وليس يجوز أن يكون فيما أنزل الله من الألفاظ التي تختلف معانيها ما يجري اختلافها مجرى التضاد والتناقض لكن مجرى التغاير الذي لا تضاد فيه»[1].

(١) تفسير النيسابوري (المطبوع على هامش تفسير الطبري) ١/ ٢٢، المقدمة الثالثة، ط بولاق، ١٣٢٣هـ.

تعدد القراءات وأسبابه

مصدر القراءات:

وردت آيات قرآنية وأحاديث شريفة صريحة في أن مصدر القراءات هو الوحي. ومن هذه الآيات الكريمة:

١- قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس:١٥].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم:٣-٥].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٦].

فالآيات الكريمة تؤكد أن الرسول ﷺ لا يستطيع أن يبدل في القرآن الكريم شيئاً من عند نفسه، فمن الأولى – إذن – أن غير الرسول ﷺ لا يستطيع ذلك.

أما الأحاديث الشريفة، فلقد سبق لنا إيراد طائفة منها في فصل الأحرف السبعة، وإننا إذا تأملنا نصوص أحاديث الأحرف السبعة وجدناها تدل بوضوح على أن القراءات كلها من الوحي وليس للرسول ﷺ فيها سوى التبليغ.

وإذا نظرنا إلى استمداد علم القراءات وجدنا علماء القراءات يقولون: إن القراءة سنّة متبعة لا مجال فيها للاجتهاد أو القياس حتى ولو كان لقوة وجه في

اللغة، فالرواية «إذا ثبتت عندهم لا يردها قياس عربية ولا فشوّ لغة؛ لأن القراءة سنّة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها»[1].

تعدد القراءات وأسبابه:

إن الاختلاف في القراءات في الجملة مرجعه إما إلى اختلاف اللغات وتعدد اللهجات وإما إلى أسباب أخرى.

مثال ما كان مرجعه إلى اختلاف اللهجات وتعدد اللغات قراءة أبي أيوب السختياني: «ولا الضألين» [الفاتحة:٧] بإبدال الألف همزة فراراً من التقاء الساكنين.

وقوله تعالى «تأكل منسأته» [سبأ:١٤] قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بألف بعد السين من غير همزة، وهي لغة الحجاز، وهذه الألف بدل من الهمزة، وهو مسموع على غير قياس، ووافقهم اليزيدي والحسن وقرأ الباقون على الأصل بالهمزة المفتوحة[2].

ومثال القراءات التي لا يرجع اختلافها إلى اختلاف اللهجات واللغات قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس:٣٥].

قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي وخلف «عملت» بغير هاء موافقة لمصاحفهم، والباقون بالهاء موافقةً لمصاحفهم[3]. وقوله تعالى: ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [التوبة:١٠٠].

---

(١) النشر:١/٣٨.

(٢) الإتحاف: ٣٥٨.

(٣) الإتحاف: ٣٦٥.

قرئ بزيادة «من» وقرئ بحذفها، وهي في المصحف المكي بزيادة «من» وفي غيره بحذفها[1].

والمتتبع لاختلاف القراءات يجد أن جلّها يرجع إلى اللهجات كما قلنا من قبل واختلاف الأساليب من حيث الغيبة والخطاب، وهذا يجعلنا نطمئن إلى ما رجحناه من قبل عند حديثنا عن الأحرف السبعة، إذ يندر أن نجد لاختلاف اللغات أثراً في هذه القراءات كتلك التي كانت تروى عن ابن مسعود ﵁ وغيره مثل «زقية» بدل «صيحة» في قوله تعالى: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ [يس:٢٩].

ومثل «أصوب» بدل «أقوم» في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ [المزمل:٦]، إلى غير ذلك مما دُوّن في مظانه.

الأئمة العشرة ورواتهم

١ـ نافع المدني (٧٠ـ ١٦٩هـ) :

هو نافع بن عبدالرحمن بن أبي نعيم، أبو رويم الليثي مولاهم، أحد القراء السبعة الأعلام، ثقة صالح، أصله من (أصفهان)، كان أسود اللون حالكاً، صبيح الوجه، حسن الخلق، فيه دعابة.

أقرأ الناس دهراً طويلاً نيّف عن سبعين سنة، وانتهت إليه رياسة القراء بالمدينة، وكان عالماً بوجوه القراءات متبعاً لآثار الأئمة الماضين ببلده.

وكان رحمه الله إذا تكلم يشم من فيه رائحة المسك، فقيل له: تتطيب كلما قعدت تقرئ الناس، قال: ما أمس طيباً ولا أقربه، ولكن رأيت فيما يرى النائم النبي ﷺ وهو يقرأ في فيّ، فمن ذلك الوقت أشم من فيّ هذه الرائحة.

---

(١) الإتحاف: ٢٤٤.

توفي رحمه الله في المدينة المنورة سنة تسع وستين ومائة[1]، وقد أخذ القراءة عن نافع خلق كثيرون لا يحصى عددهم، وأشهر الرواة عنه اثنان وهما قالون وورش.

أ- قالون (١٢٠-٢٢٠): هو عيسى بن مينا بن وردان بن عيسى بن عبدالصمد بن عمر بن عبدالله الزرقي، أبو موسى الملقب قالون، لقبه به نافع لجودة قراءته فإن قالون لفظة رومية معناها: جيد، قارئ المدينة ونحويها.

كان جد جده عبدالله من سبى الروم من أيام عمر بن الخطاب ﷺ فقدم به من أسره إلى عمر إلى المدينة، وباعه، فاشتراه بعض الأنصار فهو مولى محمد بن محمد بن فيروز.

روي عن أبي محمد البغدادي أنه قال: كان قالون أصم لا يسمع البوق، وكان إذا قرأ عليه قارئ فإنه يسمعه، وقال ابن أبي حاتم: كان أصم يقرئ القرآن ويفهم خطأهم ولحنهم بالشفة. توفي رحمه الله بالمدينة سنة عشرين ومائتين للهجرة[2].

ب- ورش (١١٠-١٩٧): هو عثمان بن عبدالله، أبو سعيد، القبطي المصري، الملقب بورش لشدة بياضه، شيخ القراء المحققين، وإمام أهل الأداء المرتلين، انتهت إليه رئاسة الإقراء بالديار المصرية في زمانه، كان رحمه الله جيد القراءة، حسن الصوت، لا يملّه سامعه. توفي رحمه الله بمصر سنة سبع وتسعين ومائة عن سبع وثمانين سنة[3].

---

(١) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (٢/ ٣٣٠)، معرفة القراء الكبار للذهبي (١/ ١٠٧)، النشر في القراءات العشر (١/ ١١١).

(٢) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (١/ ٦١٥)، معرفة القراء الكبار (١/ ١٥٥)، النشر في القراءات العشر (١/ ١١٢).

(٣) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (١/ ٥٠٢)، معرفة القراء الكبار (١/ ١٥٢)، النشر في القراءات العشر (١/ ١١٣).

٢ـ ابن كثير المكي (٤٥ـ ١٢٠) :

هو عبدالله بن عمر بن عبدالله بن زاذان بن فيروز بن هرمز المكي الداري، أبو معبد، إمام أهل مكة في القراءة ولد بمكة، ولقي بها عبدالله بن الزبير، وأبا أيوب الأنصاري، وأنس بن مالك، ومجاهد بن جبر، ودرباس مولى عبدالله بن عباس وروى عنهم.

كان رحمه الله فصيحاً، بليغاً، مفوهاً، أبيض اللحية، طويلاً، جسيماً، أسمر، أشهل العينين، يخضب بالحناء، عليه السكينة والوقار، عالِم بالعربية. توفي رحمه الله بمكة سنة عشرين ومائة للهجرة[1].

أخذ القراءة عن ابن كثير خلق كثير، وأشهر من روى عنه اثنان ولكن بوساطة وهما البزي وقنبل.

أ- البزي (١٧٠-٢٥٠): هو أحمد بن محمد بن عبدالله بن القاسم بن نافع ابن أبي بزة، واسمه (بشار) فارسي من أهل همذان، أسلم عل يد السائب بن أبي السائب المخزومي، الإمام أبو الحسن البزي المكي مقرئ مكة، ومؤذن المسجد الحرام، كان رحمه الله إماماً في القراءة، محققاً، ضابطاً، متقناً. توفي رحمه الله سنة خمسين ومائتين، عن ثمانين سنة[2].

ب- قنبل (١٩٥-٢٩١): هو محمد بن عبدالرحمن بن خالد بن سعيد المخزومي بالولاء المكي، أبو عمر الملقب بقنبل، لأنه كان من قوم يقال لهم القنابلة، وقيل غير ذلك، شيخ الإقراء بالحجاز، ورحل الناس إليه من جميع الأقطار. كانت سيرته محمودة. وكبر سنه وشاخ، وقطع الإقراء قبل موته بسبع

---

(١) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (١/ ٤٤٣)، ومعرفة القراء الكبار (١/ ٨٦)، النشر في القراءات العشر (١/ ١٢٠).

(٢) انظر المراجع نفسها (١/ ١١٩)، (١/ ١٧٣)، (١/ ١٢٠) وسير أعلام النبلاء (١٢/ ٥٠).

سنين. توفي رحمه الله بمكة سنة إحدى وتسعين ومائتين، عن ست وتسعين سنة[1].

٣- أبو عمرو البصري (٧٨ - ١٥٤):

هو زبان بن العلاء بن عمار بن العريان، الإمام السيد أبو عمرو التميمي المازني البصري، أحد القراء السبعة، ليس في القراء السبعة أكثر شيوخاً منه، سمع أنس بن مالك وغيره.

كان رحمه الله أعلم الناس بالقرآن والعربية، مع الصدق، والثقة، والزهد وكان كثير العبادة، صاحب كرامات.

ولد رحمه الله بمكة المكرمة، ونشأ بالبصرة ومات بالكوفة سنة أربع وخمسين ومائة. رحمه الله رحمةً واسعة، وأسكنه فسيح جناته آمين. روى عنه القراءة[2]:

أ- الدوري (...-٢٤٦): هو حفص بن عمر بن عبدالعزيز بن صهبان بن عدي، أبو عمر الدوري الأزدي البغدادي النحوي الدوري الضرير، إمام القراءة، وشيخ الناس في زمانه، ثقة، ثبت، كبير، ضابط، أول من جمع القراءات، الدوري: نسبة إلى (الدور) موضع ببغداد.

رحل في طلب القراءات، وقرأ بسائر الحروف السبعة وبالشواذ، وسمع من ذلك شيئاً كثيراً. توفي رحمه الله سنة ست وأربعين ومائتين للهجرة[3].

---

(١) انظر المراجع نفسها (٢/ ١٦٥)، (١/ ٢٣٠)، (١/ ١٢٠).

(٢) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (١/ ٢٨٨)، معرفة القراء الكبار (١/ ١٠٠)، النشر في القراءات العشر (١/ ١٣٣).

(٣) انظر المراجع نفسها (١/ ٢٥٥)، (١/ ١٩١)، (١/ ١٣٤)، طبقات المفسرين للداودي (١/ ١٦٥).

ب- السوسي (...-٢٦١): هو صالح بن زياد بن عبدالله بن إسماعيل بن الجارود بن مسرح الرستبي، أبو شعيب السوسي الرقي المقرئ، ضابط محرر ثقة، أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن أبي محمد اليزيدي، وهو من أجل أصحابه، وقرأ على حفص قراءة عاصم، وأخذ القراءة عن جماعة. توفي رحمه الله أول سنة إحدى وستين ومائتين، وقد قارب السبعين[١].

٤ـ عبدالله بن عامر الشامي (٨ـ ١١٨):

هو عبدالله بن عامر بن يزيد بن تميم بن ربيعة اليحصبي، يكنى أبا عمران، إمام أهل الشام في القراءة، والذي انتهت إليه مشيخة الإقراء بها.

كان رحمه الله إماماً كبيراً، وتابعياً جليلاً، وعالِماً شهيراً، أم المسلمين بالجامع الأموي سنين كثيرة في أيام عمر بن عبدالعزيز ﷺ، جمع له بين الإمامة والقضاء ومشيخة الإقراء في دمشق، وأجمع الناس على قراءته، ولد رحمه الله سنة ثمان من الهجرة، وقبض رسول الله ﷺ وله سنتان، وقد ثبت سماعه من جماعة من الصحابة. توفي رحمه الله بدمشق يوم عاشوراء سنة ثمان عشرة ومئة[٢].

أشهر من روى عنه من القراء هشام وابن ذكوان وقد أخذا عنه القراءة بواسطة.

أ- هشام (١٥٣-٢٤٥): هو هشام بن عمار بن نصير بن ميسرة، أبو الوليد السلمي الدمشقي، إمام أهل دمشق، وخطيبهم، ومقرئهم، ومحدثهم، ومفتيهم.

وروى القراءة عنه أبو عبيد القاسم بن سلام قبل وفاته بنحو أربعين سنة.

---

(١) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (١/ ٣٣٢)، معرفة القراء الكبار (١/ ١٩٣)، النشر في القراءات العشر (١/ ١٣٤)، وسير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٨٠).

(٢) انظر المراجع نفسها (١/ ٤٢٣)، (١/ ٨٢)، (١/ ١٤٤).

كان رحمه الله مشهوراً بالنقل والفصاحة والعلم والرواية والدراية، رزق كبر السن وصحة العقل والرأي، فارتحل الناس إليه في القراءات والحديث. توفي رحمه الله سنة خمس وأربعين ومائتين[1].

ب- ابن ذكوان (١٧٣-٢٤٢): هو عبدالله بن أحمد بن بشر - ويقال: بشير بن ذكوان بن عمرو، أبو عمرو القرشي الفهري الدمشقي الإمام الأستاذ الشهير الراوي الثقة، شيخ الإقراء بالشام، وإمام جامع دمشق، حين قدم الشام، قال أبو زرعة: لم يكن بالعراق ولا بالحجاز ولا بالشام ولا بمصر ولا بخراسان في زمان ابن ذكوان أقرأ عندي منه، أخذ القراءة عن أيوب بن تميم عن يحيى بن الحارث الذماري عن عبدالله بن عامر. توفي رحمه الله سنة اثنتين وأربعين ومائتين[2].

٥ـ عاصم الكوفي (ت ١٢٧):

هو عاصم بن أبي النَّجُود - بفتح النون وضم الجيم - أبو بكر الأسدي مولاهم الكوفي شيخ الإقراء بالكوفة، وأحد القراء السبعة، قيل اسم أبيه عبدالله، وكنيته أبو النجود، وهو الإمام الذي انتهت إليه رئاسة الإقراء بالكوفة بعد أبي عبدالرحمن السلمي، جمع بين الفصاحة، والإتقان، والتحرير، والتجويد، وكان أحسن الناس صوتاً بالقرآن، وكان من التابعين. توفي رحمه الله سنة سبع وعشرين ومائة[3]. وقد روى القراءة عنه خلق كثير، واشتهر منهم شعبة، وحفص.

---

(١) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (٢/ ٣٥٤)، معرفة القراء الكبار للذهبي (١/ ١٩٣)، النشر في القراءات العشر (١/ ١٤٤).

(٢) انظر غاية النهاية (١/ ٤٠٤)، معرفة القراء الكبار (١/ ١٩٨)، النشر في القراءات العشر (١/ ١٤٤).

(٣) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (١/ ٣٤٦)، معرفة القراء الكبار (١/ ٨٨)، النشر في القراءات العشر (١/ ١٥٥).

أ- شعبة (٩٥-١٩٣): هو شعبة بن عياش بن سالم، أبو بكر الحناط، الأسدي النهشلي الكوفي كان إماماً كبيراً وعالِماً عاملاً، وكان من أئمة السنّة، ختم القرآن ثماني عشر ألف ختمة. عرض القرآن على عاصم ثلاث مرات. توفي رحمه الله سنة ثلاث وتسعين ومائة[١].

ب- حفص (٩٠-١٨٠): هو حفص بن سليمان بن مغيرة بن أبي داود الأسدي الكوفي الغاضري البزار، أخذ القراءة عرضاً وتلقيناً عن عاصم، وكان ربيبه ابن زوجته، وكان أعلم من روى عن عاصم بقراءته، وهو في القراءة ثقة ثبت ضابط لها، أقرأ الناس دهراً، وكانت القراءة التي أخذها عن عاصم ترتفع إلى علي رضي الله عنه. توفي رحمه الله سنة ثمانين ومائة[٢].

٦- حمزة الكوفي (٨٠-١٥٦):

هو حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل، الإمام الحبر، أبو عمارة الكوفي، التميمي، مولاهم، وقيل من صميمهم، الزيات، أحد القراء السبعة، إمام الناس في القراءة بالكوفة بعد عاصم، وكان ثقة حجة، مجوداً لكتاب الله، عارفاً بالفرائض، حافظاً للحديث، عابداً، خاشعاً، قانتاً لله تعالى، أدرك بعض الصحابة، وهو من التابعين الأجلاء. توفي رحمه الله سنة ست وخمسين ومائة[٣].

وقد روى القراءة عنه كثير من الناس، وأشهرهم خلف وخلاد فقد أخذا قراءته عن سليم بن عيسى عن حمزة.

---

(١) انظر غاية النهاية (١/ ٣٢٥)، معرفة القراء الكبار (١/ ١٣٤)، النشر في القراءات العشر (١/ ١٥٦).

(٢) انظر غاية النهاية (١/ ٢٥٤)، ومعرفة القراء الكبار (١/ ١٤٠)، النشر في القراءات العشر (١/ ١٥٦).

(٣) انظر غاية النهاية (١/ ٢٦١)، ومعرفة القراء الكبار (١/ ١١١)، النشر في القراءات العشر (١/ ١٦٥).

أ- خلف (١٥٠-٢٢٩): هو خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف بن ثعلب، أبو محمد الأسدي البزار البغدادي، أحد القراء العشرة، وأحد الرواة عن سليم عن حمزة.

حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين كان ثقةً كبيراً، زاهداً عابداً، عالماً، وقد اختار له قراءة انفرد بها، قال ابن أشته: كان خلف يأخذ بمذهب حمزة إلا أنه خالفه في مائة وعشرين حرفاً، أي في اختياره. توفي رحمه الله سنة تسع وعشرين ومائتين ببغداد[١].

ب- خلاد (١١٩-٢٢٠): هو خلاد بن خالد، أبو عيسى الشيباني مولاهم الصيرفي الكوفي، إمام في القراءة ثقة، عارف، محقق، أستاذ. توفي رحمه الله سنة عشرين ومائتين[٢].

٧- الكسائي الكوفي (١١٩- ١٨٩):

هو علي بن عبدالله بن بهمن بن فيروز الأسدي مولاهم، أبو الحسن الكسائي، الإمام الذي انتهت إليه رئاسة الإقراء بالكوفة بعد حمزة الزيات، أخذ القراءة عرضاً عن حمزة أربع مرات وعليه اعتماده، وروى الحروف عن أبي بكر ابن عياش وعن المفضل بن محمد الضبي وآخرين، رحل إلى البصرة فأخذ اللغة عن الخليل.

قال أبو عبيد في كتاب القراءات: كان الكسائي يتخير القراءات، فأخذ من قراءة حمزة ببعض، وترك بعضاً، وكان من أهل القراءة، وهي كانت عمله وصناعته، ولم يُجالَس أحدٌ كان أضبط، ولا أقوم بها منه.

---

(١) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (١/ ٢٧٢)، معرفة القراء الكبار (١/ ٣٠٨).
(٢) انظر غاية النهاية (١/ ٢٧٤)، ومعرفة القراء الكبار (١/ ٢١٠).

وقال أبو بكر بن الأنباري: اجتمعت في الكسائي أمور: كان أعلم الناس بالنحو، وأوحدهم في الغريب، وكان أوحد الناس في القرآن، فكانوا يكثرون عليه فيجمعهم ويجلس على كرسي، ويتلو القرآن من أوله إلى آخره، وهم يسمعون ويضبطون عنه حتى المقاطع والمبادئ.

وسمي بالكسائي لأنه أحرم في كساء، له مؤلفات كثيرة نافعة منها كتاب معاني القرآن، وكتاب الراءات، وكتاب العدد، وكتاب النوادر: الكبير، والأوسط، والصغير. توفي رحمه الله سنة تسع وثمانين ومائة[1].

أشهر من روى عنه عثمان اثنان هما: الليث وحفص الدوري.

أ- الليث (...-٢٤٠): هو الليث بن خالد، أبو الحارث البغدادي، ثقة، معروف، حاذق، ضابط عرض على الكسائي، وهو من جلة أصحابه، وروى الحروف عن حمزة بن القاسم الأحول واليزيدي. توفي رحمه الله سنة أربعين ومائتين[2].

ب- حفص الدوري (...-٢٤٦): تقدمت ترجمته.

٨ـ أبو جعفر المدني (...ـ١٣٠):

هو يزيد بن القعقاع الإمام، أبو جعفر المخزومي المدني القارئ، أحد القراء العشرة، تابعي مشهور كبير القدر، أتي به وهو صغير إلى أم سلمة (رضي الله عنها) فمسحت على رأسه، ودعت له بالبركة، وصلى بابن عمر، وأقرأ الناس قبل حادثة الحرة، أي: قبل سنة ثلاث وستين، روى عنه القراءة نافع بن أبي نعيم، وابن جماز، وابن وردان وآخرون. كان رحمه الله كثير العبادة فكان يصوم

---

(١) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (١/ ٥٣٥)، ومعرفة القراء الكبار (١/ ١٢٠)، النشر في القراءات العشر (١/ ١٧٢).

(٢) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (٢/ ٣٤)، معرفة القراء الكبار (١/ ٢١١).

يوماً ويفطر يوماً، ويصلي في جوف الليل. توفي رحمه الله سنة ثلاثين ومائة على الأصح[1].

أشهر من روى عن أبي جعفر، عيسى بن وردان، وسليمان بن جماز.

أ- عيسى بن وردان (...-١٦٠): هو عيسى بن وردان، أبو الحارث المدني الحذاء، إمام مقرئ حاذق، وراوٍ محقق ضابط، توفي رحمه الله في حدود الستين ومائة[2].

ب- سليمان بن جماز (...-١٧٠): هو سليمان بن مسلم بن جمّاز - بالجيم والزاي مع تشديد الميم - أبو الربيع الزهري، مولاهم المدني، مقرئ جليل ضابط، توفي رحمه الله بعد سنة سبعين ومائة[3].

٩ـ يعقوب البصري (١١٧ـ ٢٠٥):

هو يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبدالله بن أبي إسحاق، أبو محمد الحضرمي، مولاهم البصري، أحد القراء العشرة، وإمام أهل البصرة ومقريها، انتهت إليه رئاسة القراءة في البصرة بعد أبي عمرو بن العلاء.

قال أبو حاتم السجستاني: هو أعلم من رأيت بالحروف والاختلاف في القراءات وعلله، ومذاهبه، ومذاهب النحو، وأروى الناس لحروف القرآن، وحديث الفقهاء.

يقول ابن الجزري: ومن أعجب العجب بل من أكبر الخطأ جعل قراءة يعقوب من الشاذ الذي لا تجوز القراءة به ولا الصلاة، وهذا شيء لا نعرفه قبل هذا إلا في هذا الزمان ممن لا يعول على قوله، ولا يلتفت إلى اختياره.

---

(١) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (٢/ ٣٨٢)، معرفة القراء الكبار (١/ ٧٢)، النشر في القراءات العشر (١/ ١٧٨).

(٢) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (١/ ٦١٦)، ومعرفة القراء الكبار (١/ ١١١).

(٣) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (١/ ٣١٥)، والنشر في القراءات العشر (١/ ١٧٩).

توفي رحمه الله سنة خمس ومائتين وله ثمان وثمانون سنة، ومات أبوه عن ثمان وثمانين سنة، وكذلك جده وجد أبيه رحمهم الله تعالى[1].

أشهر من روى القراءة عنه رويس، وروح.

أ- رويس (...-٢٣٨هـ): هو محمد بن المتوكل، أبو عبدالله اللؤلؤي البصري المعروف برويس، مقرئ حاذق، ضابط مشهور. توفي رحمه الله سنة ثمان وثلاثين ومائتين بالبصرة[2].

ب- روح (...-٢٣٤): هو روح بن عبدالمؤمن، أبو الحسن الهذلي مولاهم البصري النحوي، مقرئ جليل ثقة ضابط مشهور. توفي رحمه الله سنة أربع أو خمس وثلاثين ومائتين[3].

١٠ـ خلف العاشر (١٥٠ ـ ٢٢٩):

تقدمت ترجمته وأشهر رواته:

أ- إسحاق (...-٢٨٦): هو إسحاق بن إبراهيم بن عثمان بن عبدالله، أبو يعقوب المروزي ثم البغدادي الوراق، كان رحمه الله قيّماً بالقراءة، ثقة، ضابطاً لها، وإن كان لا يعرف من القراءات إلا اختيار خلف. توفي رحمه الله سنة ست وثمانين ومائتين[4].

ب- إدريس (١٩٩-٢٩٢): هو إدريس بن عبدالكريم الحداد، أبو الحسن البغدادي، إمام، ضابط، متقن. توفي رحمه الله يوم الأضحى سنة (٢٩٢) عن ثلاث وتسعين سنة[5].

---

(١) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (٢/ ٣٨٦)، معرفة القراء الكبار (١/ ١٥٧)، النشر في القراءات العشر (١/ ١٨٥).

(٢) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (٢/ ٢٣٤)، ومعرفة القراء الكبار (١/ ٢١٦).

(٣) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (١/ ٢٨٥)، ومعرفة القراء الكبار (١/ ٢١٤).

(٤) انظر غاية النهاية في طبقات القراء (١/ ١٥٥)، النشر في القراءات العشر (١/ ١٩١).

(٥) غاية النهاية في طبقات القراء (١/ ١٥٤).

أقسام القراءات:

القراءات ليست كلها سواءً، بل إن بعضها أصحّ من بعض، ولابد لنا هنا من بيان أقسام هذه القراءات وما يقبل منها وما لا يقبل فهناك قراءات مقبولة استوفت شروط القبول وأخرى لم تستوفها.

وهذه هي أهم أقسام القراءات التي ذكرها العلماء[1].

١- القراءات المتواترة: هي القراءات التي نقلها جمع من الثقات بحيث يؤمن تواطؤهم على الكذب من أول السند إلى منتهاه. وهذه القراءات يُقطع بصحة نسبتها إلى الوحي الإلهي.

٢- القراءات المشهورة المستفيضة: هي القراءات التي صحّ سندها واشتهرت قراءتها، ووافقت العربية ولو بوجه، ووافقت الرسم ولو تقديراً، وهذه القراءات كذلك يُقطع بقرآنيتها وأنها من وحي الله.

وهذان القسمان الأول والثاني من القراءات الثابتة المقطوع بقرآنيتها ولا تُرَدُّ قراءة تصل إلينا من أي هذين الطريقين.

وقراءات الأئمة العشرة داخلة في هذين القسمين، فهي إما أن تكون متواترة أو صحيحة مستفيضة كما ورد عن كثير من كبار الأئمة كابن الجزري وأبي شامة وغيرهما[2].

---

(١) انظر الإبانة عن معاني القراءات لمكي بن أبي طاب: ٥١ وما بعدها، والنشر: ١/ ٢٦-٣٢، ٤٤-٤٥، ومنجد المقرئين: ١٥ وما بعدها، والإتقان: ١/ ٧٥ وما بعدها، ومناهل العرفان: ١/ ٤٢٢-٤٢٤.

(٢) النشر: ١/ ١٣.

وقد أفاض الونشريسي في تقرير تواتر القراءات ناقلاً تقريراً طويلاً لابن عرفة في ذلك، ومع أن ابن عرفة اقتصر على القول بتواتر القراءات السبع، لكنه صرح بصحة الثلاث المكملة للعشر كذلك[1].

وأرى أن لا ضرورة لهذا التقسيم، فإذا كان القرآن متواتراً، فإن القراءات التي اعتمدتها الأمة ينبغي أن تكون كذلك، وهذا التقسيم، قد يوقع كثيرين في لَبْس ما أغنانا عن مثله، وقد يأتي لهذا مزيد تفصيل فيما بعد إن شاء الله.

٣- القراءات المروية بطريق الآحاد: هي التي صحّ سندها وخالفت الرسم أو العربية، أو لم تشتهر الاشتهار المذكور.

وهذه القراءات لا يُقرأ بها، ولا تعدّ من القراءات الصحيحة المقطوع بقرآنيتها، وهي نفسها التي تسمى القراءات الشاذة[2].

٤- القراءات التي لم يصح سندها: وقد مثل السيوطي لهذا النوع بقراءة «ملَكَ يوم الدين» [الفاتحة:٣] وقراءة «إياك يُعبد» [الفاتحة:٤] وهذا لا يعد قرآناً[3].

٥- القراءات الموضوعة: هي التي تنسب إلى قائلها، وقد مثل لها السيوطي بقراءات الخزاعي[4] وتسميتها بالقراءات من باب التجوّز كما يسمي علماء الحديث الموضوع حديثاً.

٦- ما زيد في القراءات على وجه التفسير: مثاله قراءة «وله أخ أو أخت من أمّ»[5] وقراءة «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر»

---

(١) المعيار المعرب: ١٢/ ٦٨، وما بعدها.

(٢) الإتقان:١/ ٧٧.

(٣) الإتقان: ١/ ٧٧.

(٤) نفسه: ١/ ٧٧.

(٥) انظر النشر: ١/ ٤٥ وما بعدها، الإتقان ١/ ٧٧، مناهل العرفان: ١/ ٤٢٤.

وغيرهما، ومثل هذا قد يصح نقله لا على أنه قرآن وإنما هو يشبه الإدراج في الحديث الشريف، فالفائدة منه تفسير بعض الكلمات وبيان المراد منها.

أركان القراءة المقبولة:

احتاط أئمة القراءة غاية الاحتياط لصون القراءات، فوضعوا ضوابط ومقاييس لتمييز القراءة المتواترة من المشهورة والضعيفة، فاشترطوا في القراءة الصحيحة المقبولة أن تتوافر فيها الشروط التالية:

١- صحة السند واستفاضته: وقد اختُلف في مستوى صحة السند المشترطة، فاشترط بعضهم التواتر، واكتفى آخرون بالاستفاضة، ومنهم أبو شامة[١] ومكي بن أبي طالب[٢]. وتبعه الإمام ابن الجزري في طيبة النشر حيث قال[٣]:

فكلُّ ما وافق وجهَ نَحْوِ ... وكان للرسم احتمالاً يحوي

وصحّ إسناداً هو القرآنُ ... فهذه الثلاثة الأركانُ

وحيثما يختلُّ ركنٌ أثبتِ ... شذوذه لو أنه في السبعة

وهذا وجه ضعيف؛ لأن ابن الجزري نفسه اشترط التواتر في منجد المقرئين[٤].

وقد بيّن النوري الصفاقسي أن اشتراط تواتر القراءات ذكره كثير من العلماء[٥].

---

(١) انظر منجد المقرئين: ٥٧ وما بعدها، ومناهل العرفان: ٤٢٤-٤٤٨.

(٢) الإبانة: ٥١ وما بعدها.

(٣) طيبة النشر: ٣.

(٤) انظر منجد المقرئين: ٥٧ وما بعدها.

(٥) غيث النفع: ٧.

وشذ في مخالفة اشتراط هذا الركن ابن مقسم الذي ذهب إلى الأخذ بما وفق خط المصحف وإن لم يُرْوَ، وقد استتيب فرجع عن قوله كما تقدم[1].

٢- موافقة العربية ولو بوجه: المقصود به أن تكون القراءة موافقة لوجه من وجوه اللغة والنحو سواء أكان أفصح أم فصيحاً مجمعاً عليه أم مختلفاً فيه ما دامت القراءة صحيحة الإسناد موافقة لأحد المصاحف العثمانية.

مثال ذلك قراءة حمزة بخفض الأرحام في الآية: «واتقوا الله الذي تساءَلون به والأرحامِ» عطفاً على الضمير المجرور في (به) على مذهب الكوفيين أو أعيد الجار وحُذف للعِلْم به أو جُرّ على القسم تعظيماً للأرحام وحثاً على صلتها[2].

قال أبو عمرو الداني: «وأئمة القراءة لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر، والأصح في النقل، وإذا ثبتت الرواية لم يردّها قياس عربية ولا فشوّ لغة؛ لأن القراءة سنّة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها».

٣- موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً: المقصود به أن توافق القراءة أحد المصاحف العثمانية التي نسخها عثمان بن عفان ﷺ وأرسلها إلى الأمصار الإسلامية المختلفة، مثال ذلك قراءة ابن كثير في قوله تعالى: «جناتٍ تجري من تحتها الأنهار» بزيادة (من) فإنها موافقة للمصحف الذي أرسل إلى مكة المكرمة[3].

---

(١) انظر النشر: ١/ ١٧، غاية النهاية: ١/ ١٢٤.

(٢) إتحاف فضلاء البشر: ١٨٥، وانظر الدفاع عن القرآن: ص١ وما بعدها.

(٣) القراءات: أحكامها ومصدرها: ٧٧. وتاريخ القراءة للدكتور عبدالصبور شاهين: ٢٠٧.

وهذا الشرط مجمع عليه، وخالف في اشتراطه ابن شنبوذ الذي كان يرى جواز القراءة بما خالف الرسم ما دامت الرواية صحيحة النقل، وقد استتيب فرجع عن قوله[1].

ومعنى قول ابن الجزري «وكان للرسم احتمالاً يحوي» أن الكلمة يحتملها رسم المصحف العثماني وذلك مثل «مالك و«ملِك» فقوله سبحانه وتعالى «ملِك يوم الدين» [الفاتحة:٣] رسمت بلا ألف، لكن قراءة «مالك» قراءة صحيحة ويحتملها الرسم فقد تكون الألف حذفت تخفيفاً.

قال النويري رحمه الله في شرح الطيبة: «اعلم أن الرسم هو تصوير الكلمة بحروف هجائها بتقدير الابتداء بها والوقف عليها، والعثماني هو الذي رُسم في المصاحف العثمانية» ثم ذكر أقسام الرسم وقال عند حديثه عن القسم الثالث وهو ما وافق الرسم احتمالاً: «ويندرج فيه ما وقع الاختلاف فيه بالحركة والسكون نحو «القُدس»[2] وبالتخفيف والتشديد نحو «ينشُرُكُمْ»[3] بيونس.

وبالقطع والوصل المعبر عنه بالشكل نحو «ادخلوا»[4] بغافر وباختلاف الإعجام نحو «يعلمون»[5] و«يفتح» وبالإعجام والإهمال نحو (ننشزها)[6]... إلخ.

* * *

---

(١) النشر: ١/ ١٦، ٤٣.

(٢) أي القُدْس والقُدُس.

(٣) أي (يُنشِركُمْ) و(يَنشُرُكم).

(٤) أي «ادخلوا» و«أَدْخِلوا» .

(٥) أي (يَعْلمون) و(تعلَمون)، (يفتح) و(تفتح).

(٦) أي (نُنشزها) و(نُنشرها).

الفصل السادس عشر

ترجمة القرآن

معنى الترجمة: جاء في الصحاح «يقال قد ترجم كلامه إذا فسره بلسان آخر، ومنه الترجمات والجمع تراجم». وجاء في المصباح المنير «ترجم فلان كلامه إذا بيّنه وأوضحه، وترجم كلام غيره إذا عبر عنه بلغة غير لغة المتكلم، واسم الفاعل ترجمان، فيه لغات أجودها فتح التاء وضم الجيم، والثانية ضمهما معاً يجعل التاء تابعة للجيم، والثالثة فتحهما معاً يجعل الجيم تابعة للتاء والجمع تراجم» .

أقسامها :

تنقسم الترجمة قسمين اثنين:

١- الترجمة الحرفية: هي نقل نص من لغة إلى لغة أخرى بكل خصائصها الأسلوبية، ومقوماته اللغوية، وما فيه من مزايا النظم.

٢- الترجمة التفسيرية: وهي نقل المعنى العام لنص ما من لغة إلى أخرى.

ترجمة القرآن الكريم :

والقرآن كتاب الله الذي أنزله على قلب نبيه ﷺ ، وهو المعجزة الخالدة الباقية على مدى الدهر، وقد تحدى الخلق أن يأتوا بسورة مثله، ولكنهم عجزوا ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة:٢٣-٢٤].

وهذا القرآن الذي تحدى به، ومجموع الألفاظ والمعاني، والمفردات والتراكيب، وإذا كان الترجمة الحرفية لأي كلام تعسر أو تستحيل، فإن ذلك أظهر في كتاب الله تبارك وتعالى، فالمفردات القرآنية مفردات دقيقة يظن لأول وهلة أن كثيراً منها من قبيل المترادف، ولكن إذا أنعم المتأمل فيها النظر، يجد أن لكل لفظة معناها الخاص بها، كذلك معانيه لكل معنى ما هو ألصق به من اللفظ، فالفعل والعمل يُظَنّ أنهما مترادفات، كذلك الخوف والخشية، والوجل والإشفاق، ومثل هذه القيام والوقوف، والقعود والجلوس، والشك والريب، والضلال والإحباط، والحمد والشكر، وغير ذلك كثير.

وإن من الصعوبة القصوى أن تترجم هذه الألفاظ بدقتها وإحكامها إلى غير العربية من اللغات، وأن يكون لها مدلولها الخاص بها.

وإذا كان كذلك في الألفاظ المفردة، فإنه في التراكيب أكثر صعوبة وعسرة؛ ذلكم أن أسلوب القرآن أسلوب بديع، متناه في البلاغة، ويظهر هذا مما فيه من تقديم وتأخير، وحذف وذكر، وفصل ووصل، وتعريف وتنكير، فقولنا: «الحمد لله» يختلف فيه المعنى كثيراً عن قولنا: «لله الحمد» وكلاهما في كتاب الله، وقوله سبحانه: «لله الأمر» يختلف عن قوله سبحانه من حيث المعنى «والأمر يومئذ لله»، كذلك قوله سبحانه: «والله خبير بما تعملون» مختلف من حيث المعنى عن قوله: «والله بما تعملون خبير»، وقوله: «أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم» مختلف من حيث المعنى عن قولنا «أفعلت هذا بآلهتنا» ، كذلك قوله سبحانه: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [البقرة: ١٤٧] يختلف عن قوله: ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [آل عمران:٦٠]، كذلك قوله: «قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون» يختلف عن قوله: «لقوم يعملون» .

ثم إن في القرآن الكريم كذلك تعبيرات مجازية فيه الاستعارة البديعية، والكناية الموحية، وفيه اللفظ المشترك بين أكثر من معنى واحد؛ وفيه القصص

الذي جاء بأساليب متعددة، وفيه اللفظ المشترك بين أكثر من معنى واحد؛ وفيه القصص الذي جاء بأساليب متعددة، وفيه التعابير الموجزة، وفيه الإيجاز الذي إذا أردنا أن نعبر عنه بالعربية احتاج ذلك إلى جهد.

هذه الأساليب القرآنية وغيرها لا يتصور أبداً أن تترجم إلى غير لغة القرآن، والعلماء مجمعون على أن أي ترجمة لأي جملة قرآنية لا يمكن أن تسمى قرآناً، حتى أولئك الذين نقل عنهم جواز القراءة في الصلاة بغير العربية، لا يدّعون قرآنية هذه الترجمة، وهذا القول حكي عن أبي حنيفة – رحمه الله – وهو مخالف بذلك لجميع فقهاء الأمصار حتى لصاحبيه محمد وأبي يوسف، والرواية الصحيحة أنه – رحمه الله – رجع عن هذا القول، علماء المسلمين مجمعون – إذن – على أن الترجمة لا تسمى قرآناً.

ذلكم أن القرآن الكريم يشتمل على المفردات والتراكيب، ومن أراد فهم القرآن والإفادة منه فلا بد له من العناية بهذين الجانبين.

فأما المفردات فمع ما فيها من دقة وإحكام ففيها كذلك ما هو مشترك على أكثر من معنى، فكلمة مسحر في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعراء:١٥٣] فسرها بعضهم بالمسحور وفسرها آخرون بذي الرئة الذي يأكل ويشرب.

وقد يتعين أحد المعنيين في آية دون الأخرى، وقد يستحيل على المترجم أن يعطي المعنى الدقيق لكل كلمة من كلمات القرآن، بل سيخلط بين معاني الكلمات، فيفسر الريب بما يفسر فيه الشك، مع أن كلاً من الكلمتين وردت في سياق يختلف عن سياق الأخرى.

وأمر المفردات أسهل كثيراً من التراكيب، فللتراكيب القرآنية خصائص جاءت من دقة الوضع لهذه اللغة، وقد قرر العلماء أن للكلام معاني أولية،

وهي تلك التي نجدها في المعاجم، ومعاني ثانوية، وهي الناتجة من خصائص التراكيب اللغوية، وهذا ما أشار إليه الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز، وعبّر عنه بالمعنى ومعنى المعنى.. وهذه المعاني الثانوية لا يمكن أن تترجم إلى لغة أخرى غير العربية.

وهذه بعض الأمثلة توضح ما قصدناه:

١- من حق المفعول به أن يؤخر، فإن قدم فلغرض بياني، قال تعالى: ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ ﴾ [الأنعام:٤٠] وقال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة:٥]. إن تقديم المفعول في الآيتين الكريمتين يدل على معانٍ ثانوية، أو على معنى المعنى، والترجمة لا يمكن أن يؤدى فيها الغرض البياني، الذي قدم من أجلها المفعول.

٢- قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ [الذاريات:٢٥]. ذكرت كلمة (سلام) مرتين، منصوبة تارة حينما كانت تحية من الملائكة، ومرفوعة وهي تحية إبراهيم عليه السلام ، وهذا التغاير إنما جاء لحكم بيانية لا يمكن أن تفي الترجمة بها.. لقد نصبت (سلام) الأولى بفعل محذوف «نسلم سلاماً» فالجملة فعلية، ورفع الثانية «عليكم سلام» فالجملة اسمية، والجملة الاسمية تدل على الثبوت والدوام وليست كذلك الفعلية، وهكذا رد الخليل عليه السلام على التحية بخير منها.

٣- قال تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ [البقرة:٩٦] إن تنكير (حياة) جاء لهدف وحكمة، أي: يحرصون على حياة، أي حياة مهما بلغت من الذل والمهانة.

إن هذه المعاني الثانوية كلها في الآية الكريمة تستحيل ترجمتها، ولا يمكن أن تسمى هذه الترجمة قرآناً، إذ القرآن عربي غير ذي عوج.

خلاصة القول إن ترجمة القرآن إن أريد بها الترجمة الحرفية، فهي ممنوعة قطعاً، وإن أريد بها الترجمة التفسيرية، أي: ترجمة معاني القرآن الكريم فذلك أمر ممكن، بل هو مستحب ومرغب فيه.

فوائد ترجمة القرآن الكريم:

إن ما تجده في هذا العصر من صراع بين الأفكار والمبادئ، ومن حملات ظالمة شعواء على هذا الدين بغير حق، يحاول فيها خصوم الإسلام وأعداؤه إلقاء الشبهات، وتشويه الوجه الناصع لهذا الدين، يحتم على المسلمين أن يبلغوا دعوة الله بأيسر الأساليب، وأفضل الطرق، وقد يتطلب هذا إيصال معاني القرآن الكريم وحقائقه إلى غير المسلمين، وبخاصة الذين لا يتكلمون العربية، وهذا الأمر يتحتم إذا عرفنا أن هناك ترجمات للقرآن الكريم، مليئة بالأخطاء والافتراءات، والترهات والأكاذيب زورت فيها الحقائق، وكان ذلك أمراً متعمداً.

وهناك تراجم قد تكون ناشئة عن جهل المترجم بمعرفة معاني القرآن، لجهله باللغة العربية وأسرارها وأساليبها.

يقول الشيخ محمد الخضر حسين، شيخ الأزهر الأسبق: «والخلل الذي يشترك فيه الترجمتان: الحرفية والمعنوية أن يكون اللفظ ذا معنيين أو معانٍ تحتملهما الآية، فيضطر المترجم إلى أن يضع بدله من اللغة الأجنبية اللفظ الموضوع لما يختاره من المعنيين أو المعاني، حيث لا يجد لفظاً يشاكل اللفظ العربي في احتمال تلك المعاني المتعددة. ومثال هذا ما صنع ماكس هينج مترجم القرآن للسان الألماني، فإنه ترجم الإبل في قوله: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية:١٧] باللفظ الموضوع في الألماني للسحاب، وهو أحد المعاني التي حملت عليها الآية، والجمهور يفسرون الإبل بالحيوان المعروف، وهو المتبادر، ولا داعي إلى صرف اللفظ عنه إلى ذلك المعنى المجازي وهو السحاب.

ومن الخلل الذي يدخل الترجمة الحرفية أن يستعمل القرآن اللفظ في معنى مجازي فيأتي المترجم بلفظ يرادف اللفظ العربي في معناه الحقيقي، وهذا ما صنع مارماديوك بكتهول مترجم القرآن إلى اللسان الإنجليزي في كثير من الآيات، وقد وقع من هذه الناحية في أخطاء لا تحصى، تجدونه مثلاً يترجم قوله: «فيدمغه» من آية ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾ [الأنبياء:١٨] بمعناها الأصلي وهو (فيشج رأسه)، ويترجم قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء:٢٩] بمدلولها الأصلي وهو جمع اليد إلى العنق وإطلاقها، والقارئ الإنجليزي لم يعتد أن يفهم من مثل شج الرأس معنى الغلب، ولا من جمع اليد إلى العنق وإطلاقها معنى البخل والإسراف.

ومن هذا القبيل أن يطلق القرآن لفظاً عاماً ويريد به خاصاً، كما أطلق الواقعة على يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ [الواقعة:١] فيأتي المترجم بما يرادف يوم القيامة، وكذلك فعل المترجم الألماني، إلا أنه كتب في أسفل الصحيفة منبهاً على أنه المراد يوم القيامة.

ومن هذا الباب أن يستعمل القرآن الكلمة ومعناها لا يظهر إلا بملاحظة بتعلق محذوف ويكون هذا المتعلق قريب المآخذ في النظم العربي دون لغة الترجمة كقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة:١٠-١١] فإن ترجمتها من غير ذكر متعلق السابقين الواردة أولاً وهو (في الدنيا) وتعلق السابقين الواردة ثانياً وهو (في الآخرة) لا تأتي للقارئ الألماني بفائدة»[1].

يقول السيد علوي بن السيد عباس المالكي: «ومن حقق النظر في آية الوصية وهي قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ

---

(١) بلاغة القرآن، محمد الخضر حسين، ص١٧.

يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾ [البقرة:١٨١] علم أنها تجر بذيلها على المتعرضين لترجمة القرآن جراً أولياً؛ لأن الوصية في المال دون الوصية في الدين وقوام أساسه المتين، وقد أوصانا الله بحفظ كتابه وصيانته من التغيير والتبديل، وذم علماء الكتاب المحرفين فقال: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [آل عمران:٧٨] فهذه الآية لا يبعد أن تسحب حكمها على لي الألسن بترجمة القرآن ترجمة حرفية، لأن ذلك مظنة لعبث الأيدي به والاستغناء عنه بغيره، وذريعة لتقلص ظلّه وانتهاك حرمته. فهي ضرب من التغيير والتبديل فيما تولى الله ورسوله ﷺ حفظه وأمرنا بالمحافظة عليه، فلو وقع ذلك اشتغل الناس عنه وانكبوا على تراجمه».

على أن علماء تحليل اللغات اتفقوا على أن المقومات والعناصر التي في اللغة العربية أتم وأكمل من أي لغة أخرى، ذلك لأنها غنية بوفرة مفرداتها وتفوق أساليبها، وصلاحيتها لكل ما يراد منها من دين ودنيا أخلاق وأدب واجتماع، مع فصاحة في ألفاظه وتفنن في طرق تأدية المعنى الواحد؛ ولذا لم تتحمل أي لغة كانت من اللغات بلاغة القرآن المجيد إلا هذه اللغة الشريفة فترجمة القرآن ترجمة حرفية لا تقع صحيحة وافية، ولا تكون على الأصل كافية، بل هي له عند التأمل منافية.

ولا يظن الجاهل أن الترجمة الحرفية ضرورية لتبليغ الدعوة الإسلامية؛ لأنها لو كانت كذلك لنص القرآن على طلبها، أو بينت بقية الأدلة الشرعية طلبها حتماً، أو قام بها العلماء في الصدر الأول حينما كان الإسلام غضاً طرياً، والدعوة إليه وإلى أحكامه نافذة في جميع الجهات، بل بلغ المسلمون من عصر النبوة إلى الآن، والإسلام ينمو ويتسع بدون حاجة إلى الترجمة المذكورة – الحرفية – كان المسلمون فيما سلف يقتحمون للسيادة كل وعر، ويركبون

لإظهار دين الله كل خطر، ويلبسون من برود البطولة والعدل وكرم الأخلاق ما يملأ عيون مخالفيهم مهابة وإكباراً، وكانت اللغة العربية تجر رداءها أينما رفعوا رايتهم، وتنتشر في كل واد وطئته أقدامهم، فلم يشعروا في دعوتهم إلى الإسلام بالحاجة إلى نقل معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية، وربما كان عدم نقلها إلى غير العربية وهم في تلك العزة والسلطان من أسباب إقبال غير العرب على معرفة لسان العرب، حتى صارت أوطان أعجمية تفيض نطقاً بالعربية، ذلك الأمر الذي جعل اللغة العربية تتقلب في البلاد، والقرآن يدرس باللسان الذي نزل به في كل واد، قد سكنت منذ حين ريحه وتقطعت أسبابه، غشيت المسلمين فتن وناموا عن واجب الدعوة إلى سبيل ربهم، فخسروا مظاهر عزهم، وفقدوا الوسائل التي كانت تسعد اللغة العربية فتنطلق بها ألسنة المخالفين، ويدخلون منها إلى الاطلاع على ما في القرآن من بلاغة وحكمة.

أما الترجمة التفسيرية المعنوية لأحكامه فجائزة اتفاقاً بشرط التثبت في النقل والتحري لأقوال الصحابة والتابعين وعلماء السنّة، فيكون تفسيراً موجزاً صحيحاً كافياً على قدر المستطاع، ويعتبر بياناً لا قرآناً وتبليغاً لأحكامه لا معجزاً وتبياناً، وينبغي أن يكون ذلك مقروناً ببيان حكم التشريع ومقاصده، حتى تتجلى للأعجمي محاسن الدين الحنيف، وأسرار الشرع المنيف، وبذلك تتم حاجته وتتمكن دعوته، فإذا عرف المحاسن سمت نفسه لتعلّم لغة القرآن ليتعبد بتلاوته، هذا هو السبيل المشروع في الدعوة إلى الإسلام والصراط المستقيم لمن يبغي الوصول لدار السلام، وإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدي سيدنا محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار[١].

---

(١) فيض الخبير وخلاصة التقرير على نهج التيسير: شرح منظومة التفسير، ص٢٤-٢٦.

لذلك كله كان لابد أن يهب ذوو الغيرة على دين الله، وذوو المعرفة باللغات المختلفة أن يترجموا معاني القرآن ترجمة تظهر فيها عالمية هذا الدين، ويسر هذا الكتاب، وسماحة تشريعاته، وسهولة عقائده، ومواكبة حقائق هذا القرآن للتقدم العلمي، ومؤاخاتها بين الدين والعقل، تحقيقاً لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام:١٩].

وبهذا وحدّه يبلّغ المسلمون رسالة الله، حتى لا تلزمهم الحجة، ومن أجل أن يتحقق قول الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣] فيكونوا ربانيين بما يعلّمون الكتاب وبما يدرسون.

والله نسال أن يوفق أئمة المسلمين وعلماءهم لذلك، وهو حسبنا ونِعم الوكيل.

❋ ❋ ❋

الفصل السابع عشر

التفسير والمفسرون

لقد أُلّفت كتب كثيرة في التفسير وتاريخه، والمفسرين ومناهجهم، ومن أشهر هذه الكتب قديماً: طبقات المفسرين للسيوطي، وطبقات المفسرين لتلميذه الداودي ويقع في مجلدين، وأما حديثاً: فكتاب التفسير والمفسرون للشيخ محمد حسين الذهبي - رحمه الله - ، وقد عوّل عليه أكثر الذين كتبوا من بعده، ويقع في ثلاثة أجزاء، والتفسير ورجاله للشيخ ابن عاشور - رحمه الله - .

وسنحاول أن نوجز في هذا الفصل، فنقتصر على بعض القضايا التي تمسّ الحاجة إليها، وأرجو أن يظهر قريباً إن شاء الله كتابي «اتجاهات التفسير ومناهج المفسرين في العصر الحديث» ، وأرجو الله أن يكون فيه نفع وفائدة.

نشأة التفسير والحاجة إليه

المرحلة الأولى: عصر ما قبل التدوين :

قال الله تعالى: ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، وتدبر القرآن لابد له من فهم ووعي؛ لذا كانت الحاجة إلى التفسير حاجة ملحة ماسة منذ نزول القرآن الكريم على قلب سيدنا محمد رسول الله ﷺ .

ولكن هذه الحاجة كانت تختلف من عصر إلى عصر، فكانت في عصر النبوة أقل منها في العصور اللاحقة، ذلكم لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي

مبين، وكان الذين نزل فيهم ذوي سلائق عربية سليمة، وطبائع بعيدة عن أن تلوثها العجمة، أو يفسدها اللحن، لذلك يحدثنا التاريخ أنهم حينما استمعوا القرآن تأثروا به، رقصت له نفوسهم، وخشعت له قلوبهم، حتى أولئك الذين لم يؤمنوا به، ومع ذلك الوعي العربي، ومع تلكم الجبلّة السليمة، كانت لهم حاجة إلى أن يفهموا بعض آي القرآن الكريم، ذلكم أن الكتاب الكريم له جهتان، فهو كتاب العربية الأول من جهة، وهذه كانت مدركة لدى العرب، وهو كتاب سماوي من الله، ولابد أن تكون فيه مصطلحات جديدة، بعيدة عن أفهام القوم؛ لذلك وجد سيدنا رسول الله ﷺ يبتدئهم بتفسير بعض الآيات حيناً، ويجيب عن أسئلتهم لفهم بعض الآيات حيناً آخر.

ولقد كانت عنايتهم بفهم القرآن الكريم عناية عظيمة؛ لما فيها من خير الدنيا والآخرة. الحاجة إلى التفسير – إذن – في عهد النبي ﷺ تكفل النبي ﷺ ببيانها، وكانت تتصل بمعاني القرآن من حيث أحكامه إطلاقاً وتقييداً، وإجمالاً وبياناً، ولقد بقي تفسير النبي ﷺ المعوّل عيه لا في عصر النبوة فحسب، بل في العصور المتتالية، وسيظل كذلك.

نشأة التفسير – إذن – بدأت منذ عهد النبوة، ولم تكن تفسيرات النبي ﷺ شاملة للقرآن الكريم كله، وتلكم حكمة أرادها الله تبارك وتعالى، وعمد إليها الرسول ﷺ ، وذلك من أجل أن تتدبر الأمة في جميع العصور كتاب الله تبارك وتعالى.

وخير ما يفسر القرآن، القرآن نفسه، خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة:١] فقد فسرتها الآية التي بعدها ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ ﴾ [المائدة:٣] وقوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ ﴾ [البقرة:٣٧] فقد فسرها قوله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف:٢٣].

ومن ذلك ما روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام:٨٢] قال الصحابة: يا رسول الله: أينا لم يظلم نفسه؟ فأرشدهم الرسول ﷺ إلى آية أخرى ليزيل ما لتبس عليهم فقال: ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح لابنه: ﴿ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣] إنما ذلكم الشرك[١].

وبعد تفسر القرآن بالقرآن، يأتي تفسير النبي ﷺ، أي تفسير القرآن بالسنّة، فقد فسّر النبي ﷺ القوة في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال:٦٠] قائلاً: «ألا إن القوة الرمي»[٢]. ولابد أن نبين قبل الحديث عن أقسام التفسير، معنى التفسير والفرق بينه وبين التأويل.

التفسير والتأويل:

اعتاد العلماء وهم يتكلمون عن تاريخ التفسير ونشأته أن يعرضوا الفرق بين كلمتي تفسير وتأويل، فالتفسير أصله من الفسر وهو الكشف. أما التأويل فهو من الأوْلِ، وهو الرجوع، ومنه آل إليه الأمر[٣].

وإذا أردنا أن نتعرف الفرق بين هاتين الكلمتين فإن خير ما يعيننا على ذلك القرآن الكريم نفسه، أما كلمة (التفسير) فقد وردت في الكتاب مرة واحدة في معرض الرد على الكافرين وهم يثيرون الشبه حول القرآن، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب ٢٣ حديث رقم ٣٢ انظر فتح الباري ١/ ٨٧.
(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة حديث رقم ١٦٧، انظر شرح النووي على مسلم ١٣/ ٦٤.
(٣) اللسان مادة فسر.

﴿ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان:٣٢-٣٣] أي لا يأتونك بمثل ما يحيك في صدروهم إلا ورددناه بأحسن بيان.

أما كلمة تأويل فقد وردت في الكتاب العزيز في مواضع متعددة وسياقات مختلفة:

١- فيما يتعلق بالمتشابه، فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران:٧].

٢- فيما يتعلق بتأويل الرؤيا، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ [يوسف:١٠٠]، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ [يوسف:٤٤].

٣- في تأويل الأعمال وبيان ما يقصد منها قال تعالى حاكياً عن العبد الصالح يخاطب موسى عليه السلام : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٧٨] وبعد أن شرح له ذلك شرحاً تاماً قال: ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٨٢].

٤- وردت كلمة تأويل في صحة ما ينبئ عنه القرآن، وأنه أمر محقق الوقوع، قال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [يونس:٣٩].

وإذا تأملنا هذه الآيات الكريمة وإطلاقها، نستطيع أن ندرك الدقة في الفرق بين التفسير والتأويل من تعبيرات القرآن نفسها، فالمواضع التي عبر فيها بالتأويل، إنما هي في الحقيقة بحاجة إلى الروية وإعمال الفكر، وبحاجة إلى عملية عقلية، ولا أدل على ذلك من استعمال كلمة «التأويل» بجانب المتشابه وتأويل الرؤى. أخرج الإمام البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها، ترفعه إلى رسول الله ﷺ «فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم»[1].

ندرك من هذا إذاً أن استعمالات القرآن كما يشير الحسُّ اللغوي، تفرق بين التفسير والتأويل، وإليه ذهب كثير من الكاتبين القدامى كما يعرف ذلك من كلامهم، ولقد أدرك الراغب الأصفهاني هذا الفرق بفهمه الدقيق للقرآن، فلقد كان رحمه الله على قدر عظيم من المعرفة اللغوية والدينية، فذكر في مقدمته فروقاً بين التفسير والتأويل:

١- منها أن التفسير أعم وأن التأويل أخص وأن هذه الخصوصية أتت من جهتين اثنتين:

أ- إن التفسير بيان غريب الألفاظ، وبيان لفظة يستطاع بها فهم نص متضمن لها، أما التأويل فهو بيان الجمل ومعانيها، وهذا يؤكد ما سبق أن قلناه إن التأويل بحاجة إلى الدقة وإعمال الفكر.

ب- إن التأويل أغلب استعماله في الكتب الإلهية، وهذه الكتب بحاجة إلى أن يتروى فيها أكثر من غيرها، فلا يلقى الكلام فيها جزافاً، بخلاف التفسير، فإنه يستعمل فيها وفي غيرها.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة آل عمران.

٢- ومنها أن التفسير ما يختص بالرواية، والتأويل يختص بالدراية، والرواية لا تحتاج إلى إعمال الفكر، فإنها قول مسلم به ما دام قد ثبتت صحته.

ما روي عن ابن عباس في أقسام التفسير :

اشتهر عن ابن عباس رضي الله عنهما هذه المقولة: التفسير أربعة: حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تفسره العرب بألسنتها، وتفسير تفسره العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله..

ومع اشتهار هذا القالة عن ابن عباس، لكننا لا نملك اتصال سندها من جهة، ونرتاب في معناها من جهة أخرى، فالحلال والحرام الذي لا يجهله أحد وهو القسم الأول، وهو ما يعرف بأحكام القرآن، نجد فيه اختلافاً كثيراً للعلماء، ثم التفسير الذي تعرفه العرب من لغتها، كان مقتصراً على عصر النبوة والقريب منه.

ثم إن المشتهر عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه لا يفسر المتشابه بما استأثر الله بعلمه، بل المشتهر عنه أنه ليس في القرآن شيء لا يعلم معناه. وعلى هذا فتفسير القرآن الكريم لابد لبيانه من علماء تهيأ لهم ما لم يتهيأ لغيرهم.

التفسير في عهد الصحابة :

لم يكن الصحابة رضوان الله عليهم سواء في تفسير كتاب الله، بل هم متفاوتون، وقد قالوا: إن عشرة منهم اشتهروا بالتفسير: «وهم الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبدالله بن الزبير» . وابن مسعود وعلي بن أبي طالب أكثر العشرة رواية في التفسير بعد ابن عباس، إذ إن عبدالله بن عباس أشهرهم، وذلك لدعاء النبي ﷺ له أن يعلمه الله التأويل؛ ولذلك كثرة الروايات عنه رضي الله عنه وقد يروى له في الآية الواحدة قولان أو ثلاث، وقد يكون بعضها يناقص بعضاً؛ لذا لابد من

الحذر والحكمة والحيطة في اعتماد الروايات المنقولة عنه، ولعل هذا السبب فيما روي عن الشافعي رضي الله عنه «لم يثبت عن ابن عباس إلا زهاء مائة حديث في التفسير» .

وإذا أردنا أن ندرك فهم ابن عباس رضي الله عنهما فما لنا إلا أن نرجع لبعض تفسيراته. وأذكر من هذه التفسيرات على سبيل المثال تفسيره لقوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ [البقرة:٢٦٦] فقد روى البخاري: «أن عمر رضي الله عنه قال يوماً لأصحاب النبي ﷺ : فيم ترون هذه الآية نزلت ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ﴾ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: «في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين» فقال عمر: «يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك» . قال ابن عباس: «ضربت مثلاً لعمل» قال عمر: «أي عمل؟» قال: «لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله»[1]، وكذلك تفسيره لسورة النصر في قصة شهيرة مع عمر رضي الله عنه وهي ما رواه ابن عباس قائلاً: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه. فقال: لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من قد علمتم. فدعاني ذات يوم فأدخلني معهم. فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم. قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ [النصر:١] فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فقال لي: «أكذلك تقول يا ابن عباس؟» فقلت: «لا»، قال: «فما تقول؟» قلت: «هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له» ، قال: «إذا جاء نصر الله

---

(١) البخاري، ج٦، ص٣٩.

والفتح، وذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً» فقال عمر: «ما أعلم منها إلا ما تقوله»[1].

أسباب قلة الروايات في عهد الصحابة:

وهنا مسألة لابد من بيانها والوقوف عندها، وهي أن ما نقل عن الصحابة من تفسيرات للقرآن، لم يكن من الكثرة بمكان، بل إنه كان أقل مما نقل عنهم في أمور أخرى كالفقه والفتاوى، وذلك لا يرجع بالطبع لعدم اهتمامهم بالقرآن، معاذ الله، ولا يرجع كذلك لعدم فهمهم لآيات القرآن وعدم حفظ أكثرهم له، وإنما يرجع ذلك لأنهم كانوا يفسرون القرآن تفسيراً عملياً حسب ما تقتضيه الوقائع والحوادث، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لسلاقة لغة القوم وصفاء عقيدتهم، بينما نجد ما نقل عنهم في التشريع والفتاوى أكثر بكثير مما نقل عنهم في التفسير. فلقد ذكر ابن حزم في رسالته «أصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم» أن من نقل عنهم الفتيا من الصحابة، مائة واثنان وستون، وذلك بعد بحثه وتقصيه عن ذلك.

ثم ذكر أن المكثرين من ذلك سبعة هم: عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعائشة أم المؤمنين وعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وعبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت رضي الله عنهم؟ ثم ذكر أن مجموع ما روي عن الصحابة يزيد عن عشرين ألف قضية، وقال: إنه يمكن أن يجمع لكل من هؤلاء السبعة المكثرين سفر ضخم. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على اهتمام الصحابة رضوان الله عليهم بواقع الحياة التي يعيشونها وبما تتطلبه الظروف التي كانت تمر بهم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة النصر، على أن بعض الروايات الأخرى ذكر فيها أحاديث مرفوعة إلى الرسول ﷺ يبين فيها أنه نعيت له نفسه في هذه السورة.

التعويل في التفسير على سبب النزول:

ولهذا فإن ما نقل من تفسيرات الصحابة للقرآن[1] يعول عليه كثيراً، وبخاصة لمعرفة القوم بأسباب النزول، فإن سبب النزول يعين على فهم الآية ومعرفة المراد منها. وذلك واضح في آيات كثيرة. فقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١١٥] يوهم ظاهره عدم وجوب التوجه إلى القبلة. لكننا إذا عرفنا السبب زال هذا الوهم.

أخبار أهل الكتاب ليست من مصادر التفسير عند الصحابة:

وإذا كانت مصادر التفسير عند الصحابة – كما سبق أن قلنا – الكتاب والسنّة ومعرفتهم بلغة العرب وأسباب النزول وما منّ الله عليهم من رأي ثاقب صائب فهل كانوا في حاجة إلى أهل الكتاب ليستعينوا بهم على تفسير القرآن، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين؟ .

للإجابة على هذا لابد أن نتبين أن الرسول ﷺ ، أراد أن يشد الصحابة رضوان الله عليهم، إلى شيء واحد وهو القرآن، حتى لا ينصرفوا إلى غيره فهذا هو الرسول ﷺ يدخل المسجد، فيجد الناس قد اجتمعوا حول واحد يحدثهم، فيقول: «ما هذا؟ فيقال رجل يحدث عن أنساب العرب! فيقول ﷺ : هذا علم لا ينفع، وجهل لا يضر. ثم يقول العلم ثلاثة: آية محكمة، وفريضة قائمة، وسنّة متبعة»[2].

---

(١) وسبب النزول عليه معول كبير في فهم الآية ولا أدل على ذلك من قول ابن مسعود (والله الذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ولو أعلم مكاناً آخر فيه أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته) تفسير ابن كثير، ج١،ص٣.

(٢) أخرجه أبو داود والحاكم والبيهقي، انظر فيض القدير، ج٤، ص٣٨٦.

وحينما رأى ﷺ عمر رضي الله عنه يقرأ صحيفة من التوراة غضب، وقال: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل. والله لو كان موسى بين أظهركم ما حل له لا أن يتبعني»[1]. وفي رواية «يا أيها الناس إني قد أوتيت جوامع الكلام وخواتمه، واختصر لي الكلام اختصاراً، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا»[2] وهذا هو ابن عباس رضي الله عنهما يقول فيما رواه البخاري «يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه، أحدث الأخبار بالله، تقرؤونه لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله، وغيروا بأيديهم الكتاب. فقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً. أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسائلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم»[3] ونحن حينما نستعرض ما ورد عن الصحابة رضوان الله عليهم من روايات صحيحة، لا نجد فيه أثراً لأهل الكتاب، بل نجد ما فسروه إنما يرجع إلى المصادر التي ذكرناها.

ولعله على العكس من ذلك، نجد أنهم كانوا لا يقبلون، بل وينفرون من كثير مما يعرض له أهل الكتاب، بل ويناقشونهم في آرائهم. فهذا عمر رضي الله عنه ، يهدد كعباً بوجوب انتهائه عما يحدث به بقوله: «لتتركن الحديث الأول، أو لألحقنك بأرض القردة»[4] وهذه السيدة عائشة رضي الله عنها حينما يصل

---

(١) فتح الباري، ١٧/ ٣٠٩، مطبعة الحلبي.

(٢) أخرجه أبو يعلى: قال الحافظ في الفتح، ج١٧، ص٣٠٩ بعد روايته لهذا الحديث في سنده عبدالرحمن بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف.

(٣) صحيح البخاري كتاب الشهادات، ج٣، ص٢٣٧.

(٤) البداية والنهاية (٨/ ١٠٦).

إليها أن كعباً يقول: «لقد قسم الله كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد عليهما السلام» تقول: «لقد قف شعري»[1].

بعد هذه النصوص والتعليمات، لا نستطيع مطلقاً أن ندعي أن أخبار أهل الكتاب كانت مصدراً من مصادر التفسير عند الصحابة، فضلاً عن أن يتوسعوا في الأخذ عنهم، بل كانت مصادر التفسير عندهم صافية غير مستوردة، تنبع من ذاتهم وبيئتهم، ولذلك لم نجد بينهم اختلافاً فيما عرضوا له من تفسير، مع أنه لم يصلنا عنهم تفسير للقرآن كله[2] والذي وصل إلينا منهم كان سهل المأخذ ميسور التناول، حتى لقد كان كثير من تفسيراتهم يوضح بالقراءات التفسيرية، مما دعا مجاهداً أن يقول كلمته الشهيرة «لو قرأت قراءة ابن مسعود، ما احتجت أن أسأل ابن عباس عن كل ما سألته عنه» وهذه ميزات لا تجدها في الفترة التالية أعني فترة تفسير التابعين.

التفسير في عهد التابعين:

التابعون هم الذين ورثوا علم الصحابة رضوان الله عليهم. ولا شك أن عصر التابعين هو خير العصور بعد عصر الصحابة، يقول الرسول ﷺ «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[3] وإذا كان ورع التابعين وعلمهم من المكانة بحيث لا يسعنا إلا أن نوليه من الاهتمام ما يتسع له الجهد، فإنه ينبغي ألا يفوتنا أن نقرر أن التفسير في عصر التابعين، تميز عنه في عصر الصحابة بميزات كان لها أثر فيما بعد.

---

(١) الترمذي، ج٥، ص٣٩٤.

(٢) التفسير المنسوب لابن عباس لم تصح نسبته إليه.

(٣) رواه البخاري، ج٥، ص٣.

وإذا كان الأئمة قد اختلفوا في قول الصحابي في التفسير هل هو حجة أم لا؟ فإن هذا الاختلاف من الأولى أن يكون في تفسير التابعين. ولقد فرعوا على ذلك خلافاً آخر هو: هل تفسير التابعين من التفسير المأثور أم لا؟ وهي إحدى الروايتين عن أحمد، واختارها ابن عقيل من أئمة الحنابلة. وقال أبو حيان – ذهب بعض من عاصرنا إلى أن علم التفسير مضطر إلى النقل في فهم معاني تركيبه، باستثناء ابن مجاهد وطاووس وعكرمة وأضرابهم. وأن فهم الآيات يتوقف على ذلك، قال وليس كذلك» [1] ولا ننسى كلمة أبي حنيفة ﷺ، «ما جاءنا عن الرسول ﷺ فعلى الرأس والعين، وما جاءنا عن الصحابة تخيرنا فيه، وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال» [2] وهذا لا يحط من قيمة ما روي عن هؤلاء الأعلام رضي الله عنهم ولا يقلل من شأنه.

ولابد أن نعرض هنا لمسألتين؛ الأولى: ما تميز به التفسير في عهد التابعين أو أوجه الخلاف في التفسير بين عهدهم وعهد الصحابة. وأما المسألة الثانية فهي أشهر المفسرين في هذا العصر.

١ـ ميزات التفسير في عهد التابعين :

لقد عرفنا أن التفسير في عهد الصحابة رضي الله عنهم، كان يعتمد على الكتاب والسنّة واجتهاد الصحابة في بعض الأحيان. وكان يساعدهم على ذلك معرفتهم اللغوية، وعلمهم بأسباب النزول، ومعرفتهم بعادات العرب، وأهم من ذلك ما فتح الله به عليهم. والتفسير في عهد التابعين أخذ بهذه الأسباب إلا أن دائرته كانت أوسع فيه من دائرة الصحابة. ولقد قل الاختلاف في التفسير في عهد الصحابة رضوان الله عليهم قلة توصله إلى حكم الندرة، ولكنه زاد في عهد التابعين إلى درجة أوسع كما سنفصله فيما بعد.

---

(١) البحر المحيط، ج١، ص٥.

(٢) مقدمة تحفة الفقهاء.

ولئن كان التفسير في عصر الصحابة لم يعتمد على أهل الكتاب كمصدر من مصادره فإن أخبارهم في عهد التابعين كانت مصدراً من مصادره. وهذا بحكم امتداد البيئة الإسلامية ومن دخل الإسلام من أهل الكتاب.

ولا ننسى أن أهم ما يميز التفسير في عهد التابعين ظهور الخلافات المذهبية، التي لم تكن قد ظهرت في عصر الصحابة رضوان الله عليهم. وهناك بادرة ينبغي أن ننبه إليها وهي أن البذرة الأولى للتفسير بالرأي ظهرت في عهد التابعين، كما نراه مثلاً في بعض تفسيرات مجاهد.

٢ـ أشهر المفسرين في عهد التابعين[١] :

بعد أن اتسعت الرقعة الإسلامية، كان من الطبيعي أن لا يبقى أصحاب الرسول ﷺ ملتزمين بيئة واحدة، إذ تفرقوا في البلاد التي بسط الإسلام عليها سلطانه، وأشرق فيها نوره، لينهل الناس من علمهم، ومن هنا فإن أمكنة عديدة كانت منارات لنشر العلم بعامة والتفسير بخاصة، وأشهر هذه الأمكنة التي كان يتلقى فيها تفسير كتاب الله، مكة والمدينة والكوفة وما ذلك إلا لأن هذه الأمكنة كان فيها أناس من أئمة التفسير فمن الصحابة رضوان الله عليهم ففي مكة عبدالله بن عباس، وفي المدينة أبيّ بن كعب وفي الكوفة عبدالله بن مسعود، ولما كان ابن عباس رضي الله عنهما، من انتهت إليه الشهرة في التفسير، رأينا أن أعلم الناس بالتفسير تلاميذه، ورأينا التفسير ينتقل للعالم الإسلامي أكثر ما ينتقل من هؤلاء التلاميذ. ولعل هناك سبباً آخر لهذا، وهو أن مكة فيها بيت الله العتيق مهوى الأفئدة. ومهما يكن من أمر فمن هذه المنارات الإسلامية اشتهر أعلام كانوا المرجع لكل من أراد أن ينهل من كتاب الله. ومن هؤلاء الأعلام في

---

(١) آثرت هذا التعبير على تعبير «مدارس التفسير» في عهد التابعين، لأن المدرسة في لغة العصر ما كانت لها مميزات وأسس.

مكة سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وطاووس وعطاء. ومنهم في المدينة زيد بن أسلم وأبو العالية ومحمد بن كعب القرظي. ومنهم في الكوفة علقمة بن قيس ومسروق والحسن البصري وقتادة وغيرهم.

قال ابن تيمية: «وأما التفسير فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاووس وابن الشعثاء وسعيد بن جبير وأمثالهم، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود، ومن ذلك ما تميزوا به عن غيرهم. وعلماء أهل المدينة في التفسير، مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير وأخذ عنه أيضاً ابنه عبدالرحمن وعبدالله بن وهب»[1].

ثم أخذ عن التابعين تابعوهم، وكانت دائرة التفسير تتسع في كل عصر أكثر من سابقه. وهذا أمر تحتمه ضروريات الحياة، إلى أن وصل التفسير إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة التدوين.

أسباب ضعف التفسير بعد التابعين:

وبعد عهد التابعين ظهرت مؤثرات كان لها أثر في ضعف روايات التفسير. وأهم هذه المؤثرات الوضع والإسرائيليات. أما الوضع فقد نشأ عن الخلاف المذهبي الذي لعبت فيه السياسة دوراً هاماً. فرأينا أن بعض الفرق تود أن تنصر رأيها بتأويل الآية تارة وبالوضع تارة أخرى، ورأينا كذلك أن هذا الوضع يزيد وينقص بحسب الأشخاص الذين يوضع عليهم كابن عباس وعلي رضي الله عنهم، فالمنسوب إليهما في التفسير أكثر من المنسوب إلى غيرهما.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير، ص٢٣-٢٤.

أما الإسرائيليات فلعل مما ساعد على انتشارها وتضخمها حذف الأسانيد[1] وأول من سنّ هذه السنّة السيئة، هو مقاتل بن سليمان صاحب التفسير الكبير فقد حذف الأسانيد، وملأ تفسيره بروايات عن أهل الكتاب. وجاء بعده من نقل عنه هذه الروايات غير مميز بين صحيحها وضعيفها وغثها، وسمينها.

أقسام التفسير:

لابد أن نعرض هنا: وقبل الانتقال للحديث عن عصر التدوين، لقسمي التفسير وهما:

١- التفسير بالمأثور.

٢- التفسير بالرأي.

١ـ التفسير بالمأثور:

تعريفه وسبب نشأته:

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، على قلب الرسول ﷺ ، لينذر به أول ما ينذر، قوماً كانوا في قمة المعرفة اللغوية، وكانت لغتهم نفسها قد بلغت من النمو والتكامل ما بلغت. ولكن هذا القرآن لم ينزل جملة واحدة، بل نزل منجماً مفرقاً بحسب الحوادث والمناسبات والوقائع، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان فيه ما يحتاج إلى بيان أو تفصيل. والصحابة الذين شهدوا نزول الوحي رضي الله عنهم، قد عرفوا هذه المناسبات التي نزلت في شأنها آيات من القرآن، وهي التي سماها العلماء فيما بعد أسباب النزول. وسمعوا من الرسول ﷺ تفسير ما كان يشكل عليهم فهمه. من معنى مبهم، فكانوا هم أعلم الناس بذلك.

---

(١) التفسير والمفسرون، ج١، ص٢٠٢.

ثم اتسعت دائرة التفسير، فكانت اللغة مصدراً من مصادره تارة، وأخبار أهل الكتاب تارة أخرى. ولكن التفسير بالمأثور يبقى محتفظاً بميزاته وحدوده، ليشمل فيما يشمل، ما كان بياناً لمناسبة نزلت فيها آية أو توضيحاً لمعنى مبهم يبينه الرسول الكريم ﷺ . وغير هذا لا يعد من التفسير بالمأثور، حتى ولو روي عن أعظم الصحابة وأعلمهم. وليس معنى هذا أننا نقلل من شأنهم رضي الله عنهم، فهم حملة علم النبي ﷺ ، وهم الذين لا يقادر قدرهم أمانة وذكاء وحرصاً على سلامة الدين كتاباً وسنة.

دائرته وعدم تأثره بالمخلفات الدينية السابقة :

والذي أريد أن أقوله: إن التفسير بالمأثور ما لا مجال فيه إلا للسماع الثابت أما في بيان مناسبة نزول، أو في توضيح مبهم يبنيه الرسول الكريم.

وأرى أن ندخل في هذه الدائرة، المعنى اللغوي للكلمات، الذي تكفلت به المعاجم، لأنه يعتمد على السماع، أما ما عدا ذلك من القضايا اللغوية كالإعراب وأخبار أهل الكتاب فنرى أن نبتعد به عن التفسير بالمأثور.

ولقد عرف علماء الحديث ذلك وأحسوا بقدسية التفسير الأثري، فقرروا أن تفسير الصحابي لا يعد من قبيل المرفوع، إلا إذا كان بياناً لمناسبة نزلت فيها الآية الكريمة. هذا هو تحديد التفسير الأثري.

٢ـ التفسير بالرأي :

وإذا كان التفسير بالمأثور غير متسع الدائرة، مع أن القرآن كتاب جعله الله ليسع الإنسانية كلها في جميع أوقاتها، إذا كان الأمر كذلك، فكيف نجد من يمنع التفسير إلا إذا كان مأثوراً، ويروون أحاديث في ذلك؟ وأحب هنا – وقد وعدت أن أوجز – أن أذكر رداً على هؤلاء، قولة الإمام علي كرم الله وجهه، «حينما سئل: هل ترك لكم نبيكم شيئاً؟ فقال: لا إلا هذا القرآن أو فهم أعطيه

الرجل»[1]. ولعل ما استدل به هؤلاء على ما ذهبوا إليه، ما رواه الترمذي وأبو داود عن جندب بن عبدالله ﷺ. قال: قال رسول الله ﷺ «من قال في كتاب الله عز وجل برأيه فأصاب فقد أخطأ» مع أن الترمذي قال عنه: غريب وقد تكلموا على أحد رواته، وهو سهيل بن أبي حزم. قال ابن حجر: سهيل بن أبي حزم، ويقال: إن اسمه مهران أو عبدالله القطعي. وبعد أن ذكر عمن روى ومن روى عنه قال: قال حرب عن أحمد: روى أحاديث منكرة. وقال البخاري: لا يتابع في حديثه، يتكلمون فيه. وقال أبو حاتم: ليس بالقوي يكتب حديث ولا يحتج به[2]. انتهى باختصار.

وإذا كان هذا الحديث قد تكلم فيه العلماء، وقالوا: لا يحتج به، فإن في النفس شيئاً من متن الحديث كذلك، وعلى التسليم به، يطيب لي أن أنقل هنا ما ذكره العلاّمة ابن الأثير الجزري في تعليقه على هذا الحديث[3]: النهي عن تفسير القرآن بالرأي، لا يخلو، إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع، وترك الاستنباط، أو المراد به أمراً آخر. وباطل أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد في القرآن إلا بما سمعه من الصحابة فإن الصحابة رضي الله عنهم، قد فسروا القرآن، واختلفوا في تفسيره على وجوه، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبي ﷺ. وإن النبي دعا لابن عباس فقال: (اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل) فإن كان التأويل مسموعاً كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك؟ وإنما النهي يحمل على أحد وجهين ثم ذكر الوجه الأول وهو أن يكون له في الشيء رأي وهوى، فيتأول القرآن حسب رأيه وهواه. وهذا النوع تارة يكون مع العلم، وتارة يكون مع الجهل، وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلاً من القرآن، ويستدل

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، ج١، ص٦٤، الطبعة المنيرية.

(٢) تهذيب التهذيب، ج٦، ص٢٦١.

(٣) جامع الأصول، ج٣، ص٢٦١.

عليه بما يعلم أنه ما أريد به. ثم ذكر مثلاً لهذا الأخير بمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي فيقول: قال الله تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [النازعات:١٧] ويشير إلى قلبه يعني أنه المراد بفرعون. وقد يستعمل هذا الوجه بعض الوعاظ، كما تذهب إليه الفرق الباطنية وكله ممنوع.

وذكر بعد ذلك الوجه الثاني، وهو أن يسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل، فمن اعتمد على اللغة وحدها، دون معرفة صحيح النقل، كثر غلطه ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأي، ويقول ابن الأثير: (والنقل والسماع لابد منه في ظاهر التفسير أولاً، لينفي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يسع المتفهم الاستنباط) [1]. ويمثل لذلك بقوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ﴾ [الإسراء:٥٩]. فمن نظر إلى ظاهر اللغة فقط، يظن أنه مبصرة غير عمياء، ويختم قوله بأن ما عدا هذين الوجهين لا يتطرق النهي إليه والله أعلم. انتهى باختصار وتصرف.

شروط التفسير بالرأي:

التفسير بالرأي غير ممنوع إذا استوفى شروطه وخلاصتها:

١- أن لا يصدر المفسر في تفسيره عن هوى في نفسه، فينزل التفسير على مذهبه وعقيدته.

٢- أن لا يتعارض هذا التفسير مع اللغة، فإن اللغة هي الأساس، ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:٢] .

٣- أن لا يتعارض التفسير مع سياق الآيات الكريمة.

---

(١) جامع الأصول، ج٢، ص٥، ط١/ ١٩٦٩ مطبعة الملاح – دمشق.

٤- أن لا يخالف ما صح عن الرسول ﷺ .

شروط المفسر:

ولابد للمفسر بعد هذا أن تتوافر فيه شروط تؤهله لهذه المهمة الخطيرة وهذه الشروط هي:

١- فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن، بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة.

٢- فهم ومعرفة الأسباب الرفيعة، وهذا يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته، مع التفطن لنكته ومحاسنه، والمراد على مراد المتكلم منه، فيحتاج إلى علم الإعراب، وعلم المعاني والبيان، وممارسته.

٣- علم أحوال البشر، فقد أنزل الله الكتاب وبين فيه كثيراً من أحوال الخلق، وطبائعه وسننه الإلهية في البشر، وقصّ علينا أخبار الأمم، فلابد من النظر في أحوال الأمم في أدوارهم وأطوارهم ومناحي اختلاف أحوالهم.

٤- العلم بوجه هداية البشر كلهم، فيجب على المفسر أن يعلم ما كان عليه البشر في عصر النبوة من العرب وغيرهم الذين كانوا في شقاء فبعث النبي لهدايتهم وإسعادهم، لذلك لابد للمفسر من معرفة عوائدهم التي قبحتها الآيات.

٥- العلم بسيرة النبي ﷺ وأصحابه وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشؤون دنيويها وأخرويها[1].

المرحلة الثانية: مرحلة التدوين:

لا نستطيع أن نتبين بالتحديد أول مدون للتفسير، وإن كان بعض الباحثين يذكر أن سعيداً بن جبير ومجاهداً في القرن الأول الهجري، قد دوّن كل منهما

---

(١) مقدمة تفسير المنار.

تفسيراً للقرآن. إلا أني أشك في تلك الروايات فالمعروف عن سعيد بن جبير مثلاً، أنه كان يخشى أن يدون شيئاً في التفسير، وقد ذكر ابن خلكان في ترجمته أنه سئل أن يدون شيئاً في التفسير، فقال إن قطع لسانه أهون عليه من ذلك[1]. ولكن القرن الثاني ولاشك كان ميداناً للتدوين والتأليف فقد شغل القرآن علماء هذا العصر على اختلاف مسالكهم ومشاربهم، وقد تفرعت بحوثهم وانتظمها سبيلان اثنان:

أولهما: التفسير بالمأثور. وثانيهما: الدراسات اللغوية للقرآن. ولا يعنيني الآن أن أتكلم عن الدراسات اللغوية، فليس مجال الحديث عنها هنا.

وأما التفسير بالمأثور، فقد بدأ أولاً، وكانت مهمته نقل الروايات بأسانيدها، دون تعليق عليها، ودون مزج لهذه الروايات بلون آخر من الدراسة. كتفسير يزيد بن هارون السلمي المتوفى سنة ١١٧هـ، وتفسير مقاتل بن سليمان، وتفسير عبدالرزاق الصنعاني ونظرة واحدة إلى هذه التفاسير تعطينا صورة واضحة عما اشتملت عليه. ثم تدرج التفسير الأثري خطوة أخرى، وإذ به لا يقتصر على نقل الأقوال، بل نراه يجمع إليها كذلك مسألة القراءات، وشيئاً من الإعراب. وهذه المسائل بالطبع لم تكن هي القصد الأول لهؤلاء المفسرين، بل كان قصدهم نقل الروايات فقط.

يقول الأستاذ أحمد رضا في مقدمة تفسير «مجمع البيان» في تاريخ نشأة التفسير:

وفي المائة الثالثة: اشتهر بالتفسير محمد بن جرير الطبري، صاحب التفسير الكبير، الذي جمع فأوعى وهو الذي ورده أكثر من تأخر عنه من المفسرين ومحمد بن خالد البرقي صاحب كتاب التفسير، إملاء الإمام أبي محمد الحسن

---

(١) وفيات الأعيان، ج١، ص٢٥٦.

العسكري (ع) حكاه ابن شهر أشوب في معالم العلماء. وعلي بن إبراهيم القمي وابن ماجة محمد بن يزيد القزويني المحدث المشهور والأشج أبو سعيد بن راهويه.

وفي المائة الرابعة: عرف النيسابوري وأبو الحسن الأشعري إمام أهل السنّة، وعلي بن عيسى الرماني النحوي المشهور وأبو هلال العسكري وعبدالله بن محمد الكوفي وابن حبان وابن فورك.

وفي المائة الخامسة: عرف شيخ الطائفة الإمامية وفقيهها الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي صاحب كتاب البيان الجامع لكل علوم القرآن، ثم السيد الشريف الرضي الموسوي صاحب كتاب حقائق التنزيل ودقائق التأويل وإمام الحرمين أبو المعالي الجويني وعبدالملك الثعالبي.

وفي المائة السادسة: اشتهر جار الله الزمخشري صاحب الكشاف الذي لم يؤلف في بابه مثله جودة وإتقاناً، واشتهر أبو علي الفضل بن الحسن الفاضل الطبرسي صاحب كتاب مجمع البيان وهو التفسير المشهور الذي لم ينسج على منواله أبدع منه. وأبو البقاء العكبري وأبو محمد البغوي وابن الدهان.

وفي المائة السابعة: اشتهر البيضاوي صاحب التفسير المشهور المسمى بأنوار التنزيل الذي تناوله العلماء بالشروح والتعاليق واتخذه طلاب التفسير مناراً لهم وعرف ابن رزين والشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي صاحب الفتوحات وابن عقيل النحوي ومحمد بن سليمان البلخي المعروف بابن النقيب.

وفي المائة الثامنة: عرف الشيخ بدر الدين الزركشي الفقيه الشافعي وابن كثير إسماعيل بن عمر القرشي وأبو حيان الأندلسي صاحب كتابي البحر والنهر في التفسير ومحمد بن عرفة المالكي وابن النقاش.

وفي المائة التاسعة: عرف البقاعي صاحب نظم الدرر في تناسب الآي والسور والمولى الجامي وبرهان الدين بن جماعة وعلاء الدين القراماني صاحب بحر العلوم في التفسير والجلال السيوطي صاحب كتاب الإتقان في علوم القرآن.

وفي المائة العاشرة: عرف الشيخ علي بن يونس النباطي صاحب مختصر مجمع البيان والعلامة ابن كمال باشا أحمد بن سليمان بن كمال الرومي وأبو السعود العمادي مفتي القسطنطينية، صاحب التفسير المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم الذي اشتهر صيته وانتشرت نسخه، والشيخ أبو يحيى زكريا بن محمد الأنصاري.

وفي المائة الحادية عشرة: عرف الشيخ علي القاري، والشيخ حسن البوريني، والشيخ بهاء الدين العاملي، الكوفي صاحب التفسير المسمى بعين الحياة وهو مؤلف الكشكول والشيخ خير الدين الرملي والشهاب الخفاجي.

وفي المائة الثانية عشرة: عرف الشيخ العارف عبدالغني النابلسي صاحب التحرير الحاوي في شرح تفسير البيضاوي والسيد هاشم البحراني صاحب البرهان في تفسير القرآن.

وفي المائة الثالثة عشرة: اشتهر الألوسي صاحب التفسير المشهور والمسمى روح المعاني والسيد محمود الحمزاوي مفتي دمشق الشام بكتابه در الأسرار وهو تفسير بالحرف المهمل، وما أحوج هذا التفسير إلى تفسير.

وفي المائة الرابعة عشرة: اشتهر العلاّمة المحقق الأستاذ محمد عبده مفتي الديار المصرية بما كان يلقيه من دروس التفسير المفيدة على طلاب العلوم في الجامع الأزهر بالقاهرة، سلك فيها مسلكاً رائعاً دلّ على مزيد تبحر وسلامة ذوق وجامعية كبرى، وقد اقتبس دروسه هذه العلاّمة محمد رشيد رضا فنشرها في مجلة المنار التي تصدر عن مصر وزاد عليها فوائد مهمة في التفسير» .

هذا أنموذج من كتب التفسير المؤلفة، ذكرناها مختصرة، ولكننا سنفصل القول في بعض هذه التفاسير إن شاء الله.

ابن جرير الطبري:

كان الاعتقاد السائد أن ابن جرير، هو الذي خطى في التفسير هذه الخطوة ونقله تلك النقلة. إلا أن العلامة ابن عاشور رحمه الله، يذكر أن هناك حلقة بين ابن جرير، ومن سبقه ممن عني بنقل الروايات فحسب، نقل عنها العلماء والمستشرقون. ويعني بذلك تفسير يحيى بن سلام، الذي ذكر فيه بعض أوجه القراءات، كما كان يرجح بعض الآراء على بعض، ويبدي رأيه في ذلك. ويقول ابن عاشور[1]: «إن تفسير ابن سلام يقع في ثلاث مجلدات، وهو موجود في تونس» . ومهما يكن من أمر فإن جامع البيان لابن جرير كان الإمام والمورد في تفسير القرآن للعلماء جميعاً. ولا أشك في أن تفسير ابن جرير، كان الممهد لمن جاء بعده من المفسرين على اختلاف اتجاهاتهم. فالمعروف أن ابن جرير لم يذكر في تفسيره الروايات فقط، بل كان يرجح ما يراه مستحقاً للترجيح، كما كان يذكر أوجه القراءات وبعض مسائل اللغة من إعراب وغيره، كما كان يتطرق إلى النواحي الفقهية وأمور العقيدة، والخلاف مشهور بينه وبين الحنابلة في بعض المسائل. إذا لا نعدو الحقيقة إن قلنا: إن تفسير ابن جرير كان النواة الأولى للتفسير بالرأي، وليس كما شاع من أنه تفسير بالمأثور فقط. ولعل الذين جعلوه من قسم التفسير بالمأثور، نظروا إلى ما فيه من روايات فحسب. يقول الشيخ ابن عاشور رحمه الله: «والعجب كل العجب، من ابن خلدون، حين راجت عليه هذه الشبهة، فعدّه من مدوني الآثار المنقولة، مثل الواقدي والثعالبي، وقد يرجع السبب في ذلك، إلى أن تفسير الطبري، كان منذ قرون مفقوداً أو في حكم المفقود، حتى إن صاحب كشف الظنون لم يقف عليه[2]» .

---

(١) التفسير ورجاله، ص١٠ فما بعدها.

(٢) التفسير ورجاله، ص٣٧.

لقد كان محمد بن جرير رحمه الله إمام المفسرين بحق، وكان تفسيره الأنموذج العلمي ذا الروعة والبيان. لذلك عرف الأئمة فضله، فقالوا ما قالوا فيه وعنه، ولا يحط من قيمته العلمية، ما فيه من بعض الإسرائيليات أو الروايات الضعيفة، ما دام يبين أسانيدها. ومن أسندك فقد أحالك. ومن الظلم لعلمائنا وتراثهم، أن نغمطهم حقهم، وأن نجعل هذا التراث محفوظاً في متاحف أثرية، كما يرى الأستاذ عبدالمنعم النمر، في مقال كتبه في مجلة العربي عن تفسير الطبري. فهو يرى أن يختصر أمثال هذا التفسير، وأن تبقى النسخ الأصلية في مكتبات لا يطلع عليها إلا الخاصة. إننا حينما نصدر أحكامنا على الناس، ينبغي أن نراعي الظرف والبيئة التي عاشوا فيها، فهل نريد من ابن جرير مثلاً، أن يرد في تفسيره على مطاعن المستشرقين، أو يبين لنا بوضوح أنظمة القرآن في الاجتماع والسياسة والمال، مقارناً ذلك بالنظم الأخرى؟. إن من الإنصاف الواجب علينا أن نقدر رجلاً كان يريد أن يجعل تفسيره ثلاثين ألف ورقة، لولا الرفق بطلابه ومستمعيه، فجعله في ثلاثة آلاف.

أهم مدارس التفسير في تلك المرحلة:

وبعد ابن جرير بدأ العلماء يتوسعون في دلالات الألفاظ القرآنية، وفي ما تلقيه هذه الألفاظ من ظلال. فكانت هناك اتجاهات ومدارس متعددة في التفسير، وأهمها المدرسة البيانية. وكان أستاذتها بادئ بدء من المعتزلة، ولكن أهل السنّة استلموا زمامها فيما بعد، وذلك بفضل ابن قتيبة صاحب «تأويل مشكل القرآن» وأبي بكر الباقلاني، وعبدالقاهر الجرجاني، إلا أن هذا لم يحل دون تربع الزمخشري المعتزلي على كرسي الأستاذية لتلك المدرسة. والكشاف خير شاهد على ذلك، فلقد كان الإمام في تجلية البيان القرآني شهد له حتى خصومه، فها هو ابن المنيّر الذي تعقب الزمخشري في اعتزالياته، لا يسعه إلا أن يعترف له بالفضل والسبق، والغوص على درر المعاني، والتحليق في أوج

البيان. وقد كان كذلك لبعض المعتزلة إسهام وجهد في تفسير القرآن الكريم، من هؤلاء القاضي عبدالجبار الهمذاني، والأخوين المرتضي والرضي، المرتضي في أماليه، والرضي في مجازات القرآن، والقرآن الكريم الذي يؤمن به المسلمون جميعاً من الطبيعي أن يسهموا في تفسيره على اختلاف مذاهبهم، فكما كان للمعتزلة جهد في التفسير كان لغيرهم جهد كذلك.

تفاسير الشيعة:

وللشيعة تفاسير كثيرة، ما بين إيجاز وإطناب، لكننا نخص بالذكر تفسيرين اثنين أحدهما للأقدمين، والثاني للمحدثين.

أما الأول: فهو مجمع البيان للطبرسي: وهو تفسير وسيط بين الإيجاز والإطناب، طبع في بضع مجلدات، وهو حسن الترتيب، يذكر الآية، ويذكر ما يتصل بها مرتباً فيذكر المعنى على حدة، والإعراب على حدة، والنظم، وتوجيه القراءات، لكل موضوع عنوانه الخاص، وهو ترتيب جيد، كنت أسمع من خالي - رحمه الله - قوله: «ليست لأهل السنّة تفسيراً على مثل هذا الترتيب». وهو تفسير معتدل، ينقل فيه صاحبه عن المفسرين من أهل السنّة، كما ينقل كثيراً من توجيه القراءات عن حجة أبي علي الفارسي، وبالجملة فهو تفسير حسن مفيد، وقبل سنين أعدت إحدى الطالبات[1] رسالة ماجستير عن هذا التفسير، كان لي شرف الإشراف عليها، فكانت موافقة طريفة نبهت عليها الطالبة، حيث كان اسم المفسر الفضل بن الحسن، وكان اسم المشرف كذلك الفضل بن الحسن.

أما التفسير الحديث، فهو تفسير الطباطبائي، وهو تفسير يقع في عشرين جزءاً، وقد عرض المفسر فيه لكثير من القضايا التشريعية والاجتماعية والفلسفية،

---

(١) الطالبة: حسنية عبدالله حويج.

والمحدثات من العلوم، مبيناً حكمة التشريع، وعظمة المدينة الإسلامية، وقوة الإسلام في مجابهة الأحداث في هذا العصر. وقد كتبت رسالة ماجستير في هذا التفسير، كنت أحد مناقشيها، وهناك تفسير الكاشف للشيخ جواد مغنية، أحد علماء لبنان.

تفاسير الإباضية:

وقد كان للإباضية إسهام في تفسير القرآن، فهناك تفسيران للشيخ محمد يوسف إطفيّش، هميان الزاد.

وقد توفي المؤلف عام ١٣٣٢هـ. وتفسيره الذي ذكرناه يعد المرجع المهم للتفسير عند الإباضية. وقد تأثر المؤلف بكثير من كتب التفسير التي قرأها.

وهو يذكر في أول كل سورة عدد آياتها والمكي والمدني منها، ويذكر فضائل السورة مستشهداً بالأحاديث الموضوعة غالباً، ثم يذكر فوائد السورة، ثم يشرح الآيات شرحاً وافياً، فيسهب في المسائل النحوية واللغوية والبلاغية، ويفيض في مسائل الفقه والخلاف بين الفقهاء، كما يعرض لمسائل علم الكلام ويفيض فيها، مع تأثر كبير بمذهب المعتزلة، كما لا يفوته أن يعرض للأبحاث الأصولية والقراءات، ويكثر من ذكر الإسرائيليات، ويطيل في ذكر تفاصيل الغزوات التي كانت على عهد الرسول ﷺ [1].

وقد شعر المؤلف بأن تفسيره بحاجة إلى اختصار لأكثر من سبب، فاختصره وسمى المختصر تيسير التفسير، فخلا هذا المختصر من كثير مما لا تمس إليه الحاجة، أو ما كان يجب أن يحذف، فكان تفسيراً معتدلاً من حيث المساحة، وهو بالطبع يشتمل على آراء الإباضية، العقدية والفقهية.

---

(١) انظر التفسير والمفسرون للذهبي، (٢/ ٣١٩).

تلكم عجالة موجزة لبعض تفسيرات المعتزلة، والشيعة والإباضية.

ولنرجع إلى الحديث عن المدرسة البيانية التي كان الزمخشري على رأسها، وكان الكشاف أساس بنيانها لنبين أن أصحاب هذه المدرسة قد تأثروا بالكشاف تأثراً كبيراً على اختلاف بينهم في كيفية هذا التأثر، وليس معنى هذا أن أصحاب هذه المدرسة وحدهم، هم الذين تأثروا بالكشاف، بل إن من المقطوع به أن كل الذين جاؤوا بعد الكشاف تأثروا به وأفادوا منه، ونقلوا عنه موافقين أو مخالفين، كالطبرسي - كما قلنا من قبل - وتفاسير أهل السنّة على تعددها، كالإمام الرازي مع كونه صاحب مدرسة - كما سنعرف - وأبو حيان كذلك، بل إن الإمام النيسابوري صاحب التفسير المشتهر غرائب القرآن، الذي طبع قديماً على هامش تفسير الطبري، ثم طبع طبعة مستقلة بعد ذلك، يبين لنا في مقدمته أن تفسيره يقوم في أساسه على اختصار لتفسيري الكشاف والفخر الرازي. وقد عرفت من قبل ما بين البحر والكشاف.

أما الذين تأثروا بالزمخشري، أو قل بعبارة الكشاف وبمدرسته البيانية على مخالفة له في الاعتزال، نكتفي منهم بذكر أعلام ثلاثة.

أولهم: العلاّمة الإمام صاحب التصانيف في المعارف المتعددة: القاضي البيضاوي وهو ناصر الدين أبو الخير عبدالله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي، وهو من بلاد فارس، توفي سنة (٦٩١هـ).

والقاضي البيضاوي اشتهر بتحرير العبارة ودقتها من غير خلل أو نقص، وكتبه التي وصلتنا خير دليل لما قلت، فمنهاج الوصول في علم الأصول كتاب صغير الحجم، كثير العلم، ولذلك لقي من العلماء شرحاً وتعليقاً ما لم يلقه كثير من الكتب، فلقد شرحه ابن السبكي، والإسنوي.. - وهما شافعيان - كما شرحه البدخشي وهو حنفي، كما كان الشيخ محمد بخيت المطيعي - رحمه الله

مفتي الديار المصرية - كتب تعليقاً نافعاً على نهاية السول وهو شرح الإسنوي، كذلك كتابه في أصول الدين (طوالع الأنوار) يقع في صفحات معدودة، ولكنه يقرب من كثير من المطولات.

أما ما نحن بصدده، فهو تفسير القرآن الكريم الذي سماه (أنوار التنزيل) أفاد فيه مما سبقه كالفخر الرازي، لكنه استوعب تفسير الكشاف بحق مع اختصار للعبارة وتغيّر في الأسلوب، ولقد كانت عبارة البيضاوي - كما قلت - محكمة دقيقة، وإنه ليصعب على القارئ كثيراً، أن يختصر الجملة التي تتكون من عشر كلمات إلى تسع كلمات، فضلاً عن أن يختصرها إلى أقل من هذا.

الثاني: الإمام النسفي: وهو أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي، المتوفى عام ٧٠١هـ فهو معاصر للإمام البيضاوي، وتفسيره وسيط الحجم، معروف بين أهل العلم، أخذ فيه عبارة الزمخشري، فحذف بعضها.

الثالث: شيخ الإسلام مفتي الديار الرومية، أبو السعود العمادي: وكتابه إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، والعنوان ينم عن المضمون.

لقد كان الشيخ متأخراً عن صاحبيه ما يقرب من ثلاثة قرون، حيث توفي في منتصف القرن العاشر - رحمهم الله جميعاً - ولقد هضم الشيخ هضماً جيداً كل الأقوال والعلوم التي تتصل بتفسير القرآن الكريم بياناً وإعراباً معنى، وما أكثر ذلك الذي كتب قبل الشيخ، ففضلاً عن الكشاف. كان هناك الرازي والبيضاوي والنسفي، وما كتبه السعد التفتازاني، والسيد الجرجاني، فضلاً على كتب عبدالقاهر الذي أفاد منه الزمخشري. هضم الشيخ كل هذا واستوعبه، ومع ذلك كان ذا ملكة تعينه على أن يفرغ كل ما أفاده بأسلوب يدل على ذلاقة وتمكّن، وتصرف في القول.

لقد كانت إفادة الشيخ من الكشاف، مختلفة عن إفادة صاحبيه البيضاوي والنسفي، فلئن اختصر أحدهما - وهو النسفي - ، وأحكم الآخر العبارة - وهو البيضاوي - فلقد تفنن شيخ الإسلام مفتي الديار الرومية في عبارة الكشاف، تفنناً ينمّ عن ذوق رفيع، فاتسع بدلاً من أن يختصر، وفصّل بدلاً من أن يجمل، كأنما تجيء العبارة شرحاً، متضمناً لكثير من الأسرار البيانية، والأغراض البلاغية.

والحق أن تفسير الشيخ من أجلّ التفاسير، وأكثرها اتساقاً مع البيان القرآني، لكن – ومع الأسف والأسى – فإن تفسير الشيخ في أمسّ الحاجة في أن يجد له من يفهمه ويشرحه ويدرسه للطلاب، أنا لست مبالغاً ولا مغالياً حينما أقول: إن من يفهم هذا التفسير يحصل على درجة عالية في التذوق القرآني، وحبذا لو أنه يجد من يعتمده لطلاب العلم بعامة، وطلاب التفسير من الدراسات العليا بخاصة، إن أسلوب الشيخ، هو أسلوب العلماء الأفذاذ الجهابذة، فليس عيبه هو أو عيب التفسير أن لا يفهمه كثير من المتخصصين، وإنما العيب في الضحالة العلمية والإعراض عن كل نافع مفيد، ومحاولة تفريغ العلوم من محتواها الرفيع.

وما دمنا قد تحدثنا على المدرسة البيانية فمن الإنصاف أن نتحدث بإيجاز عن بعض مدارس التفسير :

المدرسة العلمية العقدية:

وقبل أن أتحدث عن هذه المدرسة لابد من الإشارة إلى أن التفاسير متداخلة من حيث موضوعاتها، فذوو الاتجاه البياني لا تخلو تفسيراتهم من قضايا عقدية، وكذلك ذوو الاتجاه العقدي أو الفقهي. لكن الحاصل أن بعض التفاسير يغلب عليها طابع معين فالمدرسة العقدية العلمية مثلاً يمثلها الرازي

الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦هـ يغلب عليها الطابع الفكري والعلمي. فهو ينقل آراء الفرق على اختلافها مناقشاً رادّاً، كما يذكر مسائل علم الهيئة والفلاسفة الطبيعيين، ومع ذلك تجده لا يهمل المسائل الفقهية والقضايا اللغوية، إن تفسير الفخر الرازي بحر من بحار العلوم فيه من المعارف المتعددة كما في البحر من المخلوقات الكثيرة المتعددة. أطال النفس فيه وبسط القول. إن تفسير سورة الفاتحة في هذا التفسير يقع في ثلاثمئة صفحة من القطع الكبير ومن أجل ذلك لا يرجع له إلا بعض المتخصصين الذين يضطرون لبحث بعض القضايا. وقد اشتهر أن تفسير الرازي فيه كل شيء إلا التفسير وهي مقولة بحاجة إلى أن تصحح لتقال: إن تفسير الرازي فيه كل شيء مع التفسير.

المدرسة الفقهية:

ونعني بها تلك المدرسة التي تتحدث عن أحكام القرآن في المعاملات والعبادات، وما يتصل بالزواج والإرث وغيره، والجنايات والحدود، والقضاء، والأيمان والنذور، وجذور هذه المدرسة تبدأ منذ عهد النبوة وعصر الصحابة رضوان الله عليهم، فلقد روي عن الصحابة رضوان الله عليهم كثير من المسائل والفتاوى، ويذكر ابن حزم أنه قد روي عنهم ما يزيد عن ستين ألف مسألة، وكذلك التابعون ومن بعدهم.

ولقد كانت كتب أحكام القرآن التي تعددت بتعدد المذاهب، المثال الحي لهذا الاتجاه، فهناك أحكام القرآن المنسوبة للشافعي ﷺ ومثله لإلكيا الهراسي الشافعي، وهناك أحكام القرآن للجصاص الحنفي، ومن الكتب التي اشتهرت كثيراً بين أهل العلم: أحكام القرآن لابن العربي، وقد درست هذه الكتب أو أكثرها وللدكتور مصطفى المشني دراسة لأحكام القرآن لابن العربي، وهو كتاب مطبوع، تحدث فيه عن الكتاب والكاتب، وهي دراسة طيبة.

ولكن الكتاب الذي ذاع صيته وبسط القول فيه في الأحكام، كان تفسير القرطبي - رحمه الله - الجامع لأحكام القرآن، وله من اسمه نصيب، ولقد كان القرطبي - الذي يذكرنا بقرطبة والأندلس - سهل العبارة، فعندما يورد تفسير الآية، يقسم الحديث عنها إلى مسائل، فيقول: وفيها عشرة مسائل أو عشرون مسألة، ثم يتكلم عن كل مسألة على حدة، وهي طريقة جيدة تيسر على الطالب جمع شتات الأمور، وهي الطريقة التي اتبعها الرازي قبل القرطبي، ويشكر للقرطبي صنيعه، ويعترف له أهل العلم بفضله واعتداله في مواقفه، وخلوه عن التعصب المذهبي، فعلى الرغم من كونه مالكياً، لكننا نجده يبحث عن الحق أنى كان، وهذا هو صنيع جلّ علمائنا جزاهم الله خيراً.

وأعيد القول هنا، بأننا إن تحدثنا عن المدرسة الفقهية، فليس معنى هذا أن التفاسير الأخرى خلت من القضايا الفقهية، لكن هذه المدرسة غلب عليها هذا الطابع، وكذلك المدارس الأخرى.

المدرسة النحوية:

لا يكاد يخلو تفسير من ذكر القضايا الإعرابية ابتداءً من معاني القرآن للفراء، ومعاني القرآن للزجاج، ومعاني القرآن للأخفش، وابن جرير، والزمخشري، الرازي، ولكن هناك كتباً غلب عليها طابع النحو، ومن هذه الكتب، كتب إعراب القرآن: منها إعراب القرآن للنحاس والبيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري. وإعراب القرآن للعكبري، وقد اشتهر، وأجل هذه الكتب وأجمعها: الدر المصون للسمين الحلبي، ولكن الكتاب الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأمور النحو والإعراب، تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي.

وقد غالى بعض الناس فظلم الكاتب والكتاب، حيث ادعى أن الكتاب مليء بفرعيات النحو، وهذا الذي غلب عليه، وليس الأمر كذلك، فالحق أحق

أن يقال: إن تفسير البحر المحيط من أجلّ التفاسير نفعاً وأجمعها للفوائد، يجد فيه القارئ بغيته، تجنب صاحبه الفضول من القول، وهو وإن كان يعنى بقضايا النحو، لكنه لم تشغله جزئياته وفرعياته عن قضايا التفسير.

ومن التفاسير التي كانت لها عناية بالنحو حاشية الشيخ سليمان الجمل الشافعي من علماء القرن الثالث عشر، على تفسير الجلالين، لجلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي، وهو تفسير مشتهر بين الناس موجز وحاشية الشيخ الجمل مطبوعة بأربعة أجزاء كبيرة، وعنايته كثيرة بقضايا النحو. وهناك حاشية على هذا التفسير أعني الجلالين، للشيخ الصالح الصوفي الصاوي المالكي، وهي في أربعة أجزاء أيضاً لكنها أصغر كثيراً من حاشية الجمل.

المدرسة الوعظية:

ونعني بها تلك المدرسة التي تجنب أصحابها ذكر المصطلحات النحوية والبلاغية والعقدية، ولعل من أشهر كتب هذه المدرسة، تفسير الخازن، والخطيب الشربيني، وكلا الشيخين شافعي أما الأول فيقع في أربعة مجلدات، سهل العبارة يذكر كثيراً من الأحاديث معزوّة إلى أصحابها غالباً، وبخاصة ما كان منها في الصحيحين أو أحدهما، وبعد ذكر الحديث يشرح من ألفاظه ما يحتاج إلى شرح، وقد يعقد فصولاً لبعض المسائل كالأحكام الشرعية وغيرها، مما يحتاج إلى بحث. ولكن مما يؤخذ على هذا التفسير كثرة الإسرائيليات، ولكنه والحق يقال، يرد هذه الإسرائيليات إذا كانت تتعارض مع العقيدة، وقد اختصره العلاّمة الفاضل الشيخ عبدالغني الدقر، وطبع هذا المختصر في مجلدات ثلاثة، ولقد اطلعت على هذا المختصر الذي أرسله لي الأخ أبو حسان المجدوب، منّ الله عليه بالعافية، وهو اختصار جيد مشكور.

وأما الثاني أعني تفسير الخطيب الشربيني توفي عام ٩٧٧هـ، السراج المنير في الإعانة على معرفة كلام ربنا الحكيم الخبير، فيقع في أربعة مجلدات، يذكر فيه

الشيخ كثيراً من المواعظ والرقائق إلى جانب الأحكام الفقهية، ذلكم لأن الشيخ واسع الباع في قضايا الفقه، فهو صاحب مغني المحتاج في شرح الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، وهو شرح متن الغاية والتقريب في الفقه الشافعي.

وليس غرضنا الاستقصاء في الحديث عن المفسرين، فكتب التفسير كثيرة وهي بين مطول ووسيط ووجيز، وقد ذكرتني هذه العبارة بإمام من أئمة التفسير، ليس من الإنصاف أن نغفل الحديث عنه ذلكم هو الإمام الواحدي أبو الحسن علي بن أحمد (ت ٤٦٨هـ) – رحمه الله – صاحب أسباب النزول، وهو من المفسرين الذين ذاع صيتهم واشتهرت أقوالهم، وقلّ أن تجد كتاباً من كتب التفسير بعد الواحدي، إلا وينقل عنه.

والواحدي، له ثلاثة تفاسير: البسيط وهو تفسير واسع ولم يطبع، والوجيز الذي اختصر وأقلّ فيه كما ذكر، والوسيط الذي جعله بين البسيط والوجيز، وقد طبع حديثاً هذا الأخير في دار الكتب العلمية في بيروت.

المدرسة الصوفية:

وإلى جانب تلك المدارس ظهرت المدرسة الصوفية، فأخذوا يدلون بدلوهم في التفسير، كما رأينا النحاة يشاركون مدارس التفسير الأخرى باتجاههم وتخصصهم، كما فعل أبو حيان في تفسير «البحر المحيط» هذا عدا تفسيرات الفرق المختلفة.

ثم بدأت محاولة جمع تلك المدارس كلها في جامعة واحدة. والذي أعلمه أن أول من حاول هذه المحاولة هو الإمام السيوطي. كما حدثنا هو نفسه عن ذلك. وجعل كتابه «الإتقان» مقدمة لهذا التفسير. لكن هذه الجامعة لم يهيأ لها أن تفتح أبوابها لجماهير الدراسين. حتى جاء القرن الثاني عشر الهجري إذ قيض الله لهذه الأمة عالماً فذاً ذكياً محققاً، ذلك هو «شهاب الدين الآلوسي البغدادي»

فوضع تفسيره «روح المعاني» فجاء جامعة قرآنية. لم يهمل فيها مسائل المتكلم، ولا مشكلات النحوي ولا روايات الأثري، ولا آراء الفقهي، ولا نكات البياني، ولا نفحات الصوفي أو شطحاته، فكان روح المعاني روح أقوال كل هؤلاء. يزين ذلك كله تحقيق الرجل لكل تلك المسائل، وإفاضته في ذلك كله.

وبهذا التفسير ختمت المرحلة الثانية لتبدأ مرحة جديدة في التفسير في العصر الحديث. فرحم الله أبا الفضل شهاب الدين الآلوسي وجزاه الله عن تحقيقه خير الجزاء. ومن الإنصاف أن نسجل هنا أن جامع البيان لابن جرير وكشاف الزمخشري ومفاتح الغيب للرازي، هي الأفلاك التي تدور حولها جميع كتب التفسير في هذه المرحلة.

وكتب التفسير كثيرة لا تحصى، فلا يمكن حصرها أو القليل منها في هذا الفصل، ومن أراد البسط في القول فهناك طبقات المفسرين للسيوطي، وطبقات المفسرين للداودي، والتفسير والمفسرون للشيخ الذهبي، والتفسير ورجاله لابن عاشور، واتجاهات التفسير ومناهج المفسرين في العصر الحديث للمؤلف الدكتور فضل عباس.

على أن هناك جهوداً في التفسير منها تفسير سور من القرآن الكريم، كتفسير سورتي النساء والكهف للشيخ محمد المدني، وتفسير سورة النور لشيخ الإسلام ابن تيمية، وآخر للشيخ أبي الأعلى المودودي، وتفسير بعض السور للدكتور محمد البهي، وهناك مقالات تفسيرية أشار إلى كثير منها «اتجاهات التجديد في التفسير في مصر» لمحمد إبراهيم الشريف.

وهناك تفاسير ليست مكتوبة، بل هي تفاسير مسموعة منها على سبيل المثال: تفسير المؤلف الذي سجله للإذاعة سنة ١٩٧١، وقد سجلته فيما يقرب من أربعمائة حلقة تشتمل على التلاوة والتفسير، كنت أتلو بعض الآيات

وأفسرها، وكانت مدة الحلقة خمس عشرة دقيقة، وهو تفسير كامل - ولله الحمد - من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، وقد كان يسمعه كثير، ولا يزال يذاع حتى اليوم في الإذاعات الموجهة، إلى القارات الأخرى.

وهناك تفسير في مصر للدكتور محمد سعيد فرهود يتلو فيه أحد القراء وأظنه الشيخ عبدالباسط الآيات ويفسرها الشيخ، ويذاع الآن من إذاعة القرآن الكريم من القاهرة في الساعة السادسة والنصف صباحاً، وعلى الرغم من كثرة هذه التفاسير فالقرآن الكريم لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الردّ، وفي كل مطلع شمس تبرز معان جديدة تتلاءم مع أوضاع الناس على اختلاف أعصارهم وأمصارهم.

نعم السمير كتاب الله إن له	حلاوة هي أحلى من جنى الضرب
به فنون المعاني قد جمعن	فما يُفتن من عجب إلا إلى عجب
أمر ونهي وأمثال وموعظة	وحكمة أودعت في أفصح الكتب
لطائف يجتليها كل ذي بصر	وروضة يجتنيها كل ذي أدب

التفسير في العصر الحديث:

كان الشيخ محمد عبده إمام المفسرين في العصر الحديث، حيث كتب جزء عم، ووصلنا من دروسه ما نقله عنه صاحب المنار من الدروس التي كان يلقيها في الأزهر، فلقد فسر الأجزاء الخمسة الأولى، وقام صاحب المنار - رحمه الله - الشيخ محمد رشيد بنقل تفسيرات الشيخ في تفسيرات المنار، فكان يقول عند نقل كلامه: ولقد ذكر أستاذنا الإمام ما مثاله، ثم ينقل أقوال الشيخ وآراءه.

وكان الشيخ - رحمه الله - غير متسرع في تفسيراته، بل غير مرتجل آراءه، كان يقرأ ما قاله المفسرون ما أمكنه ذلك، وقد يصل ما يقرؤه إلى خمسة وعشرين تفسيراً - كما يذكر - وكان للشيخ أسلوبه الجديد وآراؤه الجيدة، والجريئة

أحياناً، ولكن لا يخلو جواد من عثرات، فلقد نوقشت بعض آرائه وكانت بين أخذٍ ورد وقبول ورفض، لكن من الإنصاف أن نعترف للشيخ بمنزلته وجهده، وحرصه على تجلية المعاني القرآنية، هدايته وإعجازه، فرحم الله الشيخ محمد عبده وجزاه خيراً بما قدّم.

الشيخ محمد رشيد رضا :

ثم جاء صاحب المنار السيد محمد رشيد رضا، وبدأ تفسيره الذي سمّاه، تفسير القرآن الحكيم الشهير بالمنار، فكان بحق تفسير العصر في ذلك الحين، كانت فيه التحقيقات العلمية على تنوعها: لغوية، وعقدية، علمية، وحديثية، فلقد كان الشيخ ذا سعة في الاطلاع، وقد فسر – رحمه الله – اثني عشر جزءاً من القرآن الكريم، وكان الشيخ في تفسيره كثير الاستطرادات طويل النفس فحاول أن يختصر هذا التفسير، ولكن لم يتسنّ له كتابة أكثر من جزء أو جزأين.

ومن رجال هذه المدرسة بعد الشيخ محمد رشيد – رحمه الله – الشيخ عبدالقادر المغربي، الذي فسر جزء تبارك سنة (١٩٢٠م).

والشيخ محمد مصطفى المراغي، شيخ الأزهر، وأخيه أحمد مصطفى المراغي صاحب تفسير المراغي قد طبع في ثلاثين جزءاً وأجزاؤه صغيرة الحجم، وكان متأثراً بتفسير المنار تأثيراً تاماً، وله في هذا التفسير وعليه.

ومن رجال هذه المدرسة الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق، فلقد فسّر الأجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم، وله آراء في التفسير، وكان بعضها موضع نقاش عند العلماء، والرجل بحق فذ في أسلوبه، سيّال قلمه، جريئة آراؤه، جيد سبكه.

ومنهم الشيخ عبدالجليل عيسى صاحب «أيسر التفاسير» . وممن كان لهم أثر في التفسير في العصر الحديث، الشيخ محمد الخضر حسين – رحمه الله – شيخ الأزهر الأسبق حيث كان يكتب مقالته التفسيرية في مجلة لواء الإسلام.

ومن بعده الشيخ محمد أبو زهرة - رحمه الله - ، وكان للشيخ عبدالوهاب خلاف، والشيخ إبراهيم الجبالي وغيرهم من علماء الأزهر جهود طيبة في تفسير ما شاء الله لهم أن يفسروه من سور القرآن الكريم

ومن التفاسير التي اشتهرت في هذا العصر تفسر «الجواهر» للشيخ طنطاوي جوهري - رحمه الله - وهو تفسير يمتلئ حيوية وحرقة والماً وأملاً، فهو يهيب بالمسلمين أن ينهضوا من كبوتهم، ويستيقظوا من رقدتهم، ولكنه مع كل أسف، خلط فيه كثيراً، وملأه بالصور والحكايات في تحضير الأرواح وغيرها مما كان حرياً أن يتجنب في تفسير القرآن الكريم.

ومن التفاسير التي سرت مسرى الشمس، وانتشرت في العالم الإسلامي «في ظلال القرآن» للشهيد الأستاذ سيد قطب - رحمه الله تعالى - فهو صيحة يقظة، ووجدان حي، وتربية شعورية أفرغ فيه سيد - رحمه الله - أشجانه وآماله، مبيناً عظمة البناء القرآني في تربيته وتوجيهاته، وسمو مقاصده، وعظمة المدينة التي يشيّد أركانها قمماً سامقة عالية، مع ضآلة ما ينتحله الكثيرون في هذا القرن العشرين. لقد كان الظلال بحق مدرسة شامخة البيان وطيدة الأركان.

وإذا كان لأهل المشرق هذه الجهود المشكورة، فإن من الإنصاف أن نذكر ما كان لأهل المغرب من جهود مشكورة، ومن هذه الجهود تفسير الشيخ ابن باديس - رحمه الله - وهو تفسير لبعض سور القرآن وآياته طبع في مجلد.

ومنها التحرير والتنوير للشيخ ابن عاشور - رحمه الله - وهو مطبوع في خمسة عشر مجلداً، وهو تفسير متسع الأطراف، بعيد الجنبات، قضى فيه مؤلفه ما يزيد على العشرين سنة، فيه كثير من التحقيقات اللغوية والعلمية، ولم تفته القضايا الحديثة، والفقهية، وقد كتب الدكتور جمال أبو حسان رسالة الماجستير، التي كان لي شرف الإشراف عليها عن هذا التفسير في مجلدين كبيرين.

وأخيراً لا آخراً، فإن هناك التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي، وهو غير التفسير الوسيط الذي تصدره بعض الجهات العلمية في مصر، وهذا التفسير ميسر العبارة، فيه اختيارات من أقوال المفسرين، ملائم لذوي الثقافات المختلفة، ليس فيه تعقيد، خالٍ من المصطلحات الصعبة، التي لا يفهمها إلا المتخصصون.

وستظل الحياة تنعم - كما تنعم بالشمس - ببيان الكتاب الكريم، الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد. جزى الله عن كتابه ذوي الغيرة خير الجزاء، ووفقنا ومنّ علينا بجهد، جهد المقلّ في هذه الدوحة الطيبة الأثر، الزكية الثمر، العذبة النهر، إنه خير مسؤول، وأكرم معطي، ونعم المولى ونعم النصير، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

الفصل الثامن عشر

القصة القرآنية أهدافها وخصائصها

في القرآن الكريم أكثر من شكل تعبيري من خطاب وحوار قصة، وكلها في القرآن معجز ببيانه وبلاغته، وكلها يلتقي على الأهداف المتوخاة ذاتها من التأثير على عقل المتلقي وقلبه ووجدانه وهدايته إلى ما فيه خيره وسعادته في الدارين.

والقصة القرآنية قصة هادفة، فهي ليست حلية للنص القرآني أو ترفاً فنياً أو تأريخاً لمجرد التأريخ أو سرداً لمجرد التسلية والمتعة الفنية، وهي وإن كانت ذات خصائص فنية راقية وتأثير فذّ في المتلقي – فإنها صدق لا خيال فيه وحق لا زيف فيه، وبما أن مصدر القصة القرآنية هو مصدر القرآن نفسه، وهو الوحي الإلهي – فالأهداف المتوخاة منها هي الأهداف ذاتها المتوخاة من أشكال التعبير الأخرى في القرآن الكريم، غير أن للقصة تأثيراً نفسياً ووجدانياً ذا طابع خاص لما فيها من عرض حي للفكرة والغرض مجسّم في أشخاص يتحركون ويتكلمون ويتحاورون، وفي أحداث تُبَثّ فيها الحياة، فتعرض أمام المتلقي كما لو كانت ماثلة أمامه وإن كانت لأقوام مضَوْا.

لم يُغفل القرآن الكريم أياً من أشكال التعبير النثري التي تحقق أهدافه وغاياته السامية كالقصة والخطاب والحوار، كما لم يغفل أياً من أنماط الكلام خبراً وإنشاءً وأياً من أساليب المخاطبة سواءً بالأمر والنهي والزجر والوعظ والترغيب

والترهيب المباشر أم ببسط الحقائق بصورة مباشرة، أم بعرض ذلك كله في شكل صورة أو مثل أو قصة. أما لماذا كان هذا هو الشأن؟ فلأن البشر يختلفون في طبائعهم واستعداداتهم، فمنهم من يتأثر بالقصة وما فيها من تأثير وجداني حي، ومنهم من تقنعه البراهين والحجج العقلية، ومنهم من يتأثر بالترغيب والترهيب، لذا يأتي الحث على فضيلة معينة أو النهي عن رذيلة معينة في أكثر من قالب تعبيري، وقد ترد هذه القوالب التعبيرية مستقلاً بعضها عن الآخر، وقد تجتمع، وغالباً ما تجتمع في القصة القرآنية، فتأتي القصة جامعة للأحداث والحوار والخطاب بما فيه من أمر ونهي، وربما ختمت القصة أو بُدئت بذكر الموعظة المستخلصة منها بشكل مباشر، فإذا ما اجتمع في القصة أكثر من قالب تعبيري كانت أوسع تأثيراً لقطاع كبير من المتلقين على اختلاف ميولهم وطبائعهم.

أهداف القصة القرآنية:

إن أهداف القصة القرآنية لا تنفصل عن أهداف القرآن الكريم عامة وعن أهداف الدعوة الإسلامية، وما هو جدير بالإشارة إليه أن القصة القرآنية الواحدة قد ترد في مواضع متعددة من القرآن لهدف جديد أو عبرة جديدة، أو لتثبيت الفكرة الواحدة بعرضها بعدة أساليب أو من عدة زوايا، وذلك لأن تعدد ذكرها يفيد في تثبيت الأفكار وتحقيق الأهداف والغايات. ومن أهداف القصة في القرآن:

١- الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالبعث وتثبيت أسس العقيدة الإسلامية في النفوس، وذلك من خلال ذكر قصص الأنبياء وبيان وحدة دعوتهم إلى هذا. وبيان أن ملة الكفر واحدة، وشبهاتهم واحدة على مر العصور والأزمان ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل:٣٦].

٢- تثبيت الرسول ﷺ والمؤمنين من خلال عرض صور لما عاناه الأنبياء السابقون وأتباعهم من أذى وتعذيب أقوامهم وكيف صبروا على ما أوذوا، وكيف كان الغلبة للإيمان وما حلّ بأقوامهم من دمار وعذاب في الدنيا، ولعذاب الآخر أشد. فسنّة الله دائماً نصرة أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، وإهلاك المكذبين.

٣- تعليم المسلمين فضائل الأخلاق عن طريق القدوة العملية الماثلة في قصص القرآن، والزجر عن الأخلاق الذميمة والفواحش، وحماية الإنسان من الوقوع في الآثام، والحضّ على التوبة للمسيء، وهذا كله يكون بتقديم أمثلة لشخصيات تمثل جانب القدوة الإيجابية كأيوب عليه السلام في صبره، ويوسف عليه السلام في صبره وعفّته وتسامحه، وأمثلة أخرى لشخصيات تمثل الجانب السلبي كقارون في اغتراره بالمال والجاه، وفرعون في تعاليه وغروره وإصراره على الكفر، وقوم لوط في إصرارهم على الفواحش، والقرآن الكريم يحض من خلال عرض قصصهم على البُعد عن مسلكهم الوخيم العاقبة دنيا وآخرة.

٤- الإقناع العقلي والتأثير الوجداني لتمكين حقائق الإيمان والتوحيد والبعث في عقل وقلب المتلقي، وذلك من خلال أحداث بعض القصص وما فيها من حوار هادف مقنع، كما أن تكرار هذا الإقناع وذلك التأثير بهذه الحقائق في قصص متعددة أو في قصة واحدة تُعرض بأكثر من قالب أو من أكثر من زاوية – هذا يسهم في تمكين هذه الحقائق في العقل والوجدان، كما يسهم في استخلاص دروس وعبر جديدة منها في كل عرض جديد.

٥- الترغيب بالتأييد في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة للمؤمن الطائع، والترهيب من غضب الله وعذابه في الدنيا والآخرة للجاحد العاصي، وذلك من خلا عرض أمثلة لتأييد الله عباده المؤمنين وعقوبته للجاحدين في الدنيا، كقصة

إنجاء الله تعالى موسى عليه السلام والذين آمنوا معه من بطش فرعون وجنوده، وإغراق فرعون وجنوده في اليمّ، وإنجاء الله لوطاً عليه السلام وأهله إلا امرأته وإهلاك قومه .

الخصائص الذاتية للقصة القرآنية :

١- مصدر القصة القرآنية هو مصدر القرآن الكريم نفسه، فهي من وحي الله تبارك وتعالى، لذا نجدها قصة هادفة، فهي ذات هدف ديني أخلاقي لا ينفصل عن أهداف العقيدة والشريعة، غير أنها تجمع إلى سمو الهدف رقيّ الشكل الفني.

٢- المصدر الذي تستقى منه أحداث وشخصيات القصة القرآنية هو الكون والتاريخ، غير أن القصة القرآنية حق لا زيف فيه، ولا مدخل في أحداثها للخيال الفني ولا للخرافات والأساطير التي ادّعى بعض المستشرقين والمستغربين دخولها فيها، ولا للرمزية، التي حاول بعضهم - ظلماً وعدواناً - حمل قصص القرآن عليها.

فالحقائق التي ترد في القصة القرآنية عن الكون وعن طبائع النفس البشرية عموماً، وعن قصص أقوام وأشخاص بأعيانهم هي كلها حقائق ثابتة علمياً وتاريخياً، وإن لم تقصد القصص القرآنية إلى التاريخ المجرّد بل اتخذت من حقائق التاريخ مجالاً للموعظة والاعتبار والتأسّي ودروساً واقعية يتأملها المتلقي ويتعلم منها كما تبيّن معنا في عرض أهداف القصة القرآنية.

٣- موضوع القصة القرآنية هو الإنسان المستخلف في الأرض بما يدور حوله في الكون وما يحدث له وما ينبغي أن يكون عليه حاله وما ينبغي أن يعرفه من أمور العالم المنظور والغيب غير المنظور وحقائق الدين والإيمان والتوحيد والبعث، وما ينبغي أن يلتزمه من معتقدات وفضائل، وما ينبغي أن يجتنبه من معتقدات ورذائل، فالإنسان هو قطب الرحى في القصة القرآنية مثلما هو قطب الرحى في الكون الذي استُخلف فيه.

٤- المتلقي الذي تُوجَّه له القصة القرآنية هو نفسه محورها وهو الإنسان الذي تساق له القصة القرآنية نوراً لعقله وقلبه وتذهيباً لمسلكه كما تبين معنا في عرض أهداف القصة القرآنية. ومن ثم فقد سمت القصة القرآنية بالإنسان حتى يمتاز عن الحيوان الذي يشترك معه في بعض الصفات، هذا السمو الذي لا يركز على جانب واحد في هذا الإنسان، فهو سمو روحي ونفسي يشعر به الفرد، ويجد فيه حلاوته ولذته، وهو بعد ذلك سمو اجتماعي تجد الجماعة فيه بغيتها وضالتها وفضيلتها.

٥- القصة القرآنية ليست عرضاً مجرداً لحقائق التاريخ، بل هي انتقاء لجوانب من التاريخ إيجابية أو سلبية لتحقيق أهداف القصة المرجوة، ولذا نجدها تركز على الرقي المادي، وأسباب القوة، لأن هذه المادة عنصر أساسي رئيس في مقومات هذا الإنسان، ونجدها تركز على ما هو أهم، وهو أن التدين الحق لا ينفصل عن الحياة العملية ولا ينفصم عن واقع هذا الإنسان وإنما هو مرتبط به ارتباطاً وثيقاً بل هو جزء منه، ولهذا نجد القصة تفصل في أسباب السعادة الروحية وأسباب الرقي المادي حتى تتم السعادة للمؤمنين بهذا القصص، العاملين بتوجيهاته وإرشاداته.

٦- القصة القرآنية قصة هادفة، وأهدافها لا تنفصل عن أهداف العقيدة والتشريع، وهي تمزج بين الإقناع العقلي والتأثير الوجداني لتحقيق التأثير المطلوب في نفس المتلقي وفي سلوكه.

الخصائص الفنية للقصة القرآنية:

للقصة القرآنية خصائص فنية راقية، فهي تجمع إلى سمو الهدف وصدق المضمون رقيّاً في البناء الفني، ومن الخصائص الفنية التي تمتاز به القصة القرآنية[1]:

---

(١) انظر في هذا الموضوع: التصوير الفني في القرآن لسيد قطب؛ والبيان القرآني لمحمد رجب البيومي، والبيان القصصي في القرآن الكريم للدكتور إبراهيم عوضين.

١- تنوع طريقة العرض: فالقرآن الكريم لا يجري في أسلوبه على نمط واحد مخصوص في قصصه كلها، بل تتنوع طرائقه تبعاً لتنوع الأغراض، وتتنوع الوسائل البيانية تبعاً لتنوع الطرائق، فبعض المشاهد يقوم على استحضار الأحداث دون تدخل بالرواية. والاقتصار على التنبيه على عنوان المشهد أو موضوعه ثم تظهر الأحداث بصورة مباشرة مثل قصة إبراهيم عليه السلام في مشهد بناء الكعبة، وأكثر القصص القرآنية يعتمد الحكاية والرواية، وبذلك يسيطر على الموقف لينتقي من الأحداث ما يحقق الهدف وينسقها في إطار فني لا يخرجها عن الواقع، ولا يترك المجال لكل ما وقع فيخرج بها عن هدفها المسوقة لأجله، مثل قصة أصحاب الكهف وقصة سليمان عليه السلام مع الهدهد وملكة سبأ، وقصة يوسف عليه السلام مع إخوته، وقد يمهّد مع هذا وذاك للقصة بذكر ملخّص لها مشوق إليها ومنبّه علىٰ ما تنطوي عليه من مقاصد القصة القرآنية، ويعالج ما لعله يثار حولها من تشكيك كقصة أصحاب الكهف وبداية قصة موسى عليه السلام في سورة القصص، وقد يمهّد للقصة بمقدمة توحي بخاتمتها كما في قصة يوسف عليه السلام حيث تبدأ بالرؤيا التي توحي بالخاتمة قبل عرض الأحداث، وقد يذكر القصة بلا مقدمات أو تمهيد مكتفياً بالإيحاء إلى محور القصة مثل قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ، وربما قدم أحداث القصة وفق ترتيبها الواقعي مثل قصة مريم عليها السلام في سورة مريم وقصة إبراهيم عليه السلام في سورة الأنبياء، وربما قدّم أحداث القصة وفق ترتيب ما ليعجّل لنا بالكشف عن مفاجآتها كما في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم، وقد يمزج البيان القرآني الشخصية بالحدث مزجاً تاماً ثم يدير المشاهد في ذلك الفلك حسبما يقتضيه الغرض التوجيهي، فهو يمزج الشخصية بالحدث لينتج من هذا المزيج مَركَزٌ هو البطل الجديد الذي تدور حوله المشاهد، ذلك أن الشخصية في القصة القرآنية وسيلة لا غاية، فهي مجرد شواهد إنسانية في مختلف حالاتها من خير أو شر أو قوة أو ضعف.

٢- إقامة العرض على التصوير: أي أن القصة القرآنية تقيم العرض القصصي على الأسلوب التصويري، فالقرآن يتخير من ألوان التصوير لكل قصة ما يتناسب معها في موطنها، فإن كان للأشخاص دور رئيس في تحريك الحدث القصصي رأيته يبرز من صفاتهم العقلية أو النفسية أو العاطفية أو الجسمية ما تتطلبه أدوارهم في القصة.

٣- اختلاف موقع المفاجأة: القصة القرآنية لا تسير على نظام واحد في تقديم الحدث المفاجئ الذي يسهم في النهاية ويحرك القصة في حل عقدتها الرئيسة، بل تراعي المكان والزمان المناسبين لإظهار المفاجأة، فالهيئة التي تقدم بها القصة في مجال العقيدة غير تلك التي تكون في مجال التطبيق العملي، ففي قصة أصحاب الجنة في سورة القلم تأتي المفاجأة بعد بدء القصة مباشرة، فبينما هم منشغلون بالتخفي والاستتار عن المحتاجين للهرب بمحصول جنتهم تأتيهم المفاجأة بخرابها أمام سخرية النظارة، ذلك أن القصة مبنية على نزوة نفسية هي الطمع والشحّ، أما قصة صاحب الجنتين فالمفاجأة فيها تأتي في ختام الأحداث وبعد حواره مع صاحبه المؤمن، ذلك أن القصة مبنية على نزوة عقلية هي الاغترار والتكبر، وفي هاتين القصتين يجهل القارئ المفاجأة قبل حدوثها، أما في قصة نقل عرش ملكة سبأ فالمتلقي هنا يعرف المفاجأة من أول الأمر، وفي مشهد إدخالها الصرح تكون هي والقارئ سواء في الجهل بالمفاجأة.

٤- تنوع وسائل ربط المشاهد: من أبرز الخصائص الفنية للقصة القرآنية عدم الاستقصاء في عرض مشاهد القصة ارتفاعاً بها عن وهدة السرد المعتاد، ففي القصة الواحدة تجد بعض المشاهد متتابعة، وبعضها فيه فجوة تُترَك لخيال القارئ ليملأها، ففي قصة أصحاب الكهف يتتابع المشهد الأول والثاني، إذ هما استمرار للحوار الدائر بينهم بشأن موقف قومهم من العقيدة، لكن هناك فجوة بين المشهد الثاني والثلاث هي الفاصل بين استقرار أمرهم على الإيواء

إلى الكهف وبين وقوفنا أمام الكهف نرى الشمس تطلع عليهم وتغرب وهم في فجوة منه؛ وهذه الأحداث التي سقطت بين المشهدين لا ضرورة لها في نمو الحدث القصصي.

٥- عدم التزام السرد القصصي: لا يُلتزم في القصة القرآنية السرد القصصي دائماً، لكنه قد يُلتزم للوصول إلى الغاية من القصة، ووفقاً لذلك الالتزام نرى من القصص القرآنية ما تقدم كاملة الأحداث والمواقف في معرض واحد كما رأينا في قصة يوسف ومنها ما تقدم في حلقات يُخصّ بكل حلقة منها معرض يتطلب هذه الحلقة من القصة فحسب. ولا مانع في أثناء ذلك من تكرار موقف مشترك بين حلقتين.

شبهات حول القصة القرآنية:

كان من المتوقع، بل من الواجب وقد اتصل الشرق بالغرب أن يفيد المسلمون من ذلك التقدم العلمي الذي كان للغرب فيه قصب السبق، وكنا نرجو أن تنقل هذه التقنية العلمية حتى يفيد منها المسلمون ولكن كان الأمر على العكس من ذلك حيث وجدنا أولئك المثقفين الذين هيأت لهم ظروفهم أن يتصلوا بالغرب وقضوا فيه حقبة من أعمارهم، رجعوا حرباً على هذا الدين وحضارة هذه الأمة، فوجدنا حملة مسعورة في النصف الأول من هذا القرن. وهذه الحملة المسعورة لم تكن لتقصر على زاوية واحدة من زوايا تلك الحضارة، وإنما جاءت لتشمل التاريخ والتشريع بل اللغة كذلك... ثم تعدت ذلك كله فتحدّت مشاعر الأمة وعواطفها لتنال من هذا القرآن الكريم والسنّة المطهرة وقدسيتهما.

وكانت في ذلك كله حاكية مقلدة لا تصدر عن أساس من المنهجية والبحث العلمي اللذين تدعيهما هذه الفئة على الرغم من أنها لبست - خداعاً

- ثوب الوطنية ورفعت زوراً شعار التحرير، إلا أنها كانت أشد فتكاً وأكثر ضرراً وأنكى إيذاءً من المستعمر الذي أرضعهم لبان حقده وكفره وفجوره.

والذي يتصل بموضوعنا هو ما أثاروه حول القصة القرآنية، وكلهم يغرفون من مستنقع واحد، ويظهر أن القصة القرآنية إنما كانت الهدف؛ لأنها الموضوع الذي يستطيعون أن يتسربوا من خلاله إلى الموضوعات القرآنية الأخرى، هذا أولاً.

وأما ثانياً: فلأنهم ظنوا أن التمويه في قضية القصة قد يسهل عليهم أكثر من غيره من بقية الموضوعات.

وأما ثالثاً: فقد رأوا أن هناك عوامل مشتركة بين القصة القرآنية والقصة الحديثة؛ ومن هنا يمكنهم التخليط، كما يمكنهم أن يدسوا سمومهم وهم يتظاهرون بتطبيق قواعد القصة الحديثة على القصة القرآنية بحسن نية دون أن يثير عليهم ذلك أي عاصفة من قبل المسلمين المؤمنين بكتاب الله.

ونستدل لما نقول بأنهم نفثوا سمومهم وكفرهم، ومع ذلك فهم يعلنون مدعين أن هذا الذي قالوه لا يتنافى مع إعجاز القرآن، بل هو يصدقه ويؤكده، ويذكرني أولئك بقول النبي ﷺ وهو يبين لنا المداخل التي يمكن أن يدخل منها أعداء هذا الدين دون أن يحدثوا ضجة أو يثيروا شبهة، وإنما يدخلون من مداخل مقبولة غير مستنكرة. يحدثنا النبي ﷺ محذراً «إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا»[1] وهذه أسئلة معقولة في ظاهرها؛ لأن الإجابة عليها إجابة بدهية، فالله هو الخالق، ولكن الشيطان لن يكتفي بهذا، وهذا ليس بالطبع هو الذي يريده وإنما يسترسل في تساؤلاته بعد ذلك ليصل إلى

(١) أخرجه البخاري في باب بدء الخلق.

غايته فيقول: «من خلق الله» ، وفي حديث النبي الكريم ﷺ أعظم الحكمة وهو درس يريدنا الرسول الكريم أن نعيه؛ فإن شياطين الإنس أقدر على التشكيك من شياطين الجن، ولهذا قُدِّموا في الآية الكريمة ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام:١١٢] ويقيننا أن المسلمين حري بهم أن يقفوا عند هذا الحديث العظيم الفوائد، العميق في هدفه وغايته، وأولئك القوم يسلكون ذلك النهج، فهم يأتون باسم العلم تارة، والأدب تارة، والغيرة تارة ليقرروا ما في نفوسهم من شبهات معلنين أن ذلك دفاع عن هذا القرآن أمام هذه النهضة العلمية والأدبية العارمة، فإذا تم لهم التشكيك في قصص القرآن، وأنى لهم ذلك انتقلوا إلى موضوع آخر وليكن موضوع الصلاة أو الصيام أو أمراً يتعلق بالمعاملات، ثم يصلون إلى قضية البعث واليوم الآخر، ولقد كان أبو بكر ﷺ ذا حكمة وحزم حينما لم يفرق بين من امتنع عن الزكاة مع رضاه بجميع قواعد الإسلام، وبين الذين ارتدوا عن الإسلام بكل قواعده وعقائده، رأينا من أولئك من أنكر بعض ما أخبر عنه القرآن كقصة إبراهيم وإسماعيل مدعياً أن هذه القصة إنما نسجت قبل نزول القرآن لتوثيق العرى بين العرب واليهود الذين يعيشون في الجزيرة. ذهب إلى هذا القول الدكتور طه حسين، وقد انبرى العلماء - جزاهم الله خيراً - فردوا عليه مقالته رداً علمياً مما جعله يعلن تراجعه وتوبته. والتي نرجو أن تكون توبة صادقة.

وهذا آخر يعلن أن القصص القرآني، ومعجزات الأنبياء من المتشابه، وهو محمد فريد وجدي[1] وقد رد عليه صاحب المنار - رحمه الله وجزاه خيراً.

---

(١) وقد رجع عن هذا القول فيما بعد.

ثم جاء أمين الخولي، وقد تخرج الشيخ أمين الخولي في مدرسة القضاء الشرعي، وتسنى له أن يدرس اللغة الإيطالية ثم عين مدرساً في كلية الآداب، وكان له رأي يتلخص في وجوب تجديد هذه الدراسات الأدبية والذي يهمنا نظرته إلى دراسة التفسير، فالقرآن كتاب العربية الأكبر كما يقول، ومن هنا فالواجب أن يُنظر إليه أولاً وقبل كل شيء من هذه الناحية.

لذا فهو لا يرضى أن يكون المقصد الأول للقرآن بيان الهداية في العقيدة والتشريع والأخلاق، وإنما واجب العرب مسلمهم وغير مسلمهم أن يدرسوا القرآن أولاً من حيث هو فن العربية الأقدس.

لم تكن القصة القرآنية بدعاً من موضوعات القرآن، وهل هناك كتاب في الدنيا تحطمت على صخرته الصلبة الشوائب والشبهات والفرى والأباطيل غير هذا القرآن؟ فلقد كان نصيب القصة القرآنية لا يقل عن غيرها من موضوعات القرآن الكريم بل كان لها النصيب الأوفر من خصوم الإسلام فلقد وُجّهت السهام من كل صوب من المستشرقين والمبشرين للقصة القرنية فتارة يزعمون أنها خليط غير متجانس من القصص الشعبية وأخبار أهل الكتاب وأبناء الأمم التي كانت معروفة في عهد النبي ﷺ وحيناً يزعمون أن النبي تلقفها من اليهود والنصارى وحيناً يقولون: إن النبي اختلقها ويرمونه بالجهل في التاريخ وجاء مع هؤلاء وأولئك صاحب (الفن القصصي في القرآن) وهي رسالة أعدت لنيل الدكتوراه في أواخر الأربعينيات. يزعم الكاتب أن القصص القرآني لا ينبغي أن نفهمه على أنه حقائق ثابتة قصد القرآن إلى تقريرها وإنما هي نمط من أنماط الخيال الخصب والفن المدبجّ لما تعارف عليه الناس في عصر نزول القرآن أو جاءت تحكي ما عرفه السابقون، وهذا هو الأساس الذي بنيت عليه رسالته مع وجود تفصيلات وآراء كثيرة فيها تحتاج إلى بسط ومناقشة، وسأبدأ ببسطها أولاً تمهيداً لمناقشتها.

يقول الكاتب إن القصة القرآنية هي عمل أدبي متخيَّل يسوق حوادث وقعت إما لبطل لا وجود له أو لبطل له وجود، ولكن الحوادث التي ألّمت به لم تقع أصلاً، أو أنها وقعت ولكنها نظمت على أساس فني، إذا قُدِّم بعضها وأُخِّر بعضها أو حُذف بعضها وأُضيف إلى الباقي بعض آخر، أو بولغ في تصويرها إلى حد يخرج بالشخصية التاريخية عن أن تكون حقيقة إلى ما يجعلها في عداد الأشخاص الخيالية، ويرى أن الأقدمين أخطؤوا في عدّ القصص القرآني تاريخاً، فمنهج القرآن – في رأيه – هو معالجة القصة معالجة أدبية، ويعني بذلك خلق الصور والابتكار، ولذلك لا مانع من اختلاف تصور الشخصية الواحدة في القرآن.

ويفرّع على هذا قوله بوجود أساطير في القرآن زاعماً أن القرآن نفسه لم ينفِ عن نفسه أن تكون فيه أساطير، وإنما الذي أنكره على العرب أنهم لم يؤمنوا أنه من عند الله، فإذا قال القرآن الكريم: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [الفرقان:٥] فليس معنى هذا أنه أنكر وجود أساطير، ولكن الذي أنكره القرآن أن يكون النبي هو الذي اكتتبها، فكأن القرآن يقول هي أساطير ولكن ليست من عند محمد، وإنما هي أساطير من عند الله، ويستدل لذلك بما جاء بعد الآية الكريمة ﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الفرقان:٦] فيقول إن هذا القول لا يفهم منه نفي الأساطير، بل كل الذي يفهم منه أن الله هو الذي أنزلها فهي أساطير منزلة.

إن الكاتب يسمي القصة في القرآن أسطورة، حيث يقول إن الأسطورة في مفهوم القرآن هي ما سطره الأقدمون من أخبارهم وأقاصيصهم مستدلاً ببيان بعض المفسرين لمعنى الأسطورة بأنها ما سطره الأولون وكتبوه من أخبار الأمم.

ويقرر الكاتب أن النبي ﷺ لم يلتزم الصدق التاريخي في القصة، وهذا ما قرره المستشرقون ولكنهم قالوا إنه كان يجهل التاريخ فأخذ مقالتهم ولكن وضعها في قالب آخر. قال بعض المستشرقين بوجود قصص في القرآن غير موافق للواقع التاريخي فاتهموا القرآن بمخالفة التاريخ، ودليل ذلك عندهم اختلاف بعض أحداث قصص القرآن عما جاء في التوراة والإنجيل، كما اتهموا القرآن بافتراء الكذب والتزوير والتدليس، وعللوا مخالفة القرآن للواقع التاريخي بأكثر من سبب أهمها جهل محمد بالتاريخ حيث أخذ محمد التاريخ عن الجهلة من العبيد والأرقّاء ممن كانوا يخدمون قريشاً، وهؤلاء العبيد كانوا فقراء لا يستطيعون الحصول على نسخ التوراة والإنجيل، فكانت معارفهم مغيرة مبدلة، فأخذها محمد عنهم كما هي، وأوردها بخطئها في قصص القرآن، كما قالوا إن أغراض النبي الخاصة والظروف التي كانت تحيط به وبالدعوة الإسلامية كانت تدفعه إلى أن ينال بعض القصص بالتغيير والتبديل والحذف والإضافة لتساير الدعوة الإسلامية، أي إن محمداً كان يزوّر القصص ويزيفه، بل كان يختلق من الحوادث ما لم يقع ويصوره على أنه الواقع التاريخي، فهو عندهم يفتري الكذب، فأراد الكاتب رد دعواهم فوقع في أكثر مما وقعوا فيه حيث سلّم بأقوالهم وزاد عليها وصف النبي ﷺ بالتدليس فيما سماه بالواقع النفسي وهو مجاراة القرآن لما هو مشهور متداول وليس بلازم أن يكون هذا الواقع النفسي أو المشهور متفقاً مع الحق والواقع فهو يريد اجتذاب الناس إلى الإسلام ولو بالباطل.

لقد حاول الكاتب رد دعواهم فوافقهم في عدم مطابقة القصص القرآني للتاريخ غير أنه علل ذلك بأن القصة القرآنية هي عمل الفنان الذي تلزمه الحرية الفنية والذي لا يعنيه الواقع التاريخي ولا الصدق العقلي، وإنما ينتج عمله ويبرز صوره، حسب ملكته وموهبته الفنية وقدرته على الابتكار والاختراع والتغيير والتبديل وهذا القول يشي بأنه يوافق المستشرقين في قولهم إن القرآن

من صنع الرسول ﷺ بدليل قول الكاتب في موضع آخر إن القصص في القرآن تدرّج كما يتدرج أدب كل أديب، واعتقاده أن للقرآن مصادر هي التوراة والإنجيل، والأقاصيص والحكايات التي كانت متداولة في جزيرة العرب، وخليط من عناصر فارسية وإسرائيلية، فهذه المصادر تمثل العقلية العربية إبان ظهور القرآن، وليس بلازم أن يكون ما يقصه القرآن عنها صدقاً وحقاً على ما تقدم من كلامه.

ومن العجيب أن يدعي الكاتب وأضرابه أنهم ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه حتى يخلصوا القرآن مما فيه من تناقض في قصصه، ويضربون مثلاً لذلك ما جاء في قصة إبراهيم عليه السلام من أن البشارة كانت له تارة، وكانت لامرأته أخرى ويعدّون ذلك من قبيل التناقض.

لقد طعن المبشرون في صدق قصص القرآن وادعوا أنها مخالفة للتاريخ القديم من جهة، ولما في التوراة والإنجيل من جهة أخرى، والخطأ الذي تردّى فيه خصوم القرآن أنهم وجدوا ما يوجّه إلى التوراة والإنجيل من نقد يتصل بالمتن والسند جميعاً، نقد يتبين به ما فيهما من خلط وتناقض ووضع واعتراف من أصحابهما بذلك، فأرادوا أن يسلكوا بالنسبة للقرآن المسلك ذاته خطأ وزوراً، وكان من أدلتهم وقوع التناقض في أحداث قصصه، وعدم اهتمامه بالترتيب الزمني للأحداث، وأن القرآن يسند الأحداث لأناس بأعيانهم في مواطن ثم يسند نفس الأحداث لغير هؤلاء الأشخاص في موطن آخر، من ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف:١٠٩] وفي سورة الشعراء جاء على لسان فرعون: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الشعراء:٣٤] كذلك ما جاء عن البشارة لإبراهيم أو لامرأته، كما أن القرآن ينطق الشخص الواحد في الموقف الواحد بعبارات

مختلفة حين يكرر القصة، ومن ذلك تصويره لموقف (الإله) من موسى حين رؤيته النار، فقد نودي في سورة النمل بقوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [النمل:٨] وفي سورة القصص ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص:٣٠] وفي سورة طه ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه:١١-١٢].

ومما يدعيه المعارضون بدعوى التناقض أن فرعون عابد في قوله تعالى على لسان قومه ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ [الأعراف:١٢٧] ومعبود في قوله: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات:٢٤] ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص:٣٨].

كما يتهمون القرآن بالخط ومن ذلك عندهم أنه يقرر أن مريم أخت هارون أخي موسى مع بُعد ما بين موسى ومريم أم المسيح.

كما يرى هؤلاء أن القرآن يفتري الكذب، وما لا أصل له من التاريخ أو من الأساطير، بدليل التناقض في رواية الخبر الواحد، فمحمد كان يخطئ في الحقائق التاريخية ويختلق من الحوادث ما لم يقع ويصوره على أنه الواقع التاريخي، وكان يفعل ذلك للإجابة على ما يوجهه إليه المشركون من أسئلة، فتأتي إجاباته تصويراً نفسياً عن أحداث ماضية مغرقة في القدم سواء أكان ذلك متفقاً مع الحق أم مخالفاً له، ومن الأدلة على التناقض في القرآن عند الكاتب أن القرآن يقرر أن الجن تعلم بعض الشيء ثم لما تقدم الزمن قرر القرآن أنهم لا يعملون شيئاً، ثم يقول الكاتب إن المفسرين يخطئون حين يأخذون الأمر مأخذ الجد.

وقد نظر الكاتب في قصص القرآن وراح يصدر عليها أحكامه في ضوء نظريته الفنية وفي ضوء اتهامات المستشرقين فعمد إلى قصة موسى ﷺ مثلاً في سورة الكهف ونفى عنها أن تكون قد اعتمدت على أصل من مواقع الحياة، ووصفها بأنها ابتدعت على غير أساس من التاريخ مُظهراً عدم الجزم بذلك إذ صدر حكمه بحرف «لعل» .

ويتجاوز الكاتب الحد حين يتناسى عصمة الأنبياء فيقرر أنهم أبطال ولدوا في البيئة وتأدبوا بآدابها وخالطوا الأهل والعشيرة وقلدوهم في كل ما يقال ويفعل وآمنوا بما تؤمن به البيئة من عقيدة ودانوا بما تدين به من رأي وعبدوا ما يُعبد من إله.

أما أخلاق الأمم الضالة فيدافع الكاتب عنها قائلاً: إن تصوير أخلاق الأمم كبني إسرائيل ليس واقعاً بالضرورة، بل يصح أن يكون تصويراً فنياً يلاحظ الواقع النفسي أكثر من صدق القضايا.

ويهوّن الكاتب وأضرابه من شأن المعجزات وعلاقتها بإثبات النبوة والرسالة، وبما أن معجزة محمد ﷺ هي القرآن، فقد نسبوه إليه ليجعلوه كلاماً بشرياً قابلاً للنقد، بل راحوا يزيفون أقوال العلماء المسلمين كالفخر الرازي ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا بالتقول والبتر والتحريف وتحميلها فوق ما تحتمل ليصلوا إلى ما يدعون.

تلكم خلاصة لأهم ما جاء في رسالة الفن القصصي لمحمد أحمد خلف الله التي كان مشرفاً عليها الشيخ أمين الخولي رحمه الله، وسأحاول أن أجمل في الرد؛ ذلك لأن كثيراً من هذه الشبهات ذكرت الرد عليها في أثناء حديثي عن قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين شرفت بالحديث عنهم في هذا الكتاب وبعضها فصّلت الحديث في الرد عليه في كتابي «قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية عرض ونقض» .

وبادئ بدء أقول إن ما ذهب إليه صاحب الفن القصصي في القرآن كان أكثر نكارة وإيغالاً مما ذهب إليه المبشرون والمستشرقون، والذي يزيد النفس ألماً أن يكون المشرف على الرسالة أحد علماء المسلمين الذي يرى أن القرآن كتاب العربية الأكبر.

إن ما ذهبا إليه - أعني الباحث والمشرف - يتعارض أولاً وقبل كل شيء مع المسلمات التي لا يختلف فيها اثنان مسلمان وأولاها أن هذا القرآن الكريم صدق كله وهذا ما أكدته آيات كثيرة، وهذه أول آية في سورة البقرة ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢] ومثله في سورة يونس ﴿ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس:٣٧] كذلك آية الإسراء ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء:١٠٥] وهذه الآية الكريمة واضحة المعنى حيث ذكر فيها الحق مرتين: أما أولاً ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ فمعناه أن هذا القرآن نزل على قلب النبي ﷺ من عند الله فليس لأحد من الخلق دخل فيه فهو تنزيل من حكيم حميد. وأما ثانياً ﴿ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ فمعناه أن هذا القرآن نزل متلبساً بالحق فهو حق كله لا فرق في ذلك بين قصصه وحِكَمه وأحكامه ووعده ووعيده.

لقد حدثنا القرآن عما قاله الذين نزل القرآن فيهم رداً على القضية الأولى وهي أن القرآن الكريم أنزله الله «وبالحق أنزلناه» في مثل قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل:١٠٣] وقال رداً على القضية الثانية: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام:٢٥] وقال رداً على القضيتين كلتيهما: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ

تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان:٥-٦].

ولقد بلغت الجرأة بكاتب الرسالة ومنسقها (المشرف) الادعاء بأن في القرآن أساطير وبأن القرآن لم ينفِ ذلك عن نفسه، ولما كان مثل هذه الدعاوى غريباً كل الغرابة لا يليق من منصف فضلاً على أن يكون مسلماً فضلاً على أن يكون من علماء المسلمين حاولا أن يلصقا هذه الأقوال بأئمة هم منها براء لكنهم للأسف حرفوا الكلم عن مواضعه فزعموا أن الإمام فخر الرازي من الأقدمين وأن الإمام محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا من المحدثين رحمهم الله جميعاً يرون هذا الرأي، ويعلم الله أنها فرية على أئمتنا مفسري القرآن الكريم، وهذا يذكرني بصنيع أحد المستشرقين حيث نسب إلى الإمام البيضاوي رحمه الله فرية الإمام منها براء ففي سورة النور جاء قوله سبحانه: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [النور:٦١] ذكر الإمام البيضاوي أقوال المفسرين ومنها أن الآية نزلت في الجهاد، وقال تعليقاً على هذا القول إنه مقحم هنا وليس هذا محله، يعني أن تفسير الآية بأنها في الجهاد لا مناسبة له، لأنه لا ذكر للجهاد في سياق الآيات، ولكن هذا المستشرق تناسى هذا القول وتجاهله ولا أقول جهله فقال إن البيضاوي يرى أن هذه الجملة مقحمة هنا وأن محلها ليس سورة النور، بل سورة أخرى هي سورة الفتح. هكذا بكل تعمد وإصرار يفتري على البيضاوي، وكلام البيضاوي واضح كل الوضوح، فهو يرى أن تفسير الآية بالجهاد مقحم في الآية، وليست الآية نفسها، لكن إذا صدر هذا عن المستشرقين فكيف يصدر عن أحد رجال العلم؟ أو عن عالم مسلم؟ .

إن الذي يتدبر آي القرآن الكريم يدرك بلا عناء أن قضية الأساطير إنما هي اختلاق من الكافرين وأن القرآن الكريم نفاها كل النفي وردّها كل الرد،

ويكفي أنه ما نسبها إلا للجاحدين الكافرين، ويمكنك أيها القارئ أن ترجع إلى آي القرآن الكريم لتتدبر موقع هذه الجملة.

وهناك فرية لا تقل بعداً عن الحقيقة من هذه، وهي أن القصص القرآني إنما تعينه اللمسات الفنية فحسب أما الصدق الواقعي والتاريخي فغير مقصود، ولذا فلقد تدرج القصص القرآني كما يتدرج أدب الأديب في كل عمل فني، وأيضاً إن فيه تناقضاً ثم إن فيه قصصاً لا أصل له ألبتة وإنه مخالف بعد هذا كله لكثير مما جاء في التوراة.

ولا ندري كيف نتعامل مع هذه الأقوال وأصحابها: أنعدهم مسلمين فنكتفي أن نقول لهم إن هذه الأقوال تتنافى مع قدسية القرآن الكريم وعصمة النبي ﷺ أم نرد عليهم بما نرد به على المستشرقين والمبشرين؟ .

أما دعوى التناقض فعجيبة غريبة، إن من يعرف أولى مسلمات المنطق لا يصدر عنه هذا القول، فالمعلوم أن التناقض اختلاف القضيتين كمّاً وكيفاً، والنقيضان كما يقولون لا يجتمعان وذلك مثل السلب والإيجاب كأن يقول أحدهم (جاء أخوك) ويقول آخر: (لم يجئ أخوك) أما ما سمّاه تناقضاً فهو مصطلح خاص بهما، فإذا كانت البشارة حيناً لإبراهيم عليه السلام وحيناً آخر لزوجه، وإذا نسب القول إلى فرعون حيناً ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الشعراء:٣٤] وإلى الملأ حيناً ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ﴾ [الأعراف:١٠٩] فالعقلاء مجمعون على أن هذا ليس من التناقض لأنه يمكن الجمع بين هذه الأقوال، وأقول: إن هذا هو لبّ الإعجاز، ذلك أن القصة القرآنية تتلاءم بكل اتساق مع موضوع السورة التي ذكرت فيها، فكون البشارة لإبراهيم كما جاء في سورة الحجر، وكونها لامرأته كما جاء في سورة الذاريات أمر منسجم مع موضوع كل من السورتين، وقول فرعون في سورة الشعراء متلائم مع موضوعها تماماً، لأن سورة الشعراء

هي أكثر السور القرآنية التي أبرزت لنا المحاورة بين سيدنا موسى عليه السلام وبين فرعون.

أما التدرج المزعوم فنقول في الرد عليه إن القصص القرآني منذ أول العهد المكي إلى أخر ما نزل في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - كان نسيج وحده نسقاً واحداً لا فرق بين الأقصوصة والقصة المتوسطة أو الطويلة، وإن هذا القول يذكرك أيها القارئ معي بما ادعي على الأسلوب القرآني من فرق بين مكيّه ومدنيِّه وبأن الأسلوب المكي كانت تظهر فيه القوة والجزالة أكثر من غيره، فلا فرق بين هذا القول وبين ذاك.

وأما الادعاء بأن هناك قصصاً لا أصل له كقصة موسى مع العبد الصالح فأمر يحتاج إلى بينة.

والدعاوى إن لم تُقيموا عليها بيّناتٍ أبناؤُها أدعياءُ

وكيف يجوز لأحد أن ينكر ما شاء ويثبت ما شاء دون دليل؟ ولو فتح هذا الباب على مصراعيه لفسدت الأرض واتخذ كل واحد الهوى مركباً والغواية سلّماً.

ولعل الحجة عند صاحب هذا القول أن هذه لم تذكر في التوراة، ومتى كانت التوراة هي الحكم الذي يتحاكم إليه المسلمون أو غيرهم؟ .

وما ذكرته لك من قبل أيها القارئ يكفي للرد على هذا القول.

لقد أحدثت قضية هذا الكتاب (الفن القصصي في القرآن) ضجة كبيرة في وقتها بين العلماء والأدباء وعلى أعمدة الصحافة اليومية والمجلات الأدبية وبخاصة مجلة الرسالة التي كان يصدرها الأستاذ أحمد حسن الزيات رحمه الله ومجلة الأزهر اللتين أسهم كثير من كُتّابهما في مناقشة هذه القضية والرد عليها

لا من علماء وأدباء مصر فحسب، بل من العالم الإسلامي والعربي، ويحضرني من أولئك الأستاذ علي الطنطاوي وممن ردّوا ردّاً مفصّلاً مشكورين الأستاذ أحمد الشايب رحمه الله وكيل كلية الآداب في الجامعة المصرية (جامعة القاهرة) والشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق، ومن الذين ردّوا هذه الرسالة الأستاذ أحمد أمين رحمهم الله جميعاً.

وأختم كلمتي هذه بفتوى علماء الأزهر بشأن كاتب الرسالة والمشرف عليها حيث أجمعوا على تكفيرهما، وبنوا حكمهم على ما يلي:

١- قوله إن الحرية الفنية تقتضي عدم القيد بالصدق العقلي ولا بتصوير الحقائق تصويراً صادقاً، بل قد يتقوّل القرآن ما لم يحصل ولن يحصل.

٢- قوله إن تاريخ الأنبياء الوارد في القرآن لا ينبغي أن يؤخذ على أنه حقائق.

٣- قوله إن القصص القرآني قد يكون لتصوير واقع نفسي لا لحوادث حصلت، وإنه حرب أعصاب لا أقل ولا أكثر.

٤- قوله: إن القرآن يشتمل على الأساطير وما فيها من حوادث ملفقة أو مكذوبة.

٥- قوله: إن مصادر القصص القرآني هي كتب الأديان الأخرى والحكايات الشعبية والأفراد العاديون من الناس والخلط والمزج بين عناصر القصص الشائعة في عدة أمم.

إن لوثة المادية، والشعور بالضعف، وعدم رسوخ العقيدة، وضعف الإيمان، والثقة بأعداء هذا الدين، وشهوة الظهور كانت تلك الأسباب المباشرة التي دعت أولئك فحملتهم على هذا الانحراف الخطير، ولا زلنا نسمع منهم حتى اليوم ما يتنافى مع الإسلام ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [البقرة:٩][1].

(١) راجع كتابنا في القصص القرآني.

الفصل التاسع عشر

أمثال القرآن الكريم

القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، عظم كل شيء فيه، مواعظه وقصصه، حكمه وتشريعاته، أمثاله ووصاياه.

نعم السمير كتاب الله إن له	حلاوة هي أحلى من جنى الضرب
به فنون المعاني قد جمعن فما	يَفُتن من عجب إلا إلى عجب
أمر ونهي وأمثال وموعظة	وحكمة أودعت في أفصح الكتب
لطائفٌ يجتليها كل ذي بصر	وروضة يجتنيها كل ذي أدب

ولما كان القرآن الكريم عربياً غير ذي عوج، وقد عرفت العرب الأمثال، فكان لها في حياتهم شأن وأثر، أكثر الله فيه من ضرب المثل. قال أبو عبيد: الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق بكناية غير تصريح، فيجتمع لها ثلاث خلال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وقد ضربها النبي ﷺ وتمثل بها هو ومن بعده من السلف.

قال الزمخشري رحمه الله: «ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن،

والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألدّ، وقمع لسورة الجامح الأبيّ، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء»[1].

وفي بعض كتب السنّة، كتاب يسمى كتاب الأمثال، فكما أن الأمثال كثيرة في كتاب الله فهي كذلك في كلام النبي ﷺ ، ولبعض العلماء الأفاضل كتب عن الأمثال في القرآن والسنّة، وقبل أن نتحدث عن أمثال القرآن الكريم، نرى لزاماً أن نتحدث عن معنى المثل، ولماذا اختيرت كلمة الضرب دون غيرها.

معنى المثل:

المثل له اصطلاحان: الأول: الاصطلاح العام، وهو الذي كثر في كتاب الله تبارك وتعالى، فهو يطلق على كل أمر ذي شأن سواء كان هذا الأمر قصة أم خبراً أم صفة.

الثاني: اصطلاح الأدباء، والمثل عندهم هو القول الذي شبه مورده بمضربه، تفسير هذا أن بعض الناس كان له خبر أو قصة، قال جملة من القول أو قيلت له، فجرت على ألسنة الناس لسهولتها ويسر نطقها، فصارت مثلاً، حيث شبهت الحالة التي ضربت لها بالحالة التي قيلت لها في أول مرة.

كان أحدهم يرد الماء ليملأ قربة له، لكنه لم يحسن وكاءها – أي: ربطهما – فلما رفعها وقعت وانكب الماء، فطلب معونة من أحد الحاضرين معه، فقال له: يداك أوكتا وفوك نفخ، أي: أنت الذي نفخت القربة بفيك وربطتها بيديك، فلم تحسن الربط، ولم تحسن النفخ، فصارت هذه الجملة (يداك أوكتا وفوك نفخ) مثلاً يقال لكل من أشبه حاله حال صاحب القربة.

---

(١) الكشاف (١/ ٧٢).

وكان شجار بين زوجين، وحاول الزوج لَمَّ الشمل، لكنها أبت، وبعد مدة من الزمن طلبت أن ترجع إليه، فقال لها: «الصيف ضيعتِ اللبن» فاستحسن الناس هذه الجملة، فصاروا يضربونها لكل من أشبهت حاله حال هذه المرأة، رجلاً كان أو امرأة.

ثم إن هذه الأمثال لا ينبغي تغييرها، فلو ضربنا هذا المثل لرجل، فينبغي أن نبقيه على حاله (الصيف ضيعتِ اللبن) بكسر التاء.. ولنرجع إلى ما نحن بصدده وهو المعنى الأول للمثل، وهو أنه يطلق على ذي شأن سواء كان خبراً أم قصة أم صفة.

والمتدبر لأمثال القرآن الكريم، سيدرك ما قلته إدراكاً تاماً، بلا عسرٍ ولا صعوبة هذا من حيث المثل.

أما لم اختيرت كلمة الضرب للمثل، فلذلك سرّ وحكمة ترجع إلى الهدف من المثل، فالضرب معناه إيقاع شيء على شيء، وقد عرف الناس الضرب لمن يريدون إيذاءه أو تأديبه، ولكن هناك استعمالات للضرب قريبة لما تعارف عليه الناس، ومن هذا قولهم: ضرب اللبن، أي: خلط بعضه ببعض، ومنه ضرب الدراهم، أي: صَكُّها وصياغتها حتى تصلح ليتعامل بها الناس، وإنما يضرب الناس الدراهم ليظهر أثرها في غيرها، من أجل أن يتعاملوا بها لقضاء حوائجهم، ولعلك أدركت بعد هذا لماذا اختيرت كلمة الضرب للمثل دون غيرها، فالمثل لكونه كلاماً بليغاً، أو قصة ذات شأن أو صفة عجيبة، ستترك أثراً كبيراً في نفوس مستمعيها.

اقرأ مثلاً قوله الله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد:١٥] ألست ترى أن هذه الصفة للجنة من الأمور العجيبة الشأن

التي لم يعهد الناس مثلها، فالناس لا يعرفون اللبن والعسل إلا في قوارير، أما أن تكون أنهاراً، فذاك أمر آخر. وهكذا أمثال القرآن الكريم والحديث الشريف.

وما أكثر الآيات التي ذكر فيها ضرب المثل. نقرأ قوله تعالى في سورة سيدنا إبراهيم: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم:٤٥] ونقرأ في سورة الرعد التي قبل هذه السورة ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد:١٧] .

فانظر إلى هذه الآية الكريمة التي ضُربت فيها أمثال متعددة، فسيل الأودية بقدرها من الماء مثل للقلوب فيما تفيده من هدي السماء، والزبد مثال للباطل، وما ينفع الناس مثال للحق.

وتدبر قوله الله تبارك وتعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣] وقوله ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر:٢١] تدبّر وسَلِ الله أن يفتح لك من فضله لتدرك أسرار هذا الكتاب الخالد، فتقف على طرف من الإعجاز.. صدر الآيتين واحد، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾، لكن ختمت كل منهما بما يخصها.. مكثت ما شاء الله لي أن أمكث لأعرف الفرق بين الآيتين، ولم ختمت كل منهما بما أنزله الله، وأرجو أن أكون قد منّ الله عليّ، وله سبحانه المنن الكثيرة.

آية العنكبوت ذكر قبلها قوله سبحانه ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤١] والعنكبوت من المخلوقات التي فيها من الخصائص والصفات ما لا يعرفه إلا المتخصصون بالحشرات وأمثالها، ولذلك قالوا: إن خيوط العنكبوت، من أشد الخيوط وأقواها، بل هي أقوى من خيط الحرير، لكن أمة العنكبوت أمة لا تستقيم على حال، فهي تخرب بيوتها، تأكل أنثاها ذكرها، ولذلك قال القرآن الكريم: ﴿ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِ ﴾ ولم يقل «لخيط» ثم قال: ﴿ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ ثم عقب على هذا المثل بقوله ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣] الأمر – إذن – يحتاج إلى العلم، وإلى علم خاص يدركه ذوو التخصص.

أما آية الحشر، فالأمر فيها ليس كذلك، إنما هو أمر تفكر وتدبر، وتدبر الآية مرة أخرى ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر:٢١] ليس هنا ما يحتاج إلى علم وتخصص، بل القضية قضية خشية وتدبر وتفكر حينما يُتلى هذا القرآن. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، ويقول سبحانه: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة:٢١٩ و ٢٦٦]] فقد ذكرت هذه الجملة الكريمة مرتين في سورة البقرة، فانظر إلى هذه الدقائق القرآنية، واللطائف في هذا الكتاب العظيم، وتدبر أمثال القرآن جميعها، لتستخلص منها هذه الدقائق

واللطائف، وسل الله أن يمنحك من فضله، فهو سبحانه الأجود، وهو الرب الأكرم الذي يعلِّم الإنسان ما لم يعلم.

وأرجو أن تتدبر هذه الآية الكريمة وما فيها من أسرار، وما لها من أثر في النفوس والقلوب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج:٧٣-٧٤] .

المثل – إذن – هو الكلام البليغ الشائع الحسن المشتمل إما على تشبيه بلا شبيه أو استعارة رائعة تمثيلية أو غيرها، أو حكمة جامعة، أو موعظة نافعة، أو كناية بديعة، أو نظم من جوامع الكلم الموجز[1] .

فقد جعل الله ضرب الأمثال من مننه الكبرى ونعمه العظمى، وقد جاءت أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر وعلى المدح والذم وعلى الثواب والعقاب وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره وعلى تحقيق أمر أو إبطاله ومنها تؤخذ الأحكام وتتم الهداية ومكارم الأخلاق[2] .

وقد ضرب الله الأمثال ترغيباً وترهيباً، وبشارة وإنذاراً، فهناك أمثال للمؤمنين وأخرى للكافرين، وأمثال للمنافقين، وهناك أمثال للأعمال الطيبة والأعمال الخبيثة، ومن أمثلة ذلك:

نجد القرآن الكريم يرسم صوراً متعددة للمنافقين طبقاً لأحوالهم، فالمنافقون كانوا يُظهِرون الإيمان – كما تعلم – وإظهارهم للإيمان كان يدفع

---

(١) منهج الفرقان في علوم القرآن، الشيخ محمد علي سلامة (٢/ ١٦٢).
(٢) منهج الفرقان في علوم القرآن، ٢/ ١٦٣.

عنهم الأذى، حيث كانت تجري عليهم أحكام الإسلام، ولكن هذه الحالة لا يمكن أن تدوم.

وللمنافقين حالة ثانية: وهو ما كانوا يشعرون به من الحرج والضيق، وذلك حينما تنزل الآيات تفضح أمرهم، فادعاؤهم الإيمان لا يجديهم، وتظاهرهم به لا ينفعهم، وهناك حالة ثالثة، لا من حيث ادعاؤهم الإيمان ولا من حيث الحرج الذي يجدونه إنما روعيت فيها هيئاتهم الظاهرة التي تعجب الذين يرونهم، وهناك حالة رابعة، وهي حالتهم عندما يجيئهم الخوف ويدعون إلى الجهاد، ونحن نعلم أن القرآن الكريم يشبه كل حالة من هذه بما يناسبها ويتلاءم معها.

ففي الحالة الأولى نقرأ قول الله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة:١٧]، فهو تشبيه لحال المنافقين وقد ادعوا الإسلام وتظاهروا بالإيمان، فظنوا في أنفسهم أن هذا الخداع لن تكون له نهاية، ولكن هيهات، فمثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فبددت الظلمات وأضاءت ما حوله، وبينما هو كذلك في فرحه ومرحه وسروره، وبهجته، وإذ بهذه النار تخمد وتنطفئ فلا يبقى منها شيء.

أما في حالتهم الثانية وهي حالة الحرج والضيق فنقرأ قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:١٩].

يضرب القرآن مثلهم في هذا الضيق، وتلك القسوة، وذلكم الحرج، بقوم يسيرون والمطر الكثير الشديد ينزل من السماء، وقد أظلم الجو، ومع هذا المطر رعد قاصف، وبرق شديد اللمعان، فهم يجعلون أصابعهم في آذانهم حتى لا

يسمعوا أصوات الرعد، وهذا البرق الشديد يكاد يخطف أبصارهم، ولكن مع شدته يضيء لهم إذا مشوا فيه، فإذا ذهب وقفوا في أمكنتهم، فهم في شدة على كل حال. وكذلك كان المنافقون، فهم مع ادعائهم الإسلام كانوا يخشون دائماً أن تنزل آية تنبئ عن أحوالهم وتفضحهم، فهم مطربون دائماً، لا يستقر لهم قرار يبين هذا قوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:٦٤].

أما حالتهم الثالثة فقد مثّلهم القرآن بالخُشُب المسندة، فشأن الخَشَب أن يستفاد منه في البناء والسفن، وغير ذلك، أما عندما يكون مسنداً فستنخره السوس دون الاستفادة منه، فهم وإن أعجبك مظهرهم، لكن مخبرهم وحقيقتهم ليست شيئاً، وفي هذا نقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون:٤]، وفي مثل هذا يقول الشاعر(١):

لا يَخْدَعَنَّكَ اللِّحى ولا الصُوَرُ	تِسعَةُ أعشارِ مَنْ تَرى بَقَرُ
تَراهُمُ كالسَّحابِ مُنتَشِراً	ولَيْسَ فيها لِطَالِبٍ مطرُ
في شَجَرِ السَّرْوِ مِنْهُمْ شَبَهٌ	لَهُ رُواءٌ وَمَا لَهُ ثمَرُ

وأما حالتهم الرابعة: فقد مثّل حالهم القرآن بحالة الذي يغشى عليه من الموت. قال تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [الأحزاب:١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [محمد:٢٠].

---

(١) روح المعاني للألوسي ٢٨/ ١١١، والرواء - بضم الراء، أي: منظر حسن.

وأكتفي بما ذكرت ومن أراد المزيد فليراجع كتابنا البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان.

أنواع الأمثال:

يذكر العلماء أن أمثال القرآن الكريم نوعان:

الأول: الأمثال المصرحة.

الثاني: الأمثال الكامنة

أما النوع الأول وهو ما صرح فيه بلفظ المثل أو ما يدل على التشبيه والتنظير فقد مثلت لك بأمثلة كثيرة له.

أما النوع الثاني فمع أنه لم يذكر فيه المثل صراحة، لكنها جمل قرآنية جرت مجرى الأمثال بحيث يرددها كثير من الناس في حالات مخصوصة تناسب هذه الجمل القرآنية وإليك طائفة من هذه الجمل:

قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١].

قال تعالى: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ [يوسف:٥١].

قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ﴾ [يس:٧٨].

قوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢١٦].

قوله تعالى: ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ [التوبة:٩١].

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر:٤٣][1].

* * *

(١) راجع الإتقان للسيوطي، (٤/٣٩-٤٥، النوع السادس والستون، في أمثال القرآن]، فقد ذكر مجموعة كبيرة من الآيات.

الفصل العشرون

القسم في القرآن الكريم

أقسام القرآن من الموضوعات التي يذكرها الكُتّاب في علوم القرآن، وقد وضع فيه العلاّمة ابن القيم كتاباً خاصاً سماه «التبيان في أقسام القرآن» .

والأقسام جمع قسم، وهو بمعنى الحلف واليمين، وسمي الحلف يميناً؛ لأن العرب كان أحدهم يأخذ بيمين صاحبه عند التحالف. والقسم هو تحقيق الخبر وتوكيده، فهو – إذن – من أساليب التوكيد التي يؤكد فيها الخبر بحسب أحوال المخاطبين، فإذا كان المخاطب شاكاً في الخبر، متردداً فيه، يحسن أن توكد الخبر له، وإذا كان منكراً، وجب توكيد الخبر له بأدوات التوكيد، التي منها القسم.

والقرآن الكريم فيه الكثير من الأقسام، ولا يعنينا هنا ما ورد في القرآن الكريم من أقسام جاءت على لسان بعض الناس كالمنافقين واليهود وغيرهم كقوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ [التوبة:٦٢]، وقوله: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ [الأنعام:١٠٩]، لكن الذي يعنينا هنا ما أقسم الله تعالى به، سواء أقسم بذاته أم بأحد من مخلوقاته.

فمن القسم الأول قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:١٨] وقوله: ﴿ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ [يونس:٥٣]، وقوله: ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ [التغابن:٧]، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ﴾

[مريم:٦٨]، وقوله: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ [الذاريات:٢٣]، وقوله: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ [المعارج:٤٠].

يقول الأستاذ أحمد بدوي: «إن الله تعالى أقسم بلفظ الرّب تارة مضافاً إلى السماء والأرض في قوله: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ [الذاريات:٢٣] وتارة مضافاً إلى المشارق والمغارب، وتارة مضافاً إلى الرسول ﷺ لما في هذه الإضافة من فوائد، ففي إضافته إلى السماء والأرض إشارة إلى خضوع السماء والأرض لأمره، وفي ذلك تعظيم لشأنه عز وجل، وإيحاء بأن من كان هذا شأنه لا يُزج باسمه إلا فيما هو حق لا ريب فيه ولا مرية.

وإن في إضافة لفظ الرب في القسم إلى المشارق والمغارب ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ [المعارج:٤٠] هذه الإضافة توحي إلى القدرة البالغة التي تسخر هذا الجرم العظيم وهو الشمس، فيشرق ويغرب بانتظام وفي دقة وإحكام، وفي إضافته إلى الرسول ﷺ في قوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ﴾ [مريم:٦٨] إشعار بأن أرباب المشركين ليست جديرة بأن يُقسم بها أو تكون محل الإجلال والتقدير»[١].

أما القسم بمخلوقات الله تعالى فأمثلته كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس:١-١٠].

---

(١) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، ص١٧٠.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى:١-٣] وقوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا... ﴾ [النازعات:١] وقوله: ﴿ وَٱلۡفَجۡرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ [الفجر:١-٤] وغيرها من الآيات. وقد أقسم سبحانه بهذه المخلوقات تعظيماً لها - ولله تعالى أن يقسم بما شاء - فهي آثار لعظيم قدرته تعالى، وللقسم بهذه المخلوقات حِكَم عظيمة.

يقول الشيخ محمد عبده رحمه الله: «إنك إذا رجعت إلى جميع ما أقسم الله به وجدته إما شيئاً أنكره بعض الناس، أو احتقره لغفلته عن فائدته، أو ذهل عن موضع العبرة فيه، أو جهل حكمة الله في خلقه، أو انعكس عليه الرأي في أمره، فاعتقد فيه غير الحق الذي قرر الله شأنه عليه، فيقسم الله به إما لتقرير وجوده في عقل من ينكره، أو تعظيم لشأنه في نفس من يحقره، أو تنبيه الشعور إلى ما فيه عند من لا يذكره، فما أقسم الله به يوم القيامة، أو القرآن مثلاً فذلك لتقرير أن الأول واقع لا مفر منه، وأن الثاني كلام الله الذي لا ريب فيه، ثم يكون في ذلك تعظيم كليهما الأول لما فيه من سعادة وشقاء، والثاني لما فيه من الهداية والشفاء»[1].

وقد كثر القسم في القرآن المكي، فهو يتناسب مع أسلوب القرآن المكي ومن نزل فيهم القرآن، ومع ذلك فقد ورد القسم كذلك في القرآن المدني.

بلاغة القسم في القرآن:

والقسم في القرآن الكريم له أسراره، وذلك أننا نجد تناسباً وصلة وشيجة بين القسم وجوابه. اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى:١-٣] فقد أقسم سبحانه وتعالى بالضحى، وبالليل

---

(١) تفسير القرآن الكريم، جزء عم، الشيخ محمد عبده، ص١٠٩.

إذا سجى، وسبب نزول السورة تأخر نزول الوحي حتى قال بعض المشركين: «يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك» فأنزل الله تعالى السورة الكريمة.

والضحى هو وقت ارتفاع الشمس وانتشارها في الأفق، وسجى الليل: سكن، ويقصد به وقت سكون الليل وهدوئه، فقد أقسم بهما سبحانه وتعالى ذلك أن الناس يشهدون تألق الضحى في ضحوة النهار، ثم يشهدون من بعده فتور الليل إذا سجى وسكن، يشهدون الحالين معاً في اليوم الواحد، وكذلك الوحي الذي تجلى نوره على المصطفى ﷺ ، ما المانع من أن تكون هناك فترة يفتر فيها الوحي على ما نشهد من الليل، ولكنها فترة قصيرة، لأن فترة سكون الليل وهدوئه كذلك فترة قصيرة ليست بالطويلة، أقسم سبحانه وتعالى بهذين على أنه ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ والتوديع هو الترك، ومنه توديع المسافر، والقِلى البغض والكراهة، أي: ما تركك ربك وما أبغضك، كيف وأنت رسوله وخاتم أنبيائه وصفوته من خلقه.

واقرأ كذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ... ﴾ [الفجر:١-٢] وقد نزلت هذه السورة إبان احتدام المعركة بين الحق والباطل، وفي وقت كانت قريش تحاول فيه استئصال شأفة المسلمين فكان في تلك السورة الكريمة بشارة للمسلمين بنصر الله وتهديد للمشركين بالعذاب والعقوبة، فأقسم سبحانه بالفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسر، والفجر هو ظهور الضوء عند انشقاق ظلمة الليل، وهو الوقت الذي ينتشر فيه النور، وفي ذلك من الأنس والراحة ما تطمئن به النفوس وتستريح له الأفئدة.

وأقسم بليال عشر: وقد اختلف فيه المفسرون فقال بعضهم: إنها العشر الأوَل من ذي الحجة، وقال بعضهم: إنها العشر الأول من المحرم، وقال آخرون: إنها العشر الأواخر من رمضان، ولكننا نرد هذه الأقوال، لأن السورة مكية،

وفضل الليالي التي ذكرها المفسرون، إنما أخبر عنه النبي ﷺ بعد الهجرة، وثانياً: لأن اللفظ ورد نكرة، ولو قصد به شيء مما تقدم لقيل الليالي العشر، بالتعريف، أي: الليالي المعهودة التي هي كذا وكذا، ولكن اللفظ جاء نكرة كما قلت؛ فالمختار عندي أنها ليال كائنة في كل شهر، وهي الليالي التي يكون فيها القمر أكثر إشراقاً وأسطع نوراً لتتناسب مع الفجر. والشفع يمكن أن يكون المخلوقات كلها، والوتر الله تبارك وتعالى، وذلك لأن الكون كله يقوم على مبدأ الزوجين، ولكن الله تعالى وحده وتر. والليل إذ يسر، أي: يسري فيه الساري، وهذا القسم فيه كفاية وغناء للعقلاء الذين يتفكرون في هذا الكون كيف يتعاقب فيه الليل والنهار، والظلمة والنور، وكيف يطرد نورُ الفجر ظلمةَ الليل، وكذلك شأن الحق مع الباطل. وجواب القسم محذوف دلت عليه هذه الآيات فكأنه تعالى قال: أقسم بالفجر وما بعده لتعذبن أيها المشركون عذاب عاد وثمود وفرعون، وهي أمم عرب العرب في الجاهلية الكثير من أخبارها.

بقي أن نشير إلى صيغة وردت في كتاب الله تعالى وهي أن يسبق الفعل (أقسم) كلمة (لا) أي (لا أقسم) كما في قوله تعالى: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة:١-٢]، ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴾ [البلد:١-٢].

للعلماء في هذا الأسلوب (لا أقسم) توجيهات متعددة: يرى بعضهم أن (لا) جاءت لتأكيد القسم، أي: أقسم قسماً مؤكداً وأصلها «لأقسم» ولكنها أشبعت بالمدّ ويستدلون لذلك بأن قرئ في السبعة «لأقسم» .

وقال آخرون: (لا) نافية كأنه قيل: لا ليس الأمر كما تظنون. ثم ابتدأ فقال أقسم بهذا البلد.

وقال آخرون: إنه نفي للقسم، كأنه قيل: إن تعظيم هذا البلد مثلاً من الأمور المستقرة الثابتة، لا حاجة للإقسام به.

والذي نرجحه هو الرأي الأول.

ونكتفي بهذا القدر في هذا الموضوع، القسم في القرآن الكريم، ولله الحمد والمنّة.

* * *

المراجع

١- صحيح البخاري.
٢- صحيح مسلم.
٣- مسند الإمام أحمد.
٤- سنن الترمذي.
٥- فضائل القرآن لأبي عبيد.
٦- سنن الداري.
٧- مصنف عبدالرزاق.
٨- مصنف ابن أبي شيبة.
٩- سنن الدارمي.
١٠- الترغيب والترهيب.
١١- فضائل القرآن لابن الضريس تحقيق غزوة بدير.
١٢- فيض القدير.
١٣- الرسالة، الشافعي.
١٤- مناهل العرفان في علوم القرآن.
١٥- التبيان في مباحث علوم القرآن، عبدالوهاب غزلان.
١٦- البرهان في علوم القرآن.
١٧- شرح السنّة، البغوي.
١٨- الوحي المحمدي، الشيخ محمد رشيد رضا.
١٩- الحلية، أبو نعيم.
٢٠- الموطأ، الإمام مالك.
٢١- المفردات، الراغب الأصفهاني.
٢٢- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس.
٢٣- النبأ العظيم، ومحمد عبدالله دراز .
٢٤- الموافقات.
٢٥- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير.
٢٦- الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي.
٢٧- إحياء علوم الدين.
٢٨- التفسير الكبير، الفخر الرازي.
٢٩- المعجزة الكبرى، الشيخ محمد أبو زهرة.

٣٠- (شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله)، مجلة المسلمون العدد الأول، السنة الأولى.
٣١- المنار، الشيخ محمد رشيد رضا.
٣٢- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي.
٣٣- البرهان، في علوم القرآن، الزركشي.
٣٤- الكشاف، الزمخشري.
٣٥- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني.
٣٦- أسباب النزول، الواحدي.
٣٧- جامع البيان في تفسير القرآن، ابن جرير الطبري.
٣٨- الصحاح، الجوهري.
٣٩- النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير.
٤٠- لسان العرب، ابن منظور.
٤١- أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري للإمام أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي، تحقيق د. محمد سعد عبدالرحمن آل سعود.
٤٢- النشر في القراءات العشر، ابن الجزري.
٤٣- معجم القراءات.
٤٤- البرهان في أصول الفقه، إمام الحرمين أبو المعالي عبدالملك بن عبدالله بن يوسف.
٤٥- مجموعة فتاوى ابن تيمية.
٤٦- أنوار التنزيل، البيضاوي.
٤٧- بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي.
٤٨- تاريخ القرآن، د. عبدالصبور شاهين.
٤٩- نزول القرآن على سبعة أحرف، مناع القطان.
٥٠- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة.
٥١- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي.
٥٢- المرشد الوجيز لأبي شامة.
٥٣- منهج الفرقان إلى علوم القرآن، الشيخ محمد سلامة.
٥٤- المدخل لدراسة القرآن، د. محمد عبدالله دراز.
٥٥- تفسر ابن عطية، المحرر الوجيز.
٥٦- مرشد المقرئين ومنجد الطالبين.
٥٧- غاية النهاية في طبقات القراء.
٥٨- معرفة القراء الكبار.
٥٩- جزء عم، الشيخ محمد عبده.
٦٠- إعجاز القرآن، مصطفى صادق الرافعي.

المحتويات

غزاء الجنان بثمر الجنان

محاضرات في

علوم القرآن

ISBN 9957-447-29-7

9 789957 447298

